رواية



رواية

رضوى عاشور

أطيـــــاف

الفصل الأول

كان الوادي يفيضُ بالأطياف، أطيافُ صامتة تميل مع الغروب لتهبط تباعا إلى باطن الأرض حيث النهر المُستتر يحملها في المراكب مع مجراه المتدفّق إلى الشرق. صمتُ ثم صوت، خافتُ ثم يعلو، سوف يتردّدُ في الوادي بعد سنين.

لم تكن تسمع إلا الثلاثة الذين يخصّونها، زوجها وأخويها. ذهبوا ولم يعودوا. أغلقت على أصواتهم الباب، أحكمت إغلاقه بقفل أودعت مفتاحه صدرها. واصلت. كانت في الخامس والعشرين، لها طفلان، والثالث مازال بعد في بطنها. وضعته بعد ستة أشهر فكان بنتا.

- سأرعى الصغار والقيراطين، ولا دخل لأحد في شأني.

كره أولاد العمومة استغنائها، كرهوا رفضها الزواج من أي منهم، ثم كرهوا قدرتها على إدارة شأنها اليومي كأنها ليست من الولايا. وحين انحسر الغيظ المُعلن والكظيم ظلوا يراقبونها وينتظرون أن تثبت لها الأيام، وتثبت لهم أيضًا، بطلان الخروج على ما استنّه الآباء والأجداد. خذلتهم: كبرّت

الصغار وكفت حاجتهم. ظلت عيونهم تتابعها. كانت جميلة تزيدها مناعتها حسناً، لا يفوتها المشاركة في الفرح ولا الأحزان؛ تغني في الأعراس، وفى المآتم تفوق النادبات بما ترتجله من عديد.

- شجر عنيدة وتكابر!
- شجر أصيلة وعدّاها العيب.

هدأوا، عادوا يفسحون لها مكاناً بينهم وهى تصاحب نساءهم، يحملن جرار الماء من النهر أو يذهبن إليه بالأواني والملابس المتسخة. ومن كان يريدها من الرجال أو يعشقها غض الطرف عنها، كتم رغبته وتناساها حتى بدا أنه نسي.

- امرأة بعشرة رجال!

قالوها يوم شاع في القرية النبأ، لم تكن أذاعته ولا حكت تفاصيل ماجرى. قالت لابنها: "أبلغ أعمامك أن البنت ماتت". أتوا،

رأوا الصبية القتيلة، سألوا: كيف ومتى ومن؟ بقيت صامتة. لم تتبس ببنت شفة أربعين يوما حتى ظنوا بها الخرس. ولما عاد إليها الكلام لم تتحدث في الأمر كأن شهور حملها التسعة والسنوات الأربع عشرة التي كبّرت فيها ابنتها

سقطت أو لم تكن. واصلت زراعة الأرض مع الوالدين، كانا مثلها قويين، نشيطين، مدبّرين. أنتج كدهم فاشتروا قيراطين جديدين من الأرض ثم عادوا وباعوا واحدا منها لدفع مهر العروسين.

رقصت شجر ليلة العرس ثم رقصت لظهور كل حفيد من أحفادها العشرة. ولما ذهب أصغرهم إلى الكتّاب كانت الدار، ما شاء الله، تفيض بالشباب، يقلبّون الأرض، يبذرونها، يرعون نبتها ويحصدونها ثم يقلّبونها من جديد. وتفرّغت شجر لشيخوختها فجاءتها الأطياف.

أول الأمر كانت اللقاءات صامته. تدخل عليها الأطياف، تجلس في استحياء. هي أيضًا لم تكن تأتيها الكلمات، تسترق النظرات إليهم ثم تعود تحدّق في كفيها حائرة لا تعرف إن كان عليها أن ترحب بهم وتضيّفهم لأنهم أغراب أم تفسح لهم–لأن البيت بيتهم يسلكونه فيه حسب هواهم، يتحدثون، إن أرادوا، أو يصمتون. ولما تكررت اللقاءات استعاد الأهل أهليتهم في الحديث يعوّضون به سنين الانقطاع. تسأل أحيانا، وأحيانا تتحدث، وفي الغالب تنصت. كان لديهم كلام كثير عن ساحات الحفر و "عتبه الجسر" والعطش والصكوك. كل

هذا عاشوه وخبروه في شهور معدودة، كيف؟ تتساءل في استغراب لأنها عاشت قدر ما عاشت، تزوّجت وأنجبت، ترمّلت وكبرّت الأولاد والأحفاد، ناطحت الأهل حين ناطحها الأهل، وما توفّر لها سولا النزر اليسير من حكاية كحكايتهم.

تنصت. لا ترفع عينيها عن وجوههم وأيديهم وهى تنقبض وتنبسط مع مجرى الكلام. وحين يجتمع كل أفراد الأسرة على العشاء، وأكواب الشاي بعد العشاء، تعيد عليهم بعض ما سمعته. لا تنتبه وهي مأخوذة بالحديث أن الصغار يتغامزون ويكتمون ضحكاتهم. وإذا انفلت الضحك وانتبهت تقول: كفوا عن اللعب يا صغار، اسمعوا حكاية أجدادكم.

ثم أقعدها الوهن. لزمت الفراش، لا تأكل إلا كسرة خبز مغموسة في الشاي المحلّى بالسكر بعد صلاة الظهر، تَبقى عليها حتى نفس الموعد من اليوم التالي. شحّ ضوء عينيها. لم تعد تبصر إلا خيالات ولديها وعيالهما. الأطياف بقيت، واضحة كالشمس، تدفئها بالمؤانسة. فاجأتها ذات يوم بما لم تكن تتوقعه قط: اصطحبت معها ابنتها ولم تكن رأتها منذ اليوم الذي ضربتها فيه ثم وجدتها ممدّدة على الأرض بلا حراك.

صرخت شجر صرخة مدوّية أفزعت أهل الدار والجيران. جاءوا راكضين. لم ترهم، لم تسمع أسئلتهم. تعوي وتلطم خديها، لا ترى سوى ابنتها الواقفة أمامها لم ينتقص الزمان من تفاصيلها شيئا: عيناها، ضفيرتاها، ثوبها المنقوش بزهور دقيقة بيضاء، حتى ثدياها على حالهما لم تزدهما السنوات امتلاء كأن البنت لم تبلغ بعد. بعد الصخب والبكاء و الاتهامات الغاضبة جاء العتب و الحديث الهامس الحزين. توغلتا في شجون الكلام، وعلى غير انتباه امتدت يد شجر إلى يد ابنتها فتماسكت اليدان.

لم تذهب البنت وتأتي كالأطياف. لازمت أمها، صاحبتها ولم تفارقها حتى عندما اختلطت على شجر الأسماء وخبت النظرة في عينيها. ثم ذهبت شجر. حملها ولداها على أكتافهما ملفلفة في الأكفان، تبعهم الأحفاد والأهل و الجيران. غادروا الدار إلى المسجد. صلّوا عليها. نقلوها إلى المقبرة.

* * *

"لماذا شجر؟!"

لم يكن سؤالا بل تعبيرا مباغتا عن الاستياء. اعتبروه سؤالا:

"أسميناك على اسم جدتك الكبيرة".

- اسمك شجر؟ !

-الشجر عال وكبير. وقد يكون شجر المانجة!!

بدا ذلك الشق الثاني من العبارة مًفحما، فمن سوى البلداء لا يحب المانجة؟ !

في حديقة الجيران شجرة مانجة، شجرة سامقة يتفرع جذعها المعّرق الخشن إلى ثلاثة فروع غليظة كجذوع سواها من الأشجار، تًطلق بدورها أغصانا يصعب عدّها وهى تبين وتختفي بين كثرة الأوراق. لمن تكن مجرد مشهد أليف يطل عليه شبّاك الطفولة. تشتهي ثمارها، تلتقطها عيناها وهى حبّات صغيرة خضراء. تتابعها وهى تنمو وتمتلئ. وكأنها تكايدها فلا تنضج إلا أيام العطلة الصيفية: تسمع ارتطام الثمرة الناضجة بالأرض فتركض إلى الشبّاك، ترى أولاد الجيران وهمم يتسابقون إلى الثمرة الكبيرة بحجم كفين متلاصقين. وحين يأتي لها أبوها بالمانجة تأكل نصيبها منها بشهوة مزدوجة، تسطعم مذاقها الحلو اللاذع ورائحتها النفّاذة وتقضي شهوة معلّقة في فروع شجرة سامقة لا تملك ثمارها. قالت بزهو: "كشجرة المانجة!" تراجعت البنات. تقدمت اكثر:

– كشجرة المانجة: عالية وفاكهتها غالية!

في المدرسة، كسبت الجولة. في البيت لم تتصالح مع الاسم إلا بعد معرفة الحكاية التي وراءه.

كان موضع خلاف بين جناحي العائلة؛ بل تقتضي الدقة القول إنه وفّر ساحة للاشتباكات غير المُعلنة بين جدها لأبيها وجدتها لأمها. أطلعها جدها عبد الغفار على المناوشات الأولى، قال: "اقترحتُ أن نسميك عزيزة فلم توافق جُلْسُن هانم فقلت: نسمّيها شجر، ما رأيكم في شجر؟ بدت اكثر انزعاجا. قالت إن كان لابد من اسم يبدأ بحرف الشين فليكن شويكار أو شُكرية. لو لم ترفع صوتها وتشرئب بعنقها وتهزّه كالديك الرومي، لو قالت بلطف: ما رأيكم في اسم آخر؟ لطاوعتها، ولكنها مطّت شفتيها وعوجت رأسها كأنني قلت سمّوا البنت خنفسة. اغتظت. قلت سنسميها شجر وهذا آخر كلام! وقال أبوك: على بركة الله، مبروك عليكم شجر".

في ضوء هذه الواقعة تسهل قراءة تلك الصورة الأولى: شجر ملفلفة في الأقمطة البيضاء لا يبدو منها سوى وجه يميّزه شعر أسود كثيف وعينان مفتوحتان. تحملها ست جُلْسُن على ساقيها، تحيطها بذراعيها، تكاد تغمرها بجسدها

الممتلئ. الوجه مقطّب، لا يتطلع إلى الوليدة، ينظر إلى الأمام بنظرة لا تخلو من الغلّ. هل كان جدها عبد الغفار هو الذي يقف أمامها فيضطرها وهي تتطلع إلى آلة التصوير أن تتطلّع إليه أم كانت متأثرة بجراحها إثر هزيمتها في معركة الاسم؟

لم تتقبل جُلْسُن هانم الاسم ولم تمتنع عن استخدامه. إنقضّت عليه كما ينقض العدو على سلاح غريمه فينزعه منه ويصوِّبه نحوه. تشدّد على حرف الشين وهي تنطق بكلمة " شجر" بمزيج من السخرية والاستخفاف والتشفّي. متى نزلت شجر الميدان؟ لم تعد تذكر سوى انحيازها التلقائي إلى معسكر جدها لأبيها. تشبثت بالاسم. تمترست وراءه. أصبح البيرق الدال على الجيش الذي تنتمي إليه.

لم تكن الأرض الحرام بين المعسكرين سوى منضدة خشبية مستطيلة تفصل بين مقعد إلى يمين الداخل يجلس عليه جدها عبد الغفار وآخر يقابله، إلى يسار الداخل، تجلس عليه ست جُلْسُن. تقول شجر وهي بعد نصف نائمة، "صباح الخير يا جدي. صباح الخير يا تيتة"، تدخل الحمام، تفرك أسنانها، تغسل وجهها، ترتدي زيّها المدرسي وتغادر البيت-يصحبها

والدها إلى المدرسة قبل أن يتوجها كل إلى عمله- يرفع جدها رأسه عن الجريدة: "مع السلامة"، تتبعه جدتها وهي تواصل التطريز. في الرابعة بعد الظهر يعودون، تدير أمها المفتاح في الباب، ينفتح على ست جُلْسُن منهمكة مازالت في تطريزها وجدها غافيا على المقعد المقابل. يتنبه لدخولهم، يفتح عينيه، يبتسم.

كان قوي الذاكرة عفيّ البدن لا يّنم عن شيخوخته سوى تجاعيد الوجه والبقع البنية الداكنة على ظاهر اليدين. طويل القامة، يعزز هيبته قفطان من الشاهي المقلم تضيء لمعته رصانة لون الجبّة الداكنة، يرتديه للخروج. في البيت، الجلباب الأبيض وفوقه، في الشتاء، عباءة بنّية من وبر الجمال.

لا تنفذ حصيلته من الحكايات عن المشايخ والأفندية، والوفد والملك والإنجليز وسعد باشا، والوكالة والعاملين بها. أبوها لا يسمع هذه الحكايات. يذهب إلى عمله مرة أخرى في المساء فلا تراه إلا صباح اليوم التالي. أمها أيضا لا تسمعها. هل تسمعها جدتها لأمها؟ لابد أنها تسمع وهى جالسة في المقعد المقابل تشتغل في تطريزها ولكنها لا تضحك عندما

يضحكان، لا يبدو عليها التأثر عندما تصيب الرصاصة صدر الولد فتقتله ويحمله رفاقه وهم يهتفون "تحيا مصر".

في الأول أنجزت ست جُلْسُن ثلاث قطع شُدّت على عوارض خشبية: مشاهد رعوية: رجال ونساء يرتدون ملابس أمراء أوروبيين قدامى يسوقون أغناما في حقول مزينة بالزهور. علّقت اللوحات في الصالون في أطر مذهبة ثم أصرت على تغيير قماش المقاعد لتستبدل به الجديد الذي طرزته: مرة أخرى الأمراء-الرعيان. تتوتر ست جّلْسُن لفتح باب الصالون حتى لون كان الغرض تنظيفه. يفيض توترها عندما يأتي الضيوف ويستخدمون المقاعد ويحتسون ما يقدم لهم من مشروب. لا ترفع عينيها عن يد الضيف الممسكة بقدح الشاي إلا لتثبتها على زوجته" الرعناء"(هكذا ستصفها ما إن تنصرف)، "كان قلبي سيقف وهى تضحك، قلت لن تمر الليلة على خير, سينسكب الشاي على طقم الأبيسون!" أما إن جاء الضيوف بأطفالهم فتلك محنة حقيقية. ثم تأتي زائرة جهمة لا تضحك وبلا أطفال فيبدو أنها عين المراد. تذهب الضيفة وتقول ست جُلْسُن: "كان وجهها أصفر مثل الليمونة، من الحسد، والله أنا رأيي لا نُدخل أحدا من

الضيوف الصالون، نستقبلهم في الصالة!". تعد البخور، ترقي طقم الأبيسون واللوحات الثلاث سبع مرات. ثم تأتي بورقة، تقصها على شكل امرأة، تشكشكها بدبوس ثم تحرقها وهى تتمتم بالدعوات. تخرج وتغلق الباب بحرص.

الباب المغلق لا يثير خيال شجر أو رغبتها في اجتيازه. وراء الباب معلوم: طقم الجلوس مذهّب الحواف يحتل الغرفة، يجعل من الفراغات الفاصلة بين مقاعده الغليظة مجرد ممرات ضيقة تزيدها ضيقا منضدة لها مسطح رخامي اسود لا تتطلع إليه دون أن تذكر يوم اصطدم رأسها بحافته. سال دمها واقتضى الأمر المستشفى وبعض الغرز. بعدها التأم الجرح وبقيت منه ندبة دقيقة تحت حاجبها الأيمن وسخرية طفل من زملاء المدرسة من الضمادات البيضاء حول رأسها. اللوحات الثلاث والأبيسون زادتها نفورا من الغرفة. شيء واحد فيها تمنت لو نقلته منها: صورة أمها وأبيها، صورة الزفاف.

أبوها يضحك، يبدو انه يريد–احتراما للصورة– أن يقيّد فرحه ويبدو عريسا رصينا. تغلبه الضحكة فيظهر معلقا بين الحالتين: حيوية شاب حصل على الفتاة التي يريدها، وطقس

العرس الرسمي والصورة إلى تثبّته في عيون الأهل والأولاد وأولاد الأولاد. بجواره أمها في ثوب أبيض طويل لا تستقيم أبّهته مع طفولة وجهها–في الوجه عذوبة وبراءة وشئ من قلق– هي أيضا معلّقة، بين الطفلة والأنثى: الطفلة وجلة تتساءل، والأنثى مقبلة على استحياء. أبوها في السابعة والعشرين وأمها تصغره بسبعة أعوام، تتأملهما شجر الآن بعد سنوات من رحيلهما، تعي، وقد تجاوزت الخمسين أنها تكبرهما بسنوات كثيرة. في ثبات الصورة كان أبواها مجرد طفلين وكانت، لأن الحياة تمضي، أمّا لأبويها.

ماذا حدث، لماذا قفزت فجأة من شجر الطفلة إلى شجر في كهولتها؟ !أعيد قراءة ما كتبت، أتملاّه، أحدّق في الشاشة المضاءة، أتساءل هل أواصل حكاية شجر الصغيرة أم أعود إلى الجدة القديمة وأتتبع مسار ذرّيتها وصولا، مرة أخرى، إلى الحفيدة؟ والأطياف، هل أبقيها مهمّشة مبهمة تحوّم على أطراف النص أم أُدخلها فيه وأُفصّل بعض حكايتها؟ وهل أقتصر على أطياف الجدة أم أفسح المجال لسلالة الأطياف، وهل من نص يحتملها؟ !قد تقتضي الحكمة أن أمحو ما كتبت وابدأ في سرد حكايتي مباشرة. وشجر؟ هل أُبقيها وأعلّق

الحكاية بيننا أم أسقطها واكتفي بالكلام عن رضوى؟ ولكن لماذا جاءتني شجر وأنا اشرع في الكتابة عن نفسي؟ من هي شجر؟ !

حرّكت المؤشرة إلى قائمة الملفّات وضغطت ثم حرّكتها إلى" أغلق" فاستبدلت بالمسوّدة الشاشة البيضاء. أغلقت الجهاز ودخلت لأنام. نمت نوما مضطربا تداخلت فيه أحلام لم اذكر منها سوى وقعها الثقيل. أصبحت مرهقة كأنني في نهاية يوم طويل. وأنا احتسي قهوتي عدت أتأمل ماذا افعل بشجر.

شغّلت الجهاز وأشّرت على برنامج "كلمات" ثم فتحت ملفّ شجر. كتبت:

ما بك يا شجر، تجرّين عمرك كبغل هرم، هل تتناسخ الخيول بغالا؟ ! وهذه العربة المكّدسة الثقيلة كيف كانت تبدو في بداية المطاف؟ حوض فلّ وياسمين أم أن الذاكرة تضفي على الماضي ما لم يكن فيه؟ في الصباح يبدو كل شيء صعبا، ما الذي تخشينه، هل هزمك الخوف أم أخافتك الهزائم؟ أم أن الموت والحياة يتعريان بلا حياء ويتضاجعان على فراشك وأنت بلا حول ولا قوة تراقبين، وتصرخين بلا

صوت؟ تقولين هذه كلها أوهام، تسقطينها، تقومين إلى صنبور الماء وفرشاة الأسنان وصباح الخير والقهوة. غبار المعارك لم يتبدد بعد ولكنك إذ تقودين سيارتك فوق الجسر المعلّق تستدرجك التفاصيل: نخلة تحمل عودها باعتداد، غيمة سارحة، مجرى النهر، سائق سيارة يتجاوزك بجلافة فتلعنين والده بصوت مسموع ثم تكتشفين أن صوتك لم يصله لأن نوافذ السيارة محكمة الإغلاق.

(كان المقاتل مات/ جاءه رجل وقال: "لا تمت فأنا أحبك كثيرا!"/ ولكن الجثمان، يا للحسرة، واصل الموت. /

جاءه اثنان آخران، قالا له:/ "لا تتركنا! تشجّع! ارجع إلى الحياة!"/ ولكن الجثمان، يا للخسارة، واصل الموت./

ثم جاءه. . . (كل أحبابه) /أحاطوا به؛ رآهم الجثمان الحزين، هزّه التأثر/ نهض ببطء/ احتضن أول شخص؛ وبدأ يسر.)

وقّعت شجر واستلمت المظروف البني الذي سبق أن أغلقته وسلمته إلى الكونترول قبل أسبوعين. حملت المظروف. سارت باتجاه اللجنة. نظرت في الساعة: تمام التاسعة إلا سبع دقائق. انتظرت دقيقتين. سلّمت المظروف

للمراقب. فضّه. أعطى رزما من ورق الأسئلة للملاحظين. توزعوا مهرولين بين الحجرات والممرات لتسليم الطلاب أوراق الأسئلة. في تمام التاسعة بدأ الامتحان.

منذ تعيّن عليها الاستعانة بالعصا في السير تقبّلت الأمر بهدوء أدهشها، تصالحت مع المشكلة؟ ما المشكلة في أن تصاب في ساقها فتضطر وهى في الخمسين إلى السير على عصا؟ ! ركضت طويلا وكثيرا فما الضير في أن تدخل عقدها السادس تلازمها العصا لتذكّرها أن الطفلة والصبية، وبهاء المرأة في الثلاثين، وفى الأربعين، تغادر جميعها الآن وتترك لها مهمة مواصلة الطريق باتجاه الشيخوخة؟! تنسى وجود العصا. في الامتحان تذكره. تكره دقّاتها على الأرض، تزعج الطلاب، تشتت انتباههم، لا تسمح لها بالاقتراب في هدوء من أحدهم لتلقي نظرة سريعة على كراسة الإجابة وتطمئن خلسة انه لا ينقل من ورقة خارجية حملها ليغش منها. تصبح العصا جرسا صغيرا منبّها؛ يرفع الطالب رأسه ويتطلع أولا يفعل حياء أو خبثا. تزعج العصا الجالس في أمان الله منهمكا في التفكير في الإجابة، وتنبّه السارق الصغير بجهاز إنذارها المبكر.

لم تعد تمشي في اللجان. تدخل اللجنة، تختار لنفسها موقعا يتيح لها مراقبة الطلاب. جندي حراسة يشرف على مباني السجن. من أعلى البرج، لا ينقصها سوى بندقية تشرعها في وجه المساجين، يا إلهي، أي دور؟ !

انتهى الامتحان. جمع الملاحظون أوراق الإجابة. عادت إلى مكتبها. طلبت القهوة. احتستها. وقعت بعض الأوراق. ناقشت دارسا في مشروع بحثه. نزلت إلى"الكونترول" لاستلام أوراق الإجابة. أحصت الأوراق واستلمتها: خمسمائة وست وخمسين كراسة إجابة على امتحان مادة التاريخ الحديث للفرقة الرابعة. قام أحد المعيدين بربطها بخيط من الدوبار. حملها الساعي إلى سيارتها. في البيت وضعتها في غرفة المكتب. أغلقت الباب بالمفتاح. غدا تبدأ الطقس السنوي.

في سريرها أغمضت عينيها لتنام ولكنها رأت الأوراق التي صححتها طوال ثلاثين عاما. عشرات الآلاف من كراريس الإجابة ترتفع من حولها أعمدة تسد الفضاء، تترك لها حيِّزا صغيرا تجلس فيه. القلم الأحمر في يدها. نظارتها على أرنبة انفها. الكراسة مفتوحة أمامها تفيض سطور

الإجابة عن صفحاتها. فتحت عينيها. فزت قائمة بجذعها. تربّعت على السرير. ليس صحيحا! هناك دائما طاقة، ضوء، هواء عصفور. لا تنكري يا شجر، ولم يكن أبدا عصفورا واحدا. دائما تأتيك، دائما تفاجئك تلك الطيور المدهشة، تخرج من بين الأوراق، تحملك معها إلى رحب الفضاء. من يتصل في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ رفعت سماعة التليفون. "امرأة ناجحة؟ . . ما شأني بذلك؟ . . . مقوّمات النجاح؟ سيدتي نحن في منتصف الليل!". وضعت السماعة. سحبت سلك التليفون من الفيش.

الفصل الثاني

هل كان المكان موحشا بالقدر الذي شعرتُ به؟ هل كانت الوحشة تسرح في ممراته مع خطى الراهبات. لا وقع لخطواتهن، لا صوت. أتطل، أتابع حركة أجسادهن وقبّعاتهن: غطاء رأس قماشي أبيض منشّى تمتد حوافه في شكل غير مفهوم، متصلّب، هو حواف القبعة. المسبحة والصليب يتدليان من نطاق الخصر على طّيات ثوب أبيض أو بنيّ يستر الجسد كلّه ويترك لزوج من الجوارب السميكة وحذاء جلدي واطئ مشدود بالأربطة مهمة ستر القدمين.

اصطحبني أبي إلى المدرسة، أذكر ذلك، وأيضا ملابس الراهبات، وخوفي، وذلك البلل وأنا منكمشة في مقعد خلفي في سيارة المدرسة. تتوقف لتُنزل تلميذة أمام بيتها ثم تستأنف طريقها لتتوقف مرة أخرى لتُنزل تلميذة أخرى، وأنا موزعة بين رغبة في الوصول إلى البيت والاستكانة إلى المقعد المشمس بديلا عن القيام بثوب مبلّل أقطع به الطريق إلى باب السيارة أمام باقي التلميذات والمُشرفة والسائق.

قالت الراهبة: "لابد أن تأكلي!" "لا أريد". حدجتني بنظرة صارمة وكررت الأمر. مددت يدي إلى الطعام. البنات يجلسن على دكّتين خشبيتين متقابلتين على جانبي مائدة مستطيلة تتجاور عليها الصحون، لكل طفلة صحنها. رفعت المعلقة إلى فمي. مضغت. ابتلعت. مرة أخرى أعدت الكرّة. في المرة الثالثة اندفع الطعام من جوفي على المائدة وملابسي والأرض. حين عدت إلى البيت قلت إنني لن أعود إلى المدرسة.

في العام الدراسي التالي اصطحبني أبي إلى مدرسة أخرى. لم تكن مدرسة راهبات. مدرسة فرنسية اسمها مكتوب بحروف لاتينية كبيرة على جانبي السيارة، تحملني من البيت في صباحات الشتاء نصف المعتمة وتعيدني وشمس العصر تنفذ من زجاج النوافذ المغلقة. المشرفة ذات الشعر الأبيض القصير جدا، طويلة ونحيفة وصارمة ولها اسم غريب. مدموازيل ريه لا تسمح بالكلام فيؤجل الصغار صخبهم ويستكينون لإنهاك يومهم المدرسي الطويل ولدفء شمس الشتاء وهزهزة السيارة. تتوقف فيقوم الطفل من خدره كأنه كان نائما ويقول وهو ينزل من السيارة جملتين بلغتين،

الأولى بالفرنسية: "أورفوار مدموازيل" تتلوها بالعربية: "مع السلامة يا أسطى".

صورة الأول الابتدائي: أربعة صفوف، أولاد وبنات بين الخامسة والسادسة في الزي المدرسي الموحد. رضوى في أقصى يسار الصف الأخير، شعرها قصير، وجهها شاحب، يبدو شاحبا، تتطلع. لا ملاحة الوجه ولا ذكاء العينين يظهران هنا بل نظرة مبعثرة ومسحة من الخوف.

لم يطل الأمر على ما يبدو فالصغار يكيّفون عالمهم، غالبا، ويتكيفون أيضا. في الثامنة، في التاسعة، وفى الحادية عشرة تجلس رضوى متربّعة على الأرض في الصف الأول أو جالسة على الدكّة الخشبية في الصف الثاني. تضحك حتى وهي لا تضحك. التماع العينين، ميل طفيف في الرأس أو الجذع، انحراف يكاد لا يُرى في طريقة الجلوس تفضح الهدوء المدّعي للصغيرة التي ربّعت ذراعيها على صدرها واكتفت بابتسامة رزينة مناسبة للمقام. في الفصل، خارج الصورة، تثرثر، تضحك بصوت عال، تشاكس زميلة لها، تعاقبها المدرسة بصفر سوف تسجله في تقريرها الشهري وتؤكده بحلقة حمراء.

أهم ما في المدرسة ملعبها الشاسع. تضيع فيه ضحكاتنا مهما علت. نركض بلا رادع فلا نصطدم بمكتب المدرسة أو اللوح الأسود أو حقيبة زميلة من الزميلات. نغادر الملعب للدخول إلى الفصل فيبدو هذا مؤسفا ثم نغادره مرة أخرى لركوب سيارات المدرسة للعودة إلى منازلنا فلا يكون هذا مؤسفا بنفس القدر لأن هناك ما ينتظرنا وننتظره. نحصي ما معنا من قروش ونستعد.

نركب الأتوبيس ونستقر على مقاعدنا فتقف المشرفة وتشرع سبابتها وتحصي الطالبات وحين تتأكد من عدم تخلف أي منهن تغلق الباب وتقول للسائق بلكنة واضحة: " يلاّ يا أسطى". تخرج الأتوبيسات متتابعة وفي بطء يمليه عددها وازدحام الشارع الجانبي الذي يفتح عليه الباب الخلفي للمدرسة. هنا يقف بائع التفاح المغلف بطبقة من السكر الأحمر المعقود، ينادي على بضاعته بالفرنسية: "لي بوم، لي بوم". من نافذة الأتوبيس نمد أيدينا بالقروش ويمد البائع لنا يده بالحلوى. التفاحة مثبّته في عود خشبي تمسكه كل منا كما تمسك المصّاصة وتروح تلعقها ببطء قبل أن تقضم.

لا يوازي متعة تفاح الثالثة ظهرا إلا الكهف المستقر بطول سنوات الدراسة في أقصى الجانب الأيسر من الملعب. يقع في الطابق الأرضي. له باب خلفي من داخل المبنى ومنفذ يطل على الملعب. أمام الباب الخلفي يصطف أولياء الأمر بعد دفع المصروفات في أول العام الدراسي. أقف بجوار أبي، ننتظر. أخيرا نصل إلى عارضة خشبية تفصل بيننا والعاملات في الداخل. يقدم أبي وصل المصروفات فتأتي السيدة بصفّة كتب وكراسات جديدة. تعيد لنا الوصل مختوما بخاتم المكتبة. يحمل أبي الكتب وأحمل الحقيبة- الفارغة حتى الآن، وما أن نصعد إلى الطابق الأول حتى ننتحي جانبا لنحشوها بالكتب. احمل الحقيبة على ظهري فلا يحول ثقلها دون أن أمشي متقافزة. في البيت أتصفح الكتب. أدسّ أنفي بين صفحاتها. استنشق رائحة ورقها. أمر بكفي على سطحه المصقول. أتأمل الصور والكتابة.

في سنوات لاحقة سوف اقف أمام الشباك ذي القضبان الحديدية الذي يطل على الملعب، انتظر أن تلّبي البائعة طلبي: كتاب أو كراسة. أتملّى المتاح لعينيّ من المكان الذي لا أرى منه سوى جانب واحد من الكتب المصففة بعناية فوق

بعضها. لم يتح لي أبدا ولا سمعت أن غيري من طلاب وطالبات المدرسة أتيح له أن يتجاوز القضبان الحديدية لمنفذه من ناحية الملعب ولا العارضة الخشبية لبابه المفضي على الطابق الأرضي للمبنى. لم يكن سوى مستودع لبيع الكتب المدرسية ولكنه كان محاطا بسحر ما، وبغموض وجاذبية الأماكن نصف المعتمة، نمد يدنا لأننا لا نملك سوى أن نفعل رغم معرفتنا أن اليد لن تصل وان الملامسة مستحيلة.

عام ١٩٥٦ تغيرت الإدارة. أُمِّمت المدرسة. أصبح لها اسم عربي استبدل بالاسم الفرنسي على الكراريس والشهادات وباب المدرسة وسياراتها، يُكتب بخط بارز وتحته بين قوسين وبخط أصغر الاسم الفرنسي القديم. لم نعد ندرس تاريخ فرنسا ولا جغرافيتها، جاء أساتذة مصريون لتعليمنا هاتين المادتين، مضافا إليهما مادة جديدة اسمها التربية الوطنية، باللغة العربية. رحل بعض الأساتذة الأجانب. لم يرحل أستاذ الرياضيات. بقي ليواصل ازدراءه لنا بمناسبة ومن غير مناسبة. يوبِّخنا فيكتسي وجهه بعلامات القرف كأننا ذبابة سقطت في حسائه فملأته تقززا، وغيظا أيضا، لأنها أفسدت عليه طعامه. تبلغنا رسالته عبر كلماته أو

نظراته أو إشارات اليدين، دائما نفس الرسالة: لا نفع، لا رجاء، الأفق مغلق تماما سوى فك الخط، وقراءة الطالع في الزاوية المهملة من الجريدة لقطع الوقت حتى يعود الزوج من عمله اليومي.

مدام ميشيل أيضا، لم ترحل. علمتنا اللغة الفرنسية طوال أربع سنوات إنتقلنا فيها معها من فرقة إلى فرقة حتى بدا لنا أنها كالقدر في التراجيديات الكلاسيكية التي ندرسها، لا رادّ له ولا فكاك منه. كانت أقرب لشخصية في مسرحية كوميدية: خمسينية، كبيرة الأنف، صغيرة العينين، يغطي الثلث الاعلى من جبينها قُصّة ملفوفة كالأنبوب، تحرص على لمسها من حين لآخر للتأكد من تماسك قوامها. ترتفع اليد إلى الشعر حينا وفى الفضاء حينا- في الحالة الثانية تقترن بحركة مفاجئة من الرأس- مبالغ فيها دائما- نترجمها أنها غاضبة أو مخذولة أو ستسقط مغشيا عليها من هول إجابة خاطئة. يدق الجرس معلنا انتهاء الحصة، تتجه مدام ميشيل إلى مرآتها- تعلّقها في جانب من الفصل- تلقي نظرة سريعة على وجهها، تتحسس غرّتها الأنبوبية، تخرج علبة بودرة من حقيبتها وبحركة عصبية خاطفة تحرك البدّارة في خبطات

متقطعة على بشرة الوجه وعلى الأنف تحديدا. تغلق العلبة، تعيدها إلى حقيبتها، تجمع أوراقها من على المكتب وتغادر على عجل فيتحرك كتفاها يمينا ويسارا بتكرار آلي سريع. نتابع حركة كتفيها. لا نضحك. نتنفّس.

طلبت منا مدام ميشيل كتابة موضوع إنشائي يصور فيه كل منا نفسه قالت: "أوتو بورتريه". كتبت: عن النيل وبيتنا وأمي وأبي وأخوتي. قلت: أحب الشيكولاتة والمانجة ورائحة الكتب الجديدة وركوب الدرّاجة والقصص. ختمت موضوع الإنشاء بالحديث عن أدائي المدرسي. قلت إنني متفوقة في دراستي وذكية بما يكفي، وان الدكتور بابا زيان الطبيب الأرمني الذي يعالج لي أسناني يقول: "أنت يا رضوى طفلة نابهة وسيكون لك مستقبل في العمل الذي تختارينه".

جمعت مدام ميشيل الكراريس. بعد أسبوع أعادتها. فتحت كراستي فإذا بالدرجة اثنين على عشرة. قبل أن استجمع شجاعتي للاستفسار عن سبب الدرجة، نادت مدام ميشيل: "مدموازيل عاشور" وقفت. قالت: " إقرأي الفقرة الأخيرة من الموضوع الذي كتبته!" قرأت بشيء من التلعثم. ما الذي حدث؟ ما الذي أغضبها إلى هذا الحد؟

لماذا السخرية والاستهزاء من عبارة: "اعتقد أنني ذكية بما يكفي"؟ قالت: "طبعا ذكية بما يكفي لكتابة إنشاء رديء ينم عن الغرور والغباء، ويكتمل سوؤه بخمسة أخطاء هجائية. في الموضوع خمسة أخطاء هجائية!" هل من اللائق أن أقول شيئا، بدا لي أن التهذيب يقتضي ذلك، اجتهدت: "أنا آسفة على أخطاء الهجاء. تصورت أنني أعرف هجاء الكلمات التي كتبتها خطأ، لو كان عندي شك رجعت إلى القاموس، لم أتعمد الإهمال. ولأن الفرنسية ليست لغتي.. " قاطعتني: "سنقرأ في مسرحية"السيد" لكورناي. افتحوا الكتاب. " نسى خمس من الطالبات إحضار الكتاب، ولسوء الحظ، كنت من بينهن. جاء التوبيخ الجماعي في الأول: "إن شاء الله... إن شاء الله! هكذا كانت الحياة بالنسبة لكُنّ وهكذا تستمر، إهمال وبلادة وفوضى!" لم يكن في العبارات ولا في نبرة الازدراء الساخر جديد. الجديد جاء فيما خصّتني به من تقريع: "مدموازيل عاشور لا رجاء منك. سأسقطك من حسابي كأنك غير موجودة!". أشاحت بوجهها بحركة تمثيلية.

لم تسقطني من حسابها: في الأسبوع التالي طلبت من مدرسة اللغة العربية أن اذهب إلى دورة المياه، سمحت لي.

ذهبت. عدت. مدام ميشيل تقف بالقرب من الباب في انتظار الجرس الذي ينهي حصة العربي ويبدأ حصة الفرنسي. سألتني، قلت: "كنت اشرب!" لم تعلق. دق الجرس. انصرفت مدرسة اللغة العربية. دخلت مدام ميشثيل. بدأت الدرس بمحاضرة عن استخفافنا بمدرّسي اللغة العربية والتسيّب الذي يسود الفصل في حضورهم. بدد التوبيخ الجماعي توجسي، "مرّت بسلام" سيقتصر كلام مدام ميشيل على تلك المحاضرة المكررة التي نعرف أنها بلا معنى. بدأت شرح الدرس ثم فجأة نظرت في اتجاهي: "مدموازيل عاشور اذهبي لتشربي!" بوغتّ. غادرت مقعدي. ذهبت إلى دورة المياه. فتحت صنبور الماء وشربت. عدت إلى الفصل. بعد دقائق نادتني مرة ثانية. أشّرت بيدها في اتجاه الباب وعززت الإشارة بتحريك رأسها في نفس الاتجاه: " قومي أشربي" لم أقم مباشرة هذه المرة، غلبني الارتباك. كررت الأمر بلهجة شرسة فقصدت صنبور الماء. وقفت بجواره أبكي. مسحت دموعي. غسلت وجهي. عدت إلى الفصل. جلست منكمشة لا أتمنى سوى أن تنسى مدام ميشيل أنني موجودة في الفصل أو في هذه الدنيا. ولكن عينيها عادتا تحدقان في وتأمران للمرة

الثالثة أن أقوم لأشرب. هل هدأت المربية الفرنسية وارتاحت أخيرا حين انسالت دموعي أم تأكدت من إنجاز مهمتها حين رأت بوضوح اثر انتصارها الساحق في وجه الطفلة المفزوع والفاقد لكل اتجاه؟ ! واصلت الدرس.

مدام ميشيل لا تحبني ربما لأنني أيضًا لا أحبها، أقول لنفسي. لا تحب فاطمة ولا نبيلة ولا سهام ولا زينب. لماذا؟ تحب مدام ميشيل فرنسواز، وتصبح عذبة وهادئة حين تتعامل مع جانين وميراى وجوسلين. مع إنغريد زيغل تكون متوترة أحيانا وأحيانا لا تكون. حين تغيب إنجريد تسبّ مدام ميشيل الألمان وتسخر منهم ولكنها لا تفعل ذلك في وجودها. وهى أكثر صبرا و اقل حدة مع ميراي كوهين وزنيه ليشع ومادلين أبو العافية ومادلين مزراحي وفرتونيه صالح. أستاذ الرسم يحبهم أكثر منا. اختار رنيه لتلعب دور الأميرة الشرقية في حفل عيد الميلاد. انهمكنا في تزيين شجرة العيد وصنع نموذج صغير للمذود الذي ولد فيه المسيح. أحطناه بالقش ووضعنا فليه تماثيل صغيرة. تحلقنا حول أستاذ الرسم وهو يعد رنيه لدورها. يضع مسحوقا ورديا على البشرة، لمسة من الأحمر على الوجنتين، أسود للعينين و أحمر

لتحديد الشفتين، صفف شعرها. تراجع خطوتين، تطلّع إلى وجهها متفحّصا وابتسم.

قالت إنجريد: "ثوبي غير مناسب. هل يمكن أن استعير ثوب رضوى؟ " كانت تتوجه بالكلام إلى الأستاذ. نظر إلي، قال: " ثوبك جميل هل يمكن أن تعيريه لإنجريد لنصف ساعة لتؤدي رقصتها؟ "لم ترقني الفكرة.

قلت: " طبعا لا أمانع".

استبدلت بثوبي ملابس إنجريد وجلست أتابع المشهد التمثيلي. أعقبته إنجريد برقصة صرت أتعرف عليها لاحقا حين يعرض التليفزيون رقصات شعبية من شرق أوربا. تقرفص على الأرض، تحرك ساقيها بالتبادل في مهارة وسرعة، تقدم ساقا ثم تؤخرها وهى تقدم الأخرى وتعيد الأمر مرات عديدة. تتوقف. تلف على قدم واحدة وهي مقرفصة. تقفز واقفة. تقفز وتنكب وتقرفص من جديد وتبدأ في تحريك ساقيها. تابعت الرقصة موزّعة بين إعجابي بمهارة إنجريد وانتباهي الشديد لذيل الثوب المزين بشريط من الفراء الأبيض وهو يمسح الأرض مسحا كلما قرفصت إنجريد ودارت وحرّكت ساقيها.

لم تفسد واقعة الثوب علاقتي بإنجريد التي بدأت واستمرت في سياق من الود يختلف عن سياق العلاقة برنيه وأختها ومادلين وإيرين، ربما بسبب التعالي الذي أستشعره في سلوكهن، وربما للسخرية المبطنة والاستخفاف والتغامز حين يتحدث أستاذ التربية الوطنية أو أستاذ اللغة العربية عن العدوان الثلاثي أو ثورة الجزائر أو عبد الناصر. جابي تختلف، لا شيء يستفز في سلوكها، طيبة وعذبة في تعاملها. والبنت الأخرى أيضا، لم أعد أذكر اسمها، كانت وديعة. دقيقة الملامح، صغيرة الحجم، همست في أذني. "رضوى هل تقبلين وضع اسمك على بيان يستنكر إعدام جميلة بوحريد؟ " قرأت المكتوب. أعدته إليها. قالت: " توافقين على ما جاء فيه؟ " أوافق طبعا لكن ما جدوى رسالة من هذا النوع؟ سوف يعدمها الفرنسيون على أي حال!" قالت: " أهلي يقولون إن بالإمكان وقف إعدامها". وقّعت. كنت مندهشة إلى حد عدم التصديق: معنى البيان، قيمة توقيعه، وسلوك هذه البنت اليهودية الصغيرة المختلف عن سلوك معظم الطالبات اليهوديات.

ذات صباح جاءنا ثلاثة موظفين من وزارة التربية مروا على كل طالبات الفصل في يد كل منهم قلم احمر ومقص.

(كانت المُدرّسة أكدت علينا في اليوم السابق أن نحضر مسرحية" البخيل" لموليير وكتاب "الحضارات القديمة" المقررين علينا). ما الذي يفعلونه؟ كان علي أن انتظر حتى أجد الرد. مال رجل منهم علي، سوّد عبارة وردت في المسرحية، سودّها تماما؛ ثم أمسك بالملزمة الخاصة بفصل الحضارة العبرانية وقصّها. ولا اعرف حتى الآن إن كان مؤلف ذلك الكتاب الفرنسي ربط بين الحضارة العبرانية القديمة ودولة إسرائيل المعاصرة أم لم يربط. ظلت الإجابة غائبة كالصفحات المنزوعة من الكتاب.

في الثالثة عشرة أبدو وسط بنات الصف متسائلة مرتبكة، كأني خائفة أو على مفترق طريق يتفرع أمامي ولا أدري أيها يقود إلى أين. في الحكايات هناك دائما سكّتان، واحدة للسلامة والأخرى للندامة، والغولة التي يتوجب على الشطّار تجاوزها بالحيلة والمراوغة. لا أدري ما الذي أريده أصلا لكي أختار سكّة من بين السكك. تعددت المراجع وتشابكت الخيوط وبدا أنها تزداد كل يوم تعقّدا وأنا بعد لا أعي محتوى للسلامة ولا للندامة.

الفصل الثالث

وقف وراء المكتب وابتسم قبل أن ينطق بأي كلام، ولعله كسب الجولة منذ تلك اللحظة. بدت الابتسامة مدهشة لجميع بنات الفرقة السادسة، جلس بلا حراك يكدن يحبسن أنفاسهن في انتظار ما يقوله ذلك الشاب الذي تكذّب ابتسامته ووسامته وصغر سنه أنه أستاذ سيأمر وينهى ويوبّخ على إجابة خاطئة، ويعطي صفرا يُسّجل في الشهادة، ويتسبب في تقريع الأهل وتلقي صنوفٍ من العقاب. باستثناء أستاذين كانت المدرسات يقمن بالتعليم. الأستاذ يونان أستاذ الرياضيات خمسينيّ صارم السحنة. الأستاذ محمود أستاذ اللغة العربية، يسخرن من بدلته" الشارك سكين" البيضاء اللامعة وحمالات بنطاله حمراء اللون، حتى شعره الأسود الأملس كالحرير لم يثر إعجابهن إذ كان ما يثبته به من دهون يجعله زيتيا لامعا يثير التهكّم.

لم يكن نصيب البنات من الدهشة في ذلك اليوم من أيام أكتوبر عام ١٩٥٨ نفذ بعد. القاعدة المتسيبّة تقول إن التلميذة تسأل فيجيب الأستاذ، أو يسأل الأستاذ فتقدم التلميذة إجابة

يحكم الأستاذ عليها: يهز رأسه لأسفل مرة أو مرتين، حركة قد يعززها بكلمة صح أو يرتد رأسه مقطّبا كأنه أصيب برصاصة غادرة فتندفع يده بسبابة تشير إلى التلميذة المتهمة بالإجابة الخاطئة.

كسر الأستاذ القاعدة. استغربن وربما توجسن في انتظار أن يتضح لهن كيف تكون القاعدة البديلة أو كيف يسلكن، وعلى أي أساس، إن سقطت القواعد.

سأل الأستاذ عن معنى كلمة تاريخ واستمع إليهن جميعا، كان عددهن ثلاثين تتراوح أعمارهن بين الحادية عشرة والثالثة عشرة. لم يتحدث إلا في الدقائق الخمس الأخيرة من الحصة. قال. سمعتن إجابات بعضكن البعض والواجب الذي اطلبه منكن للدرس القادم أن تفكرن في السؤال، وتستعن بما سمعتن من إجابات. يمكن الاستفادة مما قيل اليوم، يمكن سؤال الأهل، يمكن البحث في كتاب أو قاموس. في الدرس القادم سأسمع من كل واحدة منكن الإجابة القديمة والإجابة الجديدة، قد تكون نفس الإجابة وقد تكون، بعد السؤال والبحث، تعدلت. إلى اللقاء. ابتسم، قال: بالمناسبة اسمي فوزي.

لا حيِّز للغناء، لا حيز للضحك، لا حيز للركض أو للتقافز كحبات الذرة المعرّضة للنار. بدت الحصص التالية عبئا لا يحتمل. دق الجرس معلنا نهاية الدروس والأسر فانطلقن ركضا على السلالم. تتعجل شجر الوصول إلى البيت لتحكي لأهلها عن الأستاذ، ولتسألهم عن معنى كلمة تاريخ ولتفكر- كيف يكون الواجب تفكيرا؟ الواجب المألوف حل مسائل حساب تسبب وجع الرأس أو نص طويل ومُملّ تطلب المدرسة نسخة مرتين و أحيانا ثلاثا، كتابة مضنية تترك على أعلى الإصبع الوسطى من اليد اليمنى ذلك الانتفاخ الملتهب المُلوَّث بشيء من الحبر غالبا ويتحول مع مرور الوقت إلى نتوء متحجر يشهد على كم الواجبات التي حملت الأصابع عبء كتابتها. كسر الأستاذ القاعدة، قال: إسألوا وفكروا. لعبة جديدة مدهشة ومثيرة ولكن كيف يكون التفكير القائم بذاته، المنفصل عن حل مسألة حساب تحدق في أرقامها وهي تمسك بالقلم وتسارع إلى تسجيل ما هداها عقلها إليه قبل ضياعه؟

بنات الصف السادس وقعن في حب أستاذ التاريخ ببراءة تليق بصبايا يغادرن طفولتهن دون وعي، ويدخلن

دون وعي أيضًا إلى عالم المراهقة. منهن من انشغلت بعينيه الخضراوين، ومنهن من كتبت قصيدة عن عينيه الزرقاوين(تسبب الخلاف على لون العينين إلى انقسام الفصل إلى فريقين يؤكد كل فريق منهما ما ينكره الآخر بحسم ويقين)، ومنهن تراه في أحلام اليقظة أو المنام. أحاطته شجر بهالة من القداسة، لا تشير إليه أو تتحدث عنه إلا وظننت أن موضوع الحديث ملاك أو مخلوق نوراني توفّر بمعجزة تفوق السابق من المعجزات فنزل من السماء، ليس إلى البرّية أو قمة جبل أو سفح وادي، ولكن مباشرة إلى قاعة درس بنات الفرقة السادسة فجمدهن على مقاعدهن كتماثيل حجرية لها قلوب تضخ الدماء فيها بنشاط استثنائي فتضطرم كأجساد حية وتشفّ وتتورد وهي ساكنة كالرخام.

درّس لها فوزي كامل شهرين ونصف ثم تغيب أسبوعا. جاءت عطلة نصف السنة ولما استؤنفت الدراسة في الأسبوع الثالث من يناير ١٩٥٩ جاء أستاذ آخر لتدريس مادة التاريخ.

أين ذهب الأستاذ فوزي؟ لا أحد من المدرسين أو المشرفين أو السعاة أجاب على السؤال؟ أين يسكن؟ هل لديه تليفون؟ صمت مطبق استجابت له شجر بغضب وتوتر

وتمرد على الأساتذة والدروس وأهلها كأنهم جميعا يتواطأون ضدها. مات؟ عندما مات زوج مُدرسة العلوم أخبرهم مدرّس اللغة العربية بذلك وقال: "عليكن مراعاتها بالهدوء وحسن السلوك". بعدها جاءت المدرّسة في ملابس سوداء. كان الموت واضحا، مُعلنا. اختفاء الأستاذ فوزي يلفه الغموض كأنه حدث في قصة بوليسية، ولكنها لا تستطيع القفز إلى الصفحات الأخيرة لتعرف كيف اختفى، ومن المسئول، وما الأسباب فتستعيده حيا أو ميتا. هل ترك المدرسة؟ هل طردوه منها؟ لماذا؟ ولِمَ لم يقل لهم أحد ذلك؟

عند نهاية العام الدراسي بدا لشجر أن الأستاذ فوزي ضاع كما يضيع خاتم ثمين من الإنسان دون أن يعرف إن كان سقط منه أو سُرق فلا يبقى له سوى التسليم بضياعه والاحتفاظ بمرارة جماله وفقده معا. في العام الدراسي التالي وكانت تثرثر مع زميلة لها في جانب من الفناء، همست زميلتها:

- اعرف أين ذهب الأستاذ فوزي!
- مات؟

- لا، اعتقل! أخي أخبرني أنهم أول العام الماضي اعتقلوا عددا كبيرا من الناس، منهم رجال ومنهم نساء.
- يعنى مسجون؟
- مسجونين.
- لماذا؟
- لأنهم شيوعيون؟
- يعنى إيه؟
- لهم نشاط في السياسة ضد الحكومة.
- ومن قال لك أن الأستاذ فوزي معهم؟
- لان أخي ذكر اسمه وقال: "أظن أنه أعتقل"
- يظن أم متأكد؟
- قال إنه يعرفه ويظن أنه أعتقل
- اسأليه لنتأكد. ولكن ما معنى شيوعي؟
- قلت لك: سياسة ضد الحكومة
- ضد جمال عبد الناصر؟

أومأت برأسها.

- متأكدة أنهم ضد جمال عبد الناصر؟

- هل كان يضعهم في السجن لو كانوا معه؟!

في البيت سألت شجر عن معنى كلمة شيوعي. أمها لم تعرف.

جدها عبد الغفار قال: إنهم أتباع سيدنا على. حرك أبوها رأسه لأعلى وهو يشيح بيده و انتقل إلى الحديث في موضوع آخر كأنه قدم لها الإجابة الوافية. عادت لسؤال زميلتها، لم يكن لديها سوى ما قالته في السابق.

- اسألي؟
- سألت وما فهمته من أخي نقلته لك!
- هل بإمكانك الحصول على عنوان الأستاذ فوزي؟
- صعب!
- حاولي!

بعد أسبوعين دست زميلتها في يدها ورقة وهمست في أذنها:

"العنوان". لم تركب شجر، ساعة العودة، سيارة المدرسة. خرجت خلسة مع البنات اللائى يذهبن إلى بيوتهن وحدهن. ركبت سيارة أجرة، أعطته العنوان. العبّاسية.

أنزلها السائق أمام بناية من خمسة أدوار. صعدت. تأكدت من رقم الشقة. ضغطت على الجرس. فتحت لها سيدة متوسطة العمر.

- اسمي شجر محمد عبدا لغفار وأنا تلميذة الأستاذ فوزي وجئت لأسأل عنه.

ترددت المرأة لدقيقة ثم قادتها إلى حجرة جلوس فسيحة مؤثثة بشكل لطيف.

- للأسف فوزي ليس هنا.

- أعرف.

- ماذا تعرفين؟

- أعرف انه في السجن.

- هل قالوا لكم ذلك في المدرسة؟

- لم يقل لنا أحد شيئا.

قامت ثم عادت تحمل كوبا من العصير.

- صحيح الأستاذ فوزي شيوعي؟

تطلعت المرأة إليها، لم تقل شيئا ثم بعد لحظات من الصمت قالت:

- لا أعرف.

بدت منزعجة. سألت شجر كيف عرفت العنوان. أجابتها.

- حضرتك والدة الأستاذ فوزي

- نعم

- ما معنى شيوعي؟

قامت السيدة ومدت يدها:

- شكرا على السؤال. مع السلامة.

ضربها أبوها. سبّها: "بنت شوارع؟! لم تجدي من يربيك ويهذبك؟! تدورين على بيوت الخلق تسألينهم عن ابنهم الشاب!!" لم تغفر له اعتبار الأستاذ فوزي مجرد شاب وسؤالها عنه تجاوزًا أخلاقيًا. ألقي بمحبرة على ملاكها النوراني، ووقفت أمها وست جُلْسُن وجدها عبد الغفار يراقبون الأمر دون أن ينطق أي منهم بكلمة.

الفصل الرابع

الصغار لأنهم صغار يرون الأشياء كبيرة، تتخذ في عيونهم أحجاما وأبعادا تناسب سنهم وذلك الحيّز الذي تحتله أجسامهم بين أجسام تفوقهم ثقلا وطولا وعرضا. الشخص الأطول هو الأكبر، والعم أو الخال الذي بلغ الثلاثين تقدم العمر به حتى يصعب استيعاب معنى هذه" الثلاثين" في سياق الأصابع الخمسة أو حتى العشرة التي سيشرعها الطفل منقصا منها ما ينقص لتحديد سنوات عمره. أما الجد أو الجدة فتلك حكاية أخرى يختلط فيها الواقع بالخيال، والملموس بالمبهم لان ما يقولونه من حكايات الماضي يضعهم بين عالمين، قدم هنا وأخرى هناك، وهذه الهناك المعتمة تمتد إلى ماض يعلم الله وحده أين يبدأ أو ينتهي.

بدا أنني أُمهِّد نفسي لرؤية المدرسة. المدرسة المترامية في الخيال سوف تصطدم الآن بحجارة مبنى فعلي، يعلو بقدر، ويمتد بقدر، في شارع بعينه من شوارع القاهرة. لم أجد مكانا أترك فيه سيارتي. درت حول المنطقة مرتين ثم

سألت شخصا عابرا فقال بإمكانك ترك السيارة في موقف البستان، ودلّني على الطريق.

كان بإمكاني قطع شارع التحرير ثم السير إلى شارع محمد محمود ولكنى فضلت أن أتجه إلى المدرسة من ميدان التحرير. لم يكن ذلك منطقيا تماما وان لم يخل من منطق. أردت أن أرى أولا الباب الصغير المخصص لأطفال الحضانة. هناك منطق أن نبدأ من البداية!

لا بد أن أبي اصطحبني عبر هذا الباب في أول أيام الدراسة. أذكر أنني بعد انتهاء اليوم الدراسي وقفت أنتظر أن ينادوا اسمي فأتوجه إلى صف مُعيَّن يقف فيه من يركبون نفس الأتوبيس. على صدري، فوق المريلة، مستطيل قماشي وردي اللون، ثبتته لي المدرّسة بأربعة مشابك، مشبك في كل زاوية. اللوحة القماشية تحمل اسمي وعنوان البيت ورقم التليفون. ساعتها بدا لي الأمر غريبا وتحدد إحساسي عندما غادرنا الفصل فوجدت كل الصغار المستجدين في الحضانة يعلقون على صدورهم تلك الرقع الوردية الكبيرة. أتطلع إليها ولا أضحك لأنني أعي أن على صدري رقعة مماثلة. الأطفال الذين يصحبهم أهاليهم إلى المدرسة يدخلون من هذا

الباب الصغير وأيضا يخرجون منه. أما نحن ركاب سيارات المدرسة فلا نستخدمه لأن السيارات تنزلنا في الصباح في جانب من الفناء، وبعد الظهر تنتظر في نفس المكان الذي نزلنا فيه فنركبها فتخرج من الباب الخلفي المفضي إلى شارع الشيخ ريحان.

شارع محمد محمود. السيارات كلها تدرُج في اتجاه واحد, إلى ميدان التحرير. المشاة يأتون منه أو يذهبون إليه. لم يكن الشارع مزدحما إلى هذا الحد. الجامعة الأمريكية كانت قائمة ولكني لا أجد في الذاكرة أي موقع لها. أمامها كان مقهى أسترا. جلست فيه في مطلع السبعينيات، بعد تخرجي من الجامعة بخمس سنين، مع شخص أراد تجنيدي للانضمام إلى إحدى التنظيمات اليسارية المستجدة. بدأ حديثه بالسخرية والاستهزاء من كل اليساريين القدامى. لم ينفّرني النقد (كنت أشاركه في البعض منه), نفّرتني نبرة الاستعلاء. توجّست من الثقة المطلقة في الذات. قلت لنفسي لو إن الرجل مشروع لينين سأندم على رفضي عرضه.

أزيل مقهى أسترا، متى؟ لا أدري، حلت محله مفردات ثقافة الكوكاكولا: "مكدونالد" و"بيتسا هت"، و"كنتاكي فرايد

تشيكن". الواجهات ملونة بالأحمر الصارخ، والأصفر اللامع، وتقليمة خطوط مائلة بالأحمر والأبيض: العلامة المسجّلة للكابتن الأمريكي صاحب الدجاج الذي لا يُعلى عليه.

أعبر الشارع فأجد نفسي أمام الباب الخشبي الصغير "للبتيه ليسيه": المدرسة الصغيرة. لا أتوقف لتأمل خشب الباب والقبة الصغيرة ذات العقود ومشاعري. أواصل المشي. بعد خطوات، الباب الآخر المخصص لبنات المدرسة من الصف الأول الابتدائي حتى الثالث الثانوي. خرجنا خلسة من هذا الباب مرتين أو ثلاثا لنشتري حلية للشعر أو دفترا جميلا من محل بدا ساعتها في مجاهل ما بعيدة. يذهلني الآن أن المحل يقع على بعد ناصية واحدة من باب المدرسة! أواصل بلا توقف حتى تقاطع شارع محمد محمود بشارع يوسف الجندي فانحرف يمينا مع سور المدرسة.

لم يكن خيال الطفلة ولا تلاعب الذاكرة: المدرسة كبيرة، كبيرة جدا، تحتل مساحة شاسعة، تطل مبانيها على ثلاثة شوارع. فناؤها صحن مكشوف تحوطه جدران المباني. البوابة المفضية إلى الإدارة تقع على شارع يوسف الجندي، في منتصف الحائط الشرقي. أواصل حتى التقاطع وأدخل

يمينيا إلى شارع الشيخ ريحان. باب "الليسيه دو غارسون" مدرسة الأولاد. باب خشبي ضخم، اكبر من باب مدرسة البنات. نفس نوع الخشب، نفس الطراز. ثم باب المسرح. (كان المسرح الخاص بالمدرسة تقام فيه الحفلات السنوية فتبهرني رقصات الباليه: الوقوف على أطراف الأصابع وليونة الجسد يتمايل أو يتقافز أو يطير، والأثواب الوردية والأضواء والموسيقى). الآن تحول المسرح إلى مسرح تجارى. بوابة كبيرة مشرعة، بوابة الجراج. أعرف أنه يفضي إلى فناء المدرسة. دخلت. استوقفني أحد العاملين. قلت: "كنت أدرس في هذه المدرسة، فقط أريد أن أطل على الفناء" لم يقبل، قال أن على أن استأذن الإدارة. خرجت، بعد خطوات وجدت نفسي أمام مدخل قاعة إيوارت بالجامعة الأمريكية. لم أعد إلى شارع يوسف الجندي لاستأذن الإدارة في الدخول إلى المدرسة وتأمل تفاصيلها بعد ما يقرب من أربعين سنة على تركها (درست فيها من اكتوبر ١٩٥١ حتى يونية ١٩٦٠) ثم انتقلت إلى مدرسة أخرى.

لم تدرس شجر في هذه المدرسة. ما الذي أفعله بذلك الأستاذ الذي اخترعته؟ هل أجعلها تقع في حبه وتنتظر

خروجه من المعتقل وأبني العلاقة بينهما وأقدم شخصية دالة على نموذج من نماذج الشيوعيين المصريين؟ سيقول إبني، وأنا أتأثر بما يقول، "هذا متوقع، ترسمين أستاذا فتقع البطلة في حبه. ماما جيلكم لا يخلو من الرومانسية، وقدر من الميلودراما-لا تغضبي- ولأنك يسارية ستجعلين هذا الشاب الجميل يساريا فتحبه البنت وتصبح بدورها يسارية!". (لا أعرف إن كان الحس الساخر والنفور من كل تحليق يؤلمني أم يطمئنني على هذا الجيل الصاعد دون الاتكاء على أوهام). هل أُسقط فوزي كامل وأجعل من حضوره في النص مجرد صوت يساعد الصغيرة على الانتباه إلى إمكانية الخروج من الصيغة المهيمنة؟ هل احتفظ به وأجعل شجر تلتقي به بعد سنين؟ وإن فعلت فكيف يكون فوزي؟! من عرفت اليساريين الذين قضوا الفترة من ٥٩ إلى ٦٤ في السجن عديدون، يختلفون في التكوين و القدرات وصفاء العقل؛ منهم الجميل ومنهم المشوّه. هل أجعله رومانسيا قديما يتطلع إلى شبابه بعين العطف والاستخفاف؟ قديسا احتفظ بنورانيته فبدا خارج الزمان والمكان، قديسا بلا أجنحة له حذاء معفّر وقدمان متعبتان؟ أم يكون شيخا ضائعا في الزحام

أو قائدا حزبيا مبهرا في قدرته على التكتيك، يناور فيختلط عليه خطاب المعارضة بخطاب الاستئناس أم حالة مأساوية موزّعة بين الصدق والالتباس، ونبل المسعى وارتباك الساعي, وومضات مضيئة وانكفاءات موجعة؟ لِمَ لا أبسّط فأجعل منه مقاتلا بهيّا حتى النهاية أو العكس، أجعله دلاّلا حديث النعمة فخورا بالجرس و"ألا أونا وألا دويه وألا تريه"؟!

لن تجعليه على هذا الشكل أو ذاك. ستفاجأين به يُشكِّل نفسه ويفرض عليك مصيره ومساره، أو تكتشفين أنه ذهب، سار مبتعدا وأنت منهمكة في الكتابة، وفجأة إذ تتذكرينه تلتفتين، تبحثين عنه فلا تجدينه. لا قرارات مسبقة في الكتابة. في الفصل القادم أعود لشجر وليكن ما يكون. الآن أنا في شارع الشيخ ريحان على بعد خطوات من المدرسة التي قضيت فيها تسع سنوات من عمري. تركت هذه المدرسة إلى مدرسة أخرى في يونيه١٩٦٠ في ١٩٦٠/٣/٢٢ افتتح المبنى الحالي لجامعة الدول العربية، على بعد خطوات من المدرسة، في ميدان التحرير. في الذاكرة لا شيء عن ذلك. سيارات المدرسة تحملنا من بيوتنا

إلى المدرسة. تنزلنا داخل الفناء وتأخذنا من داخل الفناء إلى بيوتنا. لا أعرف ميدان التحرير. كيف، ألم أكن أمر عليه يوميا في طريقي إلى المدرسة؟! كنت اسكن في المنيل، هل كانت السيارة تأتي من طريق خلفي أو من شارع القصر العيني لتدخل يمينا إلى شارع الشيخ ريحان قبل أمتار معدودة من الميدان؟

على مدى تسع سنين سوف أمر بسيارة المدرسة بالقرب من الميدان أو أقطعه أو أدور حوله وأقضي على بعد خطوات معدودة منه النهار بطوله من الثامنة صباحا حتى الثانية والنصف ظهرا يوميا باستثناء أيام العطلات ولن أعرف شيئا في الميدان أو عنه. بعد شهور من تخرجي من الجامعة سوف أقرا رواية الباب المفتوح. مساء٢١ فبراير١٩٤٦ زمن المشهد الأول، كتبت لطيفة الزيات: "كانت دور السينما مُضربة وكذلك المحال العامة والأتوبيس والترام. وسيارات البوليس تمر في الشوارع محملة بجنود مسلحين بالبنادق، والمارة قلائل. . يتحدثون". تتعدد الأصوات، تعلق على ما جرى صباحا في وسط المدينة، تعلمنا بالتفاصيل: مظاهرة ضد الإنجليز من ٤٠٠٠٠ شخص

سقط منهم ٢٣ قتيلا و ١٢٢جريحا. ميدان الإسماعيلية- لاحقا ميدان التحرير- مسرح تلك الأحداث. تكتسب الأماكن فجأة معنى جديدا حين تتعرف على حكاياتها، ربما ليست الحكاية الكاملة ولكن ومضة من الحكاية، جانب منها يضيء المكان فجأة فتراه ولم تكن تراه وتدركه، وحين تدركه وتعرفه يُملِّكك بحق الحيّز الذي يشغله في عقلك ومخيلتك، باختصار، بحق إسهامه في تكوينك واستقبالك لهذا الوجود. تماما كبيت الهلباوي وكوبري عباس. ولكن هذا كلام مؤجل، أنا الآن في ميدان التحرير. سوف أقرأ عن أحداث ١٩٤٦ وفى عام ١٩٧٢ سوف انزل الميدان.

صباح ٢٤ يناير ١٩٧٢ سوف اذهب إلى جامعة القاهرة فأجد الجامعة مطوقة بقوات الأمن ولن أتمكن من الدخول إلى الطلاب المعتصمين في قاعة الاحتفالات الكبرى. وسوف أعلم أن الطلاب تم القبض عليهم فجرا واقتيدوا إلى السجن.

في المساء سوف أنزل أنا ومُريد إلى ميدان التحرير: الطلاب محتشدون حول النصب الحجري في وسط الميدان، مجموعات أخرى تُجري مناقشات مع المارة حول الأوضاع الاقتصادية والسياسية في البلد، تشرح أسباب الاعتصام.

نتوجه إلى مقهى"إزافيتش". في المقهى نجد عددا من زملائنا الكتاب ونسمع حديثا عن تشكيل لجنة وطنية للكتاب و الفنانين، نطّلع على بيان باسم اللجنة يتضامن مع الطلاب ومطالبهم ويشجب الاعتقالات التي جرت في الصباح. ننسخ البيان وينسخه سوانا من الزملاء. نتوزع مجموعات صغيرة تحمل كل منها نسخة من البيان لجمع توقيعات الكتاب والفنانين عليه. ننجز مهمتنا ونعود إلى الميدان. قوات الأمن تراقب الطلاب عن بعد وهم جالسون وواقفون حول النصب التذكاري يهتفون وينشدون. ننتقل إلى نقابة الصحفيين، يجتمع فيها عدد من الكتاب والفنانين والصحفيين. نحصي التوقيعات: مائة وخمس توقيعات هي حصيلة حركتنا بين التاسعة والثانية عشرة ليلا. ما الذي سنفعله بالبيان؟ يستقر الرأي على إرساله إلى كل من رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب. يقع الاختيار على ثلاثة كنت من بينهم. نخرج من النقابة مشيا إلى مكتب البرقيات في شارع عدلي. يسأل الموظف المسئول عن اسم المرسل نقول: هذه القائمة، نبرز الأسماء المائة وخمسة. يقول لا يجوز. نقول: إذن أسماء ثلاثتنا. يرفض. أبرز بطاقتي، يسجل

الموظف البيانات المثبتة عليها ثم يستلم نص البرقيات والأسماء المرفقة. نعود إلى النقابة. أغادر معمُريد. في طريقنا إلى المنزل نشاهد الطلاب وقوات الأمن. قبل الفجر تهاجم القوات الطلاب تشتبك معهم وتعتقل العديد منهم وتتعقب من أفلت في الشوارع المحيطة. في الصباح يعزز طلاب جدد الفالتين من الطلاب ويتظاهرون وتجري مواجهات جديدة مع قوات الشرطة.

للحكاية بقية تخصّ نصيبي من المشهد وتخصّ الحدث في ذاته لكني أبتعد الآن عن ميدان التحرير الذي عشت تسع سنوات على بعد خطوات منه دون أن أعرف حكايته في ٤٦، أما حكايته في ٧٢ فشاهدتها وشاركت فيها. مظاهرات العمال في ٧٥مرت من الميدان، وكذلك المظاهرات العارمة في ٧٧ وجنازة أم كلثوم فيما بينهما عام ١٩٧٥على بعد أمتار قليلة من قلب الميدان مسجد عمر مكرم. من المسجد سوف أمشي مع المشيعين المرة بعد المرة لأودّع الأصدقاء والزملاء والأرجح أن أصدقائي وزملائي سوف يودعونني من نفس هذا المكان. سيودّع المشيعون أم كلثوم من مسجد عمر مكرم فأسمع عن ذلك وأراه على شاشة التلفزيون وأنا

في الولايات المتحدة أعدّ للدكتوراه. ومن هذا المسجد سوف أشيع صديقة العمر لطيفة الزيات. أشارك في الغُسل في ذلك القبو الكئيب في مستشفى مصر الدولي. أخرج مع الجثمان ثم نفترق: هي محمولة في نعشها في سيارة الراحلين وأنا في سيارة لم أعد أذكر لونها. هل أتداعى بلا منطق؟ أين شجر من كل ذلك؟ على أن أعود لشجر، على أن أعرف ما الذي أفعله بها. لقد تخرجت من المدرسة الآن ودخلت قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة. ولو لم تكن شجر شخصية روائية لالتقيت بها أثناء فترة دراستي بجامعة القاهرة فقسم التاريخ الذي درست فيه يقع في الطابق الثاني من نفس المبنى الذي يشغله قسم اللغة الإنجليزية الذي درست فيه. درسنا في الفترة من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٧ سوف تدخل شجر من بوابة جامعة القاهرة وتنحرف جهة اليمين والنخل العالي- لم يكن شائخا كما هو الآن- تمر بين المبنى الأساسي لكلية الآداب والمبنى الأصغر الذي يشغله قسم اللغة الإنجليزية في الطابق الأول، تصعد إلى الطابق الثاني، تحضر محاضرات التاريخ. تتردد يوميا تقريبا على المكتبة العامة- المبنى المواجه للقسم- تمضي الساعات في المكتبة،

تجلس في قاعة الاطلاع البحرية أحيانا وفى قاعة الاطلاع القبلية أحيانا، تقلّب مطولا في الفهارس. يألفها العاملون، لا يسأل أحد منهم عن بطاقتها، يعرفونها تمام المعرفة قبل أن تُعيّن في القسم بسنوات، وقبل أن تتحول من الآنسة شجر إلى الدكتورة شجر.

الفصل الخامس

يقول شكلوفلسكي في مقال نقدي لعله أكثر مقالاته شيوعا، إن التعود يلتهم الأشياء، يتكرر ما نراه فنستجيب له بشكل تلقائي، كأننا لا نراه؛ نقوم بنفس الأعمال بآليّة، كأننا لا نقوم بها. لا تستوقفنا التفاصيل المعتادة كما استوقفتنا في المرة الأولى، نمضي وتمضي، فتمضي بنا الحياة كأنها لا شئ، تذهب سدى.

التعود، وهذا قانون من قوانين الإدراك يقول شكلوفسكي، يلتهم حياة الإنسان، "أعماله، أثاث بيته، زوجه، وخوفه من الحرب", فلماذا لم تتعود شجر على ذلك الشارع الذي ظلت تقطعه كل يوم طوال سنين؟

طالبة مستجدة في طريقها إلى الجامعة. التمثال، وأشجار الأكاسيا على الجانبين، ثم النصب التذكاري، ومن ورائه مباشرة السور الحديدي وصفّ النخيل وبرج الساعة، والقبة في الخلفية. المشهد في البداية. هكذا رأته شجر: مكتف بذاته. تمر عليه لتذهب إلى كليتها، وهى صبية في السابعة عشرة تمشي كأنها تطير، وهي أستاذة في الخمسين

بيمناها عصا تستعين بها على السير، وفيما بينهما من مراحل العمر. تتطلع، دائما تتطلع. يزدحم الطريق أو يكاد يخلو من المارة، يكون صيفا أو شتاء، صبحا أو مساء، أشجار الأكاسيا تعلن نُوّارها البنفسجي والناري أو تتعرى منه، تمشي وحدها أو برفقة آخرين، الطريق هو الطريق: المرأة الحجرية على مداخله، والقبة في الختام. وعندما تغادر وتعبر إلى كوبري الجامعة تعي أن المشهد خلفها، تراه وراء ظهرها.

امتلأ المشهد، ربما كما تمتلئ المرأة بحملها أو بسنوات عمرها أو بمعرفة تصقل مرايا العين، وربما ليس كذلك. في الأسابيع الأولى، بدا المكان بطاقة أخّاذة، لوحة، أدهشها وأسرها أن تدخلها وتصبح من عناصرها. تلك طبعا براءة الصغار، أحلامهم البلهاء التي تحلّق بخفّة وتترك للأقدام أن تتلمس طريقها وهي تقطع الطرقات على مهل فتتعرف ثم تعرف. خذ مثلا ذلك العمود الحجري القائم أمام بوابة الجامعة، (تقتضي الدقة استخدام الجمع فهي أربع بوابات حديدية: اثنتان كبيرتان عاليتان واسعتان تمر السيارات دخولا من إحداها وخروجا من الثانية، أما البشر، طلابا

وأساتذة وعاملين فيستخدمون فضلا عن هاتين البوابتين الاثنتين الأصغر الواقعتين على الجانبين. في أيام المظاهرات تغلق جميعا سوى واحدة، البوابة الصغيرة الواقعة على يمين الداخل، يصطف الطلاب أمامها إذ تكون حركة الدخول بطيئة لان رجال الأمن يفحصون بطاقات الداخلين، بطاقة بطاقة.) نعود إلى العمود الحجري، للعابر ولشجر أيضا، في أول الأمر، يبدو هذا العمود مجرد عنصر من عناصر المشهد: مسلة جرانيتية صغيرة تنتهي بزهرة أو شعلة: منحوتة تستحضر التاريخ المصري القديم وتكمل أو تحاور جرانيت مختار هناك على أول الطريق. تألفه وقد تحبه قبل أن تعرف، ثم تعرف وتظن أن معرفتك اكتملت لتكتشف بعد عشر سنين، عشرين سنة أو ثلاثين أن الجديد الذي خبرته كبّرك وكبّر المشهد. (لا ليس فقط محمد عزت البيومي، ومحمد عبد المجيد مرسى، وعبد الحكم الجرّاحي وخالد عبد العزيز الوقاد* وذلك الولد الذي لا نعرف اسمه- لا بد أن أحدا يعرف اسمه- الولد الذي أُطلق عليه النار بالقرب من سور كلية الهندسة وفى اليوم التالي نشرت جريدة الأهرام صورة لسور الكلية ملطخا بدمائه) لماذا نستبق الأحداث؟ لم

تر شجر بعد قوات الأمن وهي تطوّق الجامعة. والهراوات، والقنابل المسيلة للدموع والدخان وتدافع الأقدام. لم تر بعد ذلك الريفي الأسمر الفقير صغير السن يقف خارج سور الجامعة في ردائه العسكري ويُدخل ماسورة بندقيته من بين قضيبين من قضبان السور، يصوّب بأناة على المتظاهرين كأنه تعلم حرفته في رحلات صيد الوعول برفقة نبيل من نبلاء أوروبا القرون الوسطى. لم تصبها بعد هراوة تترك على أعلى ذراعها الأيمن علامتها الزرقاء. ليس بعد؛ تلك شجر لاحقا. شجر الآن في السابعة عشرة، طالبة مستجدة بقسم التاريخ. هل صحيح أنها التحقت بالقسم تأثرا بذلك الأستاذ الذي درّسها شهورا ثلاثة؟ يصعب تحديد ذلك لأن أمورا كثيرة تحدث في أيام قليلة فما بالك بسنوات خمس في حياة صبية نامية يربطها بالفئران حب الورق، تقرضه على طريقتها. في مكتبة المدرسة وقعت على كتاب عن الأساطير المصرية القديمة، ومنه انتقلت إلى صف الكتب المجاورة. ثم التحقت بقسم التاريخ.

أغسطس ٦٧ على مائدة الغداء أعلن أبوها الخبر وهو يضحك: " ليسانس بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى". لم تضحك، لم تقل شيئا انسحبت إلى غرفتها.

العام الدراسي ٦٧–٦٨ واصلت شجر تركيزها على دروسها في السنة التمهيدية للماجستير. تذهب إلى الكلية. تعود من الكلية. تحضر دروسها. تدخل المكتبة. تقرأ. تسوِّد بطاقات البحث بالاقتباسات والملحوظات. تقدم البحث المطلوب. تنجز بكفاءة الآلة. روحها؟ انسلتت، انزوت بعيدا. لا تغضب. لا تبكي. لا تتوقف. في الصحف، في الإذاعات، على ألسنة الأهل والجيران يتردد كلام كثير عن سيناء و تيه الجنود في الصحراء، تسمعه. تمضي كأنه لا شئ.

قال أستاذها: لماذا غيرت رأيك؟ أردت دائما التخصص في التاريخ الفرعوني، ماذا جدّ؟

لم تقل سوى: "سأدرس التاريخ الحديث، أعتقد أن هذا هو ما أريده". لسنوات تالية سوف تشير شجر إلى تلك الانعطافة بعبارة U turn إذا كان التحول كاملا وواضحا كما يحدث عندما تنحرف بسيارتك يسارا فيسارا لتمشي في الطريق المعاكس. أتت بثلاثة صناديق من الكرتون. أخذت

تنقل الكتب من مكتبتها إلى الصناديق: كتب تاريخ مصر القديم، أساطيرها، معمارها، كتب سليم حسن ذات الأغلفة الكابية التي لا تحمل سوى اسم المؤلف، الكتب الفرنسية والإنجليزية ذات الأغلفة المصقولة المزينة بصور متقنة لتفاصيل من نقوش وادي الملوك ووادي الملكات، الكتب التي اشترتها منذ كانت في الخامسة عشرة والكتب التي صورتها من مكتبة الجامعة ودلها جدها عبد الغفار على صديق قديم له في الأزهر صنع لها أغلفة قوية رصينة زيتونية اللون. وضعتها جميعا في الصناديق. تطلعت حولها. لم تنته المهمة بعد. الصور. كانت مجرد نسخ ورقية حملتها إلى محل بوسط المدينة ملفوفة ومربوطة بشريط دقيق. استلمتها بعد أسبوعين: أربع لوحات كبيرة لكل منها إطار وواجهة من زجاج. وجدت صعوبة في حملها إلى الشارع الرئيسي حيث مر عليها ثلاث سيارات أجرة لم يقبل سائقوها نقلها بحمولتها. أخيرا أتى سائق طيب وافق على توصيلها وساعدها على حمل اللوحات حتى باب الشقة.

فوق سريرها في مواجهة الداخل من الباب علقت صورة ماعت سيدة التوازن، ربة الحق والعدل. ماعت تنظر

إلى يمينها، حين تجلس شجر إلى مكتبها يمكنها بلفتة صغيرة إلى يسارها أن ترى وجه ماعت ينظر في اتجاه لا يظهر سوى الجانب الأيسر من وجهها. ريشة النعام عالية مستقيمة، مثبته بشريط احمر دقيق مربوط حول أعلى الرأس. في الخلفية نقش الحروف.

على الحائط الأيسر، وراءها مباشرة حين تجلس إلى مكتبها، لوحتان: في أولهما نقش إيزيس على خلفية من أزرق سماوي. شعرها حليبي أزرق. تاجها قرص الشمس وقرنا حَتْحور. وجهها وكتفاها وذراعاها وجزء من تاجها مطلية بلون رملي مُمشَّح بلون خشب الورد. في يمناها صولجان الملك. بجوار صورة إيزيس صورة للبقرة حَتْحور و الصبي أمنحتب الثاني. جسد الفرعون الصغير وجسد حَتْحور لهما نفس اللون الرملي. شعره والبقع على جسد البقرة: البقع النجوم: أرواح الموتى، لونها أخضر. الفرعون جاث على ركبتيه تحت قوس قوائم البقرة، يرفع رأسه لأعلى، يرضع من ضرعها على خلفية من أزرق صريح. فوق المكتب صورة نوت المرأة السماوية. تلمس الأرض بأطراف أصابع قدميها من ناحية وبأطراف أصابع يديها من

الناحية الأخرى. تشكل بساقيها وذراعيها ونهر بدنها المنقوش بالنجوم قوسا محيطا بجسد شقيقها وزوجها. جب يرقد في حضانتها وعلى ظهره ينمو زرعه النابت.

أنزلتها على الحائط ولفتها بملاءة. ربطتها. أتت ببردية آنى، النسخة التي تضعها دائما على مكتبها، ألقت بها في الصندوق. طلبت من أمها مساعدتها في نقل الصناديق ثم أتت بسلم وحملتها واحدا واحدا إلى الصندرة. سألتها أمها عن السبب. غمغمت بكلام غير مفهوم.

عادت إلى حجرتها. تطلعت: لا شيء الآن سوى أرفف عليها بعض القواميس ومكتبة صغيرة خاوية والمكتب والسرير والتسريحة. بدت الغرفة عارية، مقفرة وباردة. أطفأت النور. استلقت على سريرها. راحت في النوم.

بطاقة ملونة بحجم الكف مستقرة تحت زجاج المكتب: الميزان العالي والكفتان. تحوت واقف يشرف على الميزان، في يده اليسرى أوراقه وفى اليمنى القلم. نسيت شجر رفع الصورة. في اليوم التالي انتبهت لوجودها. تأملتها. قررت أن تبقيها.

أستاذ مناهج البحث في السنة التمهيدية للماجستير: عالي الصوت لا يكف عن الذهاب والمجيء في قاعة الدرس كأنه يضطرم بما يعتمل في داخله من أفكار فذة. لم يكن يوجههم إلى المناهج من حيث هي أساليب للتناول ترتبط برؤى فلسفية ومعرفية وأدوات مختارة هي نتاج منطقي لما تؤكده هذه الرؤى وما تنشغل بالبحث عنه. اكتفي باجرائيات البحث: كيف تُكتب الهوامش، كيف يُعد ثبت المراجع، كيف تُقسّم الرسالة إلى أبواب وفصول يسبقها تمهيد وتنهيها خلاصة يتلوها ثبت للمصادر والمراجع. قال الأستاذ "سأطلب من كل منكم بحثا عليه أن يراعي فيه الشروط التي علمتها لكم. أمامكم أسبوع للاختيار وشهر لإنجاز البحث". في الأسبوع التالي أشرع الأستاذ قلمه وراح يسجل اسم الطالب أو الطالبة وعناوين الأبحاث.

- شجر عبد الغفار
- مذبحة دير ياسين.
- ليس هذا موضوع لبحث في التاريخ يا آنسة شجر. هذا موضوع لمقال صحفي أو تحليل سياسي. أن أردت البحث في الموضوع

الفلسطيني أقترح عليك دراسة دور الهيئة العربية العليا أو جيش الإنقاذ أو الجهاد المقدس، ابحثي في دور قيادة واحدة منها ولو راقك الموضوع تواصلين دراسته في رسالة الماجستير ببحث دور هذه الهيئات الثلاث وعناصر الاختلاف والتشابه. ما رأيك؟

- هل يمكن أن اكتب عن حفر القنال؟

- أي تفصيلة؟

- عقد الامتياز الأول وعقد الامتياز الثاني: دراسة تحليلية.

دوّن الأستاذ العنوان في دفتره. وانهمكت شجر في إعداد البحث المطلوب منها.

النسيان أمر مراوغ، يبدو للمرء أنه نسي، يظن أن رغبة ما، فكرة ما، واقعة ما سقطت منه، ضاعت؛ والدليل غيابها الكامل عن وعيه، يتطلع إلى ذلك النهر فيرى عليه ألف شئ، مراكب كبيرة أو صغيرة، بشرا عديدين، قشة تطفو على السطح أو مخلفات لا قيمة لها، ثم ينتبه ذات يوم أن ذلك الشيء يطفو فجأة كأنه كان محفوظا هناك في القاع،

مغمورا بالماء، مستتبا كشجيرة مرجان أو لؤلؤة مستقرة في محارة. النسيان أمر مراوغ تقول شجر لنفسها وهي ترتّب أوراقها وتتوقف أمام تلك الدراسة التي أنجزتها بعد عشرين عاما من ذلك اليوم في مارس ٦٨ حين قال لها أستاذ مناهج البحث إن موضوعها لا يصلح.

في آخر نوفمبر عام ١٩٧٧ قررت أن تبدأ في بحث موضوع دير ياسين فجمعت ما توفر لها من مادة. كانت تعرف أن هناك رواية صهيونية، تنوي عرضها ودحضها، ورواية أخرى عربية تريد تدقيقها وتفصيلها، ولكنها وهي تجمع المتاح من الوثائق والكتب والمقالات كانت تكتشف خيوطا جديدة، تتبعها بحرص فتقودها إلى مساحة من المعرفة تقف أمامها مندهشة متسائلة: لماذا ظلت طوال تلك السنين غائبة، من غيبّها، وكيف، ولماذا؟ هل هي المحاولة الساذجة للرد على ادعاء الصهاينة بأن الهجوم على القرية كان مبررا لأنها كانت مركزا للجنود العراقيين؟ لم تكن مركزا للجنود العراقيين؛ ولكن هل يتطلب إثبات ذلك تصوير أهالي القرية كحملان لا حول لها ولا قوة إزاء سكاكين الجزار؟

تقول الرواية العربية الشائعة: كان هناك قرويون عزّل دخل عليهم رجال الإرغون وليحي وذبحوا ٢٥٤ من الشيوخ والنساء والأطفال، وأسروا الباقين وطافوا بموكب الأسرى في الأحياء اليهودية من القدس فانتشر الفزع بين العرب فهاجروا خوفا من أن يصيبهم ما أصاب أهل دير ياسين. هل هذه رواية دقيقة؟ هل كان أهل دير ياسين غافلين عن الخطر المحدق بهم؟ لم يكن ذلك منطقيا. بإمكانها وهى جالسة إلى مكتبها، الآن هنا في القاهرة، من مجرد نظرة على الخرائط ومجريات الأسابيع السابقة، أن ترى حدة الخطر: دير ياسين تواجه الضواحي الغربية للقدس، تُشرف على طريق القدس- يافا (أي طريق القدس- تل أبيب). وهى محاطة بسبع مستوطنات يهودية: شرقها "جيفعات شاؤول" و "منونتيفيوري" و "بيت هكيرم" و "شكونات هابوعاليم" و "يفه نوفه" و"بيت فيجان "تشكل سدا يفصلها عن القدس؛ وغربها مستوطنة "موتسا" تفصلها عن القسطل. القرى العربية المجاورة: جنوبا: عين كارم والمالحة. شمالا: لفتا. قبل أربعة أشهر شن الصهاينة غارات مكثفة على لفتا فسقطت، وهاجموا حيين عربيين في القدس الغربية واستولوا عليهما. أُغلقت طريق

السيارات الوحيدة التي تربط بين دير ياسين والقدس فتعذر وصول أهل القرية إلى العاصمة إلا عبر قوس ملتف يأخذهم جنوبا إلى عين كارم ثم شرقا إلى المالحة ثم شمالا مرة أخرى إلى القدس، ١٥كم من طريق جبلية وعرة تستغرق منهم خمس ساعات مشيا على الأقدام بدلا من خمس دقائق بالأتوبيس في الطريق المباشرة. (تعذّر على حياة البلبيسي المدرّسة الوحيدة في القرية أن تأتي من القدس وتعود إليها يوميا. أقامت في دير ياسين). بسقوط لفتا لم يعد لدير ياسين سوى منفذها الجنوبي عبر عين كارم والمالحة. ما الذي فعله أهل دير ياسين لمواجهة هذا الحصار؟ هل يعقل أنهم لم يتحسّبوا لكوارث قادمة؟

للقرية تاريخ في مقاومة حكومة الانتداب البريطاني والمستوطنين اليهود. في الفترة بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ كانت دير ياسين والجبال المحاذية مركزا من مراكز الثوار. قام بعض رجالها بعملية ضد قطار يحمل المؤن والسلاح للإنجليز. قطعوا الخط و انقلب القطار. ورغم القوانين الصارمة التي فرضتها حكومة الانتداب(الحبس ٦ سنوات لحيازة مسدس أو بندقية، ١٢ سنة لحيازة قنبلة، ٥ سنوات

مع الأشغال الشاقة لحيازة ١٢ رصاصة، و١٥ يوما حبسا لحيازة عصا!) كان في القرية سلاح. كانت تتعرض للتفتيش الدوري: يأتي الجنود الإنجليز، يحاصرون القرية، يبحثون عن الثوار، يدخلون البيوت، يكسرون جرار الزيت، يسكبون الجاز على الطحين والسكر والأرز. ثم أقام الإنجليز نقطة تفتيش في القرية تتلى فيها يوميا في الرابعة مساء أسماء كل رجال القرية للتأكد من وجودهم.

تسع سنوات فقط، هل تكفي لكي ينسى الأهالي القهر والمقاومة؟

تتكاثر بطاقات البحث، تتراكم بين يديها مادة مشعثة، تستخلص منها بعض الأمور ويظل بعضها الآخر غائبا أو غائبا أو مراوغا كخيط تتبعه فينقطع فجأة ويتركها أمام السؤال: ماذا بعد؟

تمكنت من تحديد أوَّلى لمحاور الهجوم على القرية والقواعد التي انطلق منها: أربع مجموعات مسلحة، اثنتان منها انطلقتا من جيفات شاؤول أو واحدة من جيفعات شاؤول والثانية من ضواحي القدس الغربية؛ الأولى هاجمت دير ياسين من الشمال والثانية هاجمتها من الشرق. مجموعتان

أخريان انطلقتا من بيت هاكيريم، أو ربما من بيت هاكيريم ويافا نوفه، الأولى لتقتحم القرية من طرفها الجنوبي الشرقي والثانية أرادت الالتفاف حولها لتهاجمها من جهتها الغربية. المجموعات الأربع من رجال مناجم بيغين، الإرغون، ورجال إسحاق شامير، ليحي. حدث الهجوم فجرا أو ربما قبل الفجر بساعة أو ساعتين. ما الذي حدث داخل القرية بعد ذلك؟ مذبحة!كيف؟ ما هي التفاصيل؟ وقبل المذبحة، ماذا جرى؟ كيف تدخل القرية؟

لم تجد في الوثائق العربية ما يعينها، فهل تجدها في الوثائق البريطانية؟ في كتابات الإسرائيليين؟ في شهادات الأهالي؟ كيف تصل إليهم، أين تجدهم؟ بقيت دير ياسين مغلقة. تسع سنوات.

الفصل السادس

حين بدأت في كتابة هذا النص بدا لي منطقيا أن ألتزم بالتسلسل الزمني لحياة شجر المتخيّلة وتفاصيل حياتي كما عشتها فتسير الحكايتان متوازيتان بلا تداخل ولا خلط. ولكني أنتبه الآن إلى أنني أكتب بمنطق التداعي وأترك للقلم التحرك بين الماضي والحاضر في حركة مكّوكية. أنتبه أيضًا إلى أنني كلما اقتربت من شجر وعرفتها أكثر تشابكت الخيوط. بالأمس مثلا وجدت نفسي أفكر أن شجر بمعارفها التاريخية يمكن أن تُسهّل على كتابة الجزء الخاص ببيت الهلباوي، وبيت كوبري عباس، وبيت شارع مصطفى رضا. بدونها (أقصد شجر) يتعين على أن أعود للدوريات والكتب أو اكتفي بشذرات المعرفة المتوفرة لدي عن هذه الأماكن.

بيت الهلباوي، نسبة لصاحبه إبراهيم الهلباوي، هو البيت الذي ولدتُ فيه. وضعتني أمي في السادسة من صباح الأحد٢٦ مايو ١٩٤٦(نظرت الآن في جدول لمقابلة التاريخ الهجري بالميلادي فوجدته يوافق ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٦٥) استأجر جدي لأمي هذا البيت من أرملة الهلباوي عام ١٩٤١ بعد أن قرر أن ينتقل هو وأخوه بسبب نزول جنود الحلفاء

في البيت الملاصق لبيتهما في حلوان. ولما كان لجدي ست بنات ولأخيه بنتان فقد بدا لهما وجود جنود إنجليز وأستراليين وأفارقة وهنود في المنزل المجاور لا يثير الارتياح فكانت هذه الهجرة الأسرية الصغيرة من حلوان، الضاحية الهادئة آنذاك، إلى جزيرة منيل الروضة. وربما وقع اختيار جدي على هذا البيت لقربه من مقر عمله، ومن بيت أصهاره الجدد الذين سيستقبلون بعد شهور قليلة بثينة، أكبر بناته، للإقامة معهم.

في صباحات الخريف والشتاء والربيع، ومطالع الصيف أيضا، سوف يغادر جدي بيت الهلباوي ويمشي خطوات معدودة حتى شاطئ النيل، ومن هناك وفى مقابل بضعة ملاليم، يركب معدّية تنقله إلى الشاطئ الآخر. دقائق أخرى من السير ويصل بوابة الجامعة، يمر منها وينعطف يمينا إلى كلية الآداب. في عام ١٩٤١ كان الدكتور عبد الوهاب عزّام يشغل كرسي أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب، جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) وفي عام ١٩٤٩ حين ترك الهلباوي ليعود إلى بيته في حلوان كان عميد الكلية.

سوف يطلب المحامي الشاب مصطفى عاشور يد مَيّ من أبيها في بيت حلوان وحين تُزّف له في نوفمبر عام ١٩٤٢ سيأخذها من بيت الهلباوي وسوف يدخل الدكتور رشاد صقر المتخرج حديثا من كلية الطب إلى بيت الهلباوي لطلب يد تحية الابنة الكبرى لعبد الفتاح عزّام ويخطبها ولا يتزوجها إلا بعد عودته سالما من حرب فلسطين. سيحكي رشاد صقر لعروسه، في بيت الهلباوي، عن ضابط شاب كان محاصرا معه في الفالوجة اسمه جمال عبد الناصر.

هل استأجر جدي البيت بواسطة سمسار؟ هل دلّه صديق عليه؟ هل كان يعرف الهلباوي قبل وفاته؟ هل كان يحترمه؟ يحتقره؟ يشفق عليه؟ أم يحفظ المسافة وعيا بالاختلاف؟ تبدو هذه الأسئلة استطرادا لا داعي له ولكني أعتقد أنها لا تخلو من الأهمية فالهلباوي الذي جرى اسمه على ألسنتنا في إشارتنا إلى البيت، وتكرر بعد ذلك للدلالة على منطقة بعينها في الحي الذي نسكنه، الهلباوي له حكاية. ولو كان الوضع معكوسا وكانت شجر هي التي تحكي لروت لنا الرواية الكاملة لإبراهيم الهلباوي الشاب ذي الأصول الريفية الذي استطاع أن يكون نجما في عالم المحاماة والذي

قبل أن يكون عضو الادعاء في محاكمة فلاحي دنشواي عام ١٩٠٦ وقدم للمحكمة، نيابة عن سلطة الاحتلال، مبررات الحكم بالإعدام على الفلاحين. منحه الشيخ عبد العزيز جاويش في جريدة "اللواء" لقب "جلاد دنشواي". وظل اللقب لاصقا به حتى وهو يحاول جاهدا أن يكفّر عن إثمه بإدانة محكمة دنشواي والتطوع للدفاع في القضايا الوطنية. مات الهلباوي عام ١٩٤٠ عن ثلاثة وثمانين عاما؛ بعد عام من وفاته استأجر جدي البيت من أرملته، زوجته الثالثة على ما أظن. بعدها بخمس سنوات وضعتني أمي.

بيت الهلباوي إذن هو البيت الأول، لا أذكره فقد تركه جدي وأنا في الثالثة من عمري. أما بيت كوبري عباس فتقول أمي إنها انتقلت إليه في شهر يوليه ١٩٤٧ من شقة شبرا التي دخلتها عروسا، كنت أكملت عامي الأول. شقة في الطابق الرابع تطل على النيل وعلى كوبري عباس، أراه من الشرفة وأيضا من شباك غرفة نومي التي أشترك فيها مع أخي الأكبر، طارق. يفتح الكوبري مرتين ليسمح للمراكب الكبيرة بالمرور. في الثالثة بعد الظهر أرى صف السيارات

تنتظر أن يعاد إغلاق الكوبري. في الثالثة فجرا يُفتح مرة أخرى وأكون مستغرقة في النوم فلا أرى من ذلك شيئا.

من الشرفة، من شباك حجرة نومي أرى كوبري عباس. في الصباح المبكر وأنا أنتظر سيارة المدرسة، في مساءات الصيف ونحن نلعب على الشاطئ، نشتري الترمس والذرة المشوية أرى الكوبري، وأرى المغسل الكبير الذي تستخدمه بائعات الخضرة: نساء في أثواب سوداء يفتحن الصنابير العمومية على الخس والفجل والكُرّات والجرجير والبصل الأخضر والبقدونس قبل أن يحملنه لبيعه في الشوارع المجاورة. لا أرى عم محروس الصيّاد- بائع السمك، أعرف أنه في مكان ما على الشاطئ، تحت الكوبري، المغسل، المراكب الصغيرة والكبيرة، الكوبري المغلق أو المفتوح مشاهد لكل يوم، نعتادها، ننتبه فجأة، نعود نعتادها. لكن المشهد-المناسب يأتي مرة واحدة في العام. نحصي الأيام في انتظاره، ننتظر. يأتي، يوما واحدا، ويذهب. يتعين علينا انتظاره من جديد. هكذا كان وفاء النيل، يعلو الماء يتغير لونه، نلحظ ذلك، نرقبه حتى اليوم المعلوم: نقف في شرفة بيتنا لمشاهدة المراكب المزينة بالأعلام والمصابيح الملونة

تتقدمها" العَقَبَة"، السفينة الأكبر والأبهى. نتطلع إلى يسارنا حتى تلتقتها عيوننا: نقطة ضوء في الظلام تكبر تدريجيا. تتحدد وهي تقترب. لا حاجة لليّ أعناقنا وجذوعنا باتجاه اليسار، الموكب أمامنا مباشرة الآن، ينساب ببطء على صفحة النهر يضيئها وهو يسري ويتقدم باتجاه مقياس النيل. تشرئِّب أعناقنا إلى الجهة اليمين لتتبع المراكب وقد تجاوزت الكوبري، تصغر وتصغر أكثر لتعود بقعة صغيرة من الضوء ثم نقطة تختفي في الظلام.

هي أيضًا كانت نقطة وتختفي، بقعة معدنية أتابعها من نافذة حجرتي. أمي سافرت للحج. أقضي الوقت أيتطلع من النافذة، يشغلني انتظارها. أسمع الأزيز، أرفع رأسي، لا شيء بعد،. يعلو الصوت، يعلو أكثر ثم ذلك الطائر المعدني بعيدا في السماء. أمي سافرت بالطائرة. تمر الطائرة. تبتعد. تختفي. لم تأت! طائرات كثيرة في سماء القاهرة تلك الأيام، في البيت تتردد كلمة فلسطين. لا أعرف معناها. لم أتجاوز بعد العامين ونصف.

واقعة كوبري عباس، محاصرة طلاب جامعة القاهرة بقوات الشرطة من خلفهم وفتح الكوبري من أمامهم، مساحة

غائبة من وعى طفولتي. وقعت الواقعة في ٩ فبراير١٩٤٦، قبل ولادتي بثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما. في التاسعة سيبدو لي، حتى بعد انتقال أسرتي إلى بيت آخر، أنني أعرف الكوبري معرفة كاملة وتامة وأنني رأيت منه أكثر مما رأى الآخرون. سيبدو لي أنني أعرف مباني كلية الطب ومستشفياتها المعروفة بالقصر العيني، تشغل الطرف الشمالي من الجزيرة، أمر بها يوميا في طريقي إلى المدرسة من بيت كوبري عباس ولاحقا من بيتنا الجديد في شارع مصطفى رضا. لم أكن أعرف أن طلاب الكلية سنة ١٩٣٥ أخفوا جثمان زميلهم عبد الحكم الجرّاحي في المستشفى حتى يتمكنوا من تشييعه في جنازة شعبية. ولما استشهد الطالب السوداني محمد على أحمد، بعد ذلك بإحدى عشرة سنة، أخفى طلاب الكلية جثمانه ولم تفلح الشرطة في معرفة مكانه وتطور الأمر إلى معركة بين الطلاب والشرطة وهى تحاول منعهم من إقامة جنازة ضخمة لزميلهم الشهيد. في طفولتي كان مبنى القصر العيني حضورا أليفا. لاحقا سوف اكتشف أن الطفل يعرف الأشياء ولا يعرفها مادام يجهل الحكاية.

يشغلني موضوع الكتابة والتاريخ وتشغلني شجر فأتوقف عن تتبع انتقال الأسرة إلى بيت جديد. أرسطو قال شيئا في هذا الشأن. ميّز الأدب عن التاريخ، أعرف ذلك جيدا. الأفضل أن أعود إلى كتابه. أترك المكتب وأبحث في المكتبة. أجد نسخة من الترجمة الإنجليزية لبوتشر المنشورة عام ١٩٥٥، ونسخة من تحقيق شكري عيّاد لترجمة أبي بشر متّي عن السريانية مشفوعة بترجمة حديثة. أبحث عن فقرة بعينها، أجدها فاقتبسها:

"وظاهر مما قيل أيضًا أن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع بل ما يجوز وقوعه وما هو ممكن على مقتضى الرُجحان أو الضرورة فان المؤرخ والشاعر لا يختلفان بأن ما يرويانه منظوم أو منثور (فقد تصاغ أقوال هيرودوتس في أوزان فتظل تاريخا سواء وزنت أم لم توزن) بل هما يختلفان بأن أحدهما يروي ما وقع على حين أن الآخر يروي ما يجوز وقوعه. ومن هنا كان الشعر أقرب إلى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ؛ لان الشعر أقرب إلى قول الكليات، على حين أن التاريخ أميل إلى قول الجزئيات. والكل هو ما يتفق لصنف من الناس أن يقوله أو يفعله في حال ما على مقتضى

الرُجحان أو الضرورة" ويواصل أرسطو قائلا: "الشاعر أو الصانع (بويتس) ينبغي أن يكون أولا صانع القصص قبل أن يكون صانع الأوزان، لأنه يكون شاعرا بسبب ما يحدثه من المحاكاة, وهو إنما يحاكي الأفعال. وإذا اتفق أنه صنع شعرا في أمر من الآمر التي وقعت فإن ذلك لا يؤثر في كونه شاعرا، إذ لا شيء يمنع أن بعض الأمور التي وقعت قد جاء متفقا مع قانون الرُجحان وقانون الإمكان، فعلى هذا الاعتبار يكون هو صانعها".

الأرجح أن شجر تختلف مع أرسطو في قوله أن موضوع التاريخ هو الجزئيات. ليس اختلافها، على ما أظن، من باب تمييز بضاعتها والإعلاء من شأنها، بل لأنها، في ممارستها لكتابة التاريخ، لا تعتبر رصد الوقائع والجزئيات سوى جزء من مهمة لا تكتمل إلا بمعنى كلّي هو الذي يطلق عليه أرسطو "قانون الرُجحان". أفسره بمنطق للأمور، قانون ما يربط تلك الوقائع ويستخرج من فوضاها الشرسة ونشازها الصاخب خيطا للدلالة وضوءا يجعل البشر يفهمون حكايتهم. هل أخلط بين الأدب والتاريخ أم أسقط مشروعي الخاص على شجر؟! لا أظن. سأدلّل على كلامي بكتاباتها:

ربما تكون دراستها عن دير ياسين مثالا ملائما. لم تقدم شجر الهجوم على القرية ومقاومة الأهالي ثم المذبحة التي أعقبت كمجرد واقعة قائمة بذاتها أو مرتبطة بوقائع مماثلة في عامي ١٩٤٧-١٩٤٨ بل قدمتها كواقعة- نموذج تمكّن قراءها من تأمل العام في الخاص، وربط ذلك الحدث بأحداث متسلسلة تشكل في مجملها سمة أساس من سمات تاريخهم الحديث. قد يقصر النموذج عن الواقع أو يفيض عنه وقد يتطابق معه، في دير ياسين تجلَّى في حدوده القصوى وبقي رغم ذلك مطابقا. أرجئ هذا على أي حال وأعود إلى البيوت التي عشت فيها. لماذا أزّج بها جميعا- أقصد تلك البيوت- في فصل واحد؟ لِمَ لا اتركها تدخل النص بتسلسل ظهورها في حياتي، وما الذي أريده من حشدها معا؟

في عام ١٩٥٥ أشترى أبي منزلا بحديقة في شارع مصطفى رضا بالمنيل، وبدلا من أن نطل على النيل وكوبري عباس ونرى الجيزة في الضفة الأخرى من النهر انتقلنا إلى داخل المنيل في بقعة يمكن وصفها بأنها في قلب الجزيرة. تكاد المسافة إلى" البحر الكبير" الذي يفصل الجزيرة عن الجيزة تتساوى مع المسافة إلى "البحر الصغير"

الذي يفصلها عن القاهرة. ثم هي أيضًا في الوسط بين الطرف الجنوبي للجزيرة فيما وراء شارع الروضة، الذي ينتهي بمقياس النيل وطرفها الشمالي حيث مباني كلية طب القصر العيني.

في الأيام الأولى لانتقالنا بدا هذا البيت لي ولإخوتى، طارق الأكبر، وحاتم ووائل الأصغر، حيّزا آسر من مجهول مثير. لم تكن سعة البيت مقارنة بشقة مكونة من خمس غرف هي وحدها السبب. هناك ألوان زجاج النافذتين ولعبتها المثيرة مع ضوء النهار صباحا ومع المصابيح في الليل. نافذتان من الزجاج المعشّق في كل منهما نقش راعية. الراعية الأولى في ثوب أخضر، تميل بجذعها على جرّتها، لا نرى سوى جانبها الأيسر. الراعية الثانية ترتدي ثوبا بنفسجي اللون، تميل يمينا وتحمل بين يديها حزمة قمح. تتكرر في النافذتين الشجرة، الأوراق الخضراء والحبات الحمراء. في النافذة الأولى نعجة وصغيرها، الصغير يرفع خطمه يلامس عنق أمه. في النافذة الثانية أربعة خراف، اثنان يشرئبان باتجاه حزمة القمح بيد المرأة، ونعجة مستتبة في أمومتها مستغرقة في صغير يرضع من ضرعها. في

النهار تضيء أشعة الشمس نقوش النافذتين فيفوز من بداخل البيت ببهاء اللوحة كاملا. في الليل تضيئها مصابيح البيت فيفوز بجمالها عابر الطريق.

النافذة مشرفتان على السلم الخشبي الواصل بين الطابق الأول والطابق الثاني. يختزل الكبار درجاته الأربع والعشرين إلى أداة للصعود والنزول ونرى فيه ملعبا نركض فيه، نقفز عليه، نتزحلق على درابزينه الملتف، نفترش عتباته لنتحدث بهدوء أو صخب، نضحك، نتشاجر، يغضب أحدنا أو يبكي أو نسكت فجأة لان صياحنا أيقظ أبانا من قيلولته فتوعدنا صارخا: "استنوا عليّ يا ولاد الحمار!" نضحك بلا صوت، نتبادل الحديث همسا، دقائق ثم نعود ننهمك في اللعب، لا نلتفت لقيلولة أبي ولا لوجود الراعيتين المشرفتين علينا من موقعهما المستقر في الزجاج مع خرافهما الملونة.

لم يكن هذا السلم وحده مسرح عملياتنا اليومية، هناك السلم الرخامي العريض في مدخل البيت- نستخدمه في لعب الكرة، وسلم حجري عال وشبه مستقيم يربط بين الطابق الأول والطابق الأرضي، وسلم حديدي ملتف تجده على غير توقع في شرفة تفتح عليها غرفة من غرف الطابق الثاني (لاحقا ستصبح هذه الغرفة لي بها سريري وكتبي ومكتبي).

سوف نوظّف الحديقة والطابق الأرضي والسطح وكافة السلالم في ألعابنا. سوف أختفي أحيانا في برميل كبير أو في إحدى خزانات الحائط بالطابق الأرضي وأنا ألعب "الاستغُمّاية" مع أخوتي. سوف نركض على السلم الحديدي الذي يوصلنا إلى السطوح فتصيح بنا أمي: "لا تركضوا سيقع واحد منكم عن هذا السلم!" فنجيبها- ونحن نركض- أننا لا نركض. في الحديقة سوف يربي أخوتي في فترات مختلفة كلابا مختلفة لها أسماء مختلفة تتفاوت من حارس إلى ريكس ومن فلّة إلى لاسي. سوف أخاف منها جميعا، لا ألاعبها ولا أطعمها ولا اقترب منها. وفي القن الواسع الذي يشغل جانبا من الحديقة الخلفية سوف نقتنى دجاجا أو أوزا أو ديكا روميا، أو كلها مجتمعة. وأحيانا نقتني أرانب تنهمك في حفر سراديبها الأرضية حتى نكتشف أنها وصلت لأساسات الدار. بعد سنين حين يتزوج أخواي الأصغر وينجبان يكون لصغارهم جدي يدللونه ويشاكسونه كل يوم جمعة حين تجتمع العائلة في البيت الذي صار الآن بيت المنيل تمييزا له عن البيوت التي توزعنا فيها مع أزواجنا وأطفالنا. ولكن هذه المبهرات كلها لم ترق أبدا للهدية التي حملها لنا أبي ذات يوم من أيام عام ١٩٥٩ وقفنا مشدوهين

قبل أن تتحول قشعريرتنا إلى هياج منتش. قال أبي وهو يقدمه لنا: "اسمه جرير!" ولولا ألسنتنا المعقودة لقلت: "وأنا اسمي رضوى، وهذا طارق وهو الأكبر، وهذا حاتم يصغرني بثلاث سنين ونصف وذاك وائل أخونا الأصغر". لم يسعفنا قاموسنا للتعبير عن جماله و لا مشاعرنا. سأراه جميلا وآسرا ولن أركبه أبدا، أما طارق فسوف يقفز إلى ظهره يخرج به من بوابة البيت يركض على أسفلت الشارع حتى يصل إلى البحر الصغير فيمنحه المهر ومهارته في ركوبه شهرة في شارع مصطفى رضا وكافة الشوارع المجاورة.

من هذا البيت الذي اشتراه أبي عام ١٩٥٥ وجاء إليه بجرير وبعشرات الأشياء الصغيرة والكبيرة سوف يخرج نعشه من بين زوجته وأبنائه وأخيه الباقي وأصهاره وزملائه، سوف أجد نفسي أطل عليه من الشرفة و أصرخ كأنني لم أولد وأتربى في أسرة من الطبقة الوسطى تتقن كتمان مشاعرها ولا تودّع موتاها بلطم الوجه والصوت العالي. في المساء سوف يسأل حاتم من هي المرأة التي كانت تصرخ ونحن نحمل أبي من البيت؟ لن أجيبه على السؤال.

الفصل السابع

ولدتْ شجر في ٢٦مايو ١٩٤٦ في بيت يطل على كوبري عباس ولكن من الجهة الأخرى المقابلة لبيتنا، جهة الجيزة. (حكى لها جدها عبد الغفار أن أمها كانت حبلى بها، في شهرها السادس، حين غنت أم كلثوم في المولد النبوي قصيدة "سلوا قلبي" ثم ثم غنت"سلوا كؤوس الطلى" في شهر مايو- الشهر الذي ولدت فيه. بعدها وفي نفس السنة غنت "وُلد الهدى" و "نهج البُردة" و"السودان" وكانت القصائد الخمس لأحمد شوقي ومن تلحين رياض السنباطي).

في طفولتها، قبل أن تتكاثر بنايات الأسمنت العالية، كانت شجر وهى تقف في الزاوية القبلية من الشرفة ترى النخيل عن يمينها، وفيما وراء النخيل أهرامات الجيزة. تنتقل إلى الجهة الشرقية، ترى فيما وراء المنيل باتجاه يدها اليسرى مسجد محمد على مستتبّا على قلعة الجبل. (حدثها جدها عن المحمل: الموكب الكبير الذي ينطلق من القلعة حاملا كسوة الكعبة في طريقه إلى السويس ومنها بحرا إلى جدة قاصدا مكة. تتطلع إلى القلعة فيأتيها صوت جدها

يستحضر القماش المخملي المطرز بخيوط الذهب، والجمال والخيول تشق طريقها على قرع الطبول وتهليلات الأهالي). من النافذة الخلفية، نافذة المطبخ ترى أشجار حديقة الحيوان، خضراء في النهار ومعتمة في الليل. في الليل يخيفها زئير الأسود، مغلق عليها في أقفاصها، تعرف، ولكنها تخاف، تودّ لو كانت مستغرقة في النوم، تود لو تغلق أذنيها. دقات ساعة الجامعة لا تخيفها. تسمع الدقات وفواصل الصمت بينها وذلك الشيء المتبقي منها في الفضاء كأنه ذيل الصوت أو صوت آخر خافت يجاوبه، كأنه طيف الصوت أو خياله. حين قال المذيع: "أعلنت دقات ساعة جامعة القاهرة تمام الثانية" تعرّفت شجر على الساعة التي عرفتها قبل سنين: عرفت دقاتها الأربع والدقة الواحدة ثم لا شئ، والدقتين، والدقات الثلاث قبل أن تتعلم العد من واحد إلى اثني عشرة، وقبل أن تعرف معنى الربع والنصف والثلاثة أرباع.

لن تنتبه لدقات الساعة وهي جالسة خلف مكتب صغير منفرد في مدرج ٧٤ في كلية الآداب، عن يسارها مقاعد المدرج يشغله أهلها وأصدقاؤها وزملاؤها. لا تتطلع في اتجاههم. تتطلع إلى يمينها حيث المنصة والأساتذة الثلاث.

يرتدون "الأرواب" السوداء وأمام كل منهم على المائدة المغطاة بقماش أخضر سميك نسخة من رسالتها.

ناقشها أعضاء اللجنة ثلاث ساعات. انسحبوا للمداولة. بعد منتصف ساعة عادوا. وقفت ووقف الحضور. قرأ المشرف الديباجة الطويلة أولاً ثم: "اجتمعت اللجنة المشكلة من. . . ومن. . . ومن. . . في الساعة السادسة من مساء يوم السبت الحادي عشر من ديسمبر ١٩٧١ الموافق الثالث من ذي القعدة ١٣٩٣. وبعد مناقشة علنية للطالبة شجر محمد عبد الغفار قررت اللجنة منحها درجة الماجستير في التاريخ الحديث بدرجة ممتاز".

كانت محظوظة، كثيرا ما فكرت شجر في ذلك. لو ناقَشَتْ رسالتها بعد شهرين أو ثلاث لعرقلت الإدارة تعيينها ولأمكن طردها من الكلية. هذا ما قاله رئيس الجامعة. هل كان كلامه مجرد تهديد، تلويحا بالعصا للصبية التي لم تتجاوز الخامسة والعشرين؟ هل كان أسلوبا للردع وضبط سلوكها مستقبلا؟

التحقتْ باعتصام الطلاب منذ اليوم الأول في قاعة الاحتفالات، قضت فيها الأيام الأربعة. لم تعد قبة القاعة–

علامة الجامعة المثبتة في البطاقات والصور- مجرد خط مقوس، خلفية لمشهد تتصدره امرأة من جرانيت. دخل الأولاد والبنات القاعة، استقروا في حيزها الفسيح، تحت قبتها العالية، تحدثوا وتناقشوا واتفقوا واختلفوا ونسخوا البيانات وأطلقوا الأحلام- الكبيرة- عصافير ترفرف وتحلق وتزقزق باتجاه السقف المقوس العالي. لا تتطلع شجر إلى السقف. لا ترى القبة من خارجها الآن، هي داخل القاعة، تنهمك في النقاش صبحا ومساء. تغلق عينيها وقد استبد بها التعب في نهاية اليوم، تنام على مقعدين تضمهما فيصيران سريرا ملائما. تستيقظ فجرا، تخرج إلى الحرم الجامعي تغلله زرقة فجر شتائي غائم. تتنحي جانبا من السلم، تجلس. برج الساعة ثم كلية الآداب عن يسارها. عن يمينها كلية الحقوق، بينهما مسطح العشب الأخضر يمتد إلى ما قبل البوابة الحديدية والنصب التذكاري للشهداء. تتطلع شجر. لم يغادرها خدر النوم تماما بعد. ثم يستتب الضوء، تنتبه فتبدأ في تسجيل مشاهداتها في اليوم السابق. تسجل الهتافات والخطب وبرقيات التأييد. حتى الخلاف الحاد الذي وقع بين طلاب الطابق الأرضي وطلاب الشرفة تسجله: توتر يسكن الجو.

يهمس البعض أنها محاولات للتخريب، البعض الآخر يقول المباحث تقوم بعملها. مجموعة ثالثة تؤكد أنها خلافات طبيعية ولا يصح اتهام من يختلف معنا، مهما اختلف، بأنه مخرب أو عميل. ما الذي أوصل الأمر لما وصل إليه؟ انفجر الهتاف فجأة، ليس الهتاف المعتاد الذي يردده كل المعتصمين بل هتاف من طلاب الطابق الأرضي في مواجهة هتاف الطلاب الجالسين في الشرفة. طلاب الطابق الأول يهتفون: "طب وهندسة، بعتوا مصر بكاااام، بعتوا مصر بكام؟ !"يرد عليهم طلاب الشرفة بهتاف مضاد وهم يشيرون إليهم بأصابع اتهام: "شيوعيين، شيوعيين، إحنا إحنا المصريين" فوجئت شجر بطالب نحيل يقفز واقفا فوق المقعد الذي كان يجلس عليه ويبصق إلى أعلى قاصدا الهاتفين في الشرفة.

فجر الاثنين ٢٤يناير اقتحمت قوات الأمن الجامعة واقتادتهم من القاعة إلى عربات الشرطة.

لم تقض في السجن سوى عشرة أيام. بعد انتهاء أجازة نصف السنة عادت إلى عملها. دعاها رئيس القسم، أبلغها أن رئيس الجامعة يريدها. توجهت إلى مبنى قاعة الاحتفالات،

سألت عن مكتب رئيس الجامعة. صعدت. جلست تنتظر في غرفة مدير مكتبه، ثم "تفضلي يا آنسة".

لم يدعها إلى الجلوس. وضع نظارته على عينيه وقرأ من ورق أمامه خلع النظارة. تطلّع إليها:

–آنسة شجر محمد عبد الغفار، معيدة في قسم التاريخ؟

–نعم

–كنت في الاعتصام، أليس كذلك؟

–نعم

–قبض عليك فجر ٢٤ يناير ضمن الطلاب المعتصمين؟

–نعم

–كيف نستأمنك على تعليم طلابنا؟ !

واصل:

–تعرفين أنه يمكن إلغاء تعيين المعيد في أي وقت. ليس المعيد عضوا في هيئة التدريس، إنه طالب بحث، مجرد طالب بحث، موظف مؤقتا تحت الاختبار.

بقيت صامتة.

–أليس من الأفضل أن تنتبهي لدراستك وتكملي الماجستير بدلا من هذا التهريج؟

-ناقشت الماجستير في شهر ديسمبر. في الشهر الماضي عُيِّنت في درجة مدرس مساعد.

علا صوته محتدا:

-لم تحصلي بعد على الدكتوراه، لست عضوا في هيئة التدريس. بإمكاني فصلك من الجامعة!

تطلع فيها. تشاغل بالنظر إلى بعض الأوراق على مكتبه. رفع رأسه:

-أتوقع أن أسمع منك كلمة اعتذار، أو تفسير لما فعلت!

"اعتذرتِ؟ " سألها جدها عبد الغفار. "لم اعتذر!" ضحك: "عنيدة يا شجر!" ضحك أكثر يوم عادت إلى البيت في العام التالي تحمل بيدها خيزرانة وخوذة جندي. كانت القنبلة المسيلة للدموع في حقيبتها، أخرجتها من الحقيبة وعرضتها عليهم. صاحت أمها: "مجنونةُ". علّقت ست جُلْسُن: "شجر ستأتي لكم بمصيبة! وادي دقني لو ما طردوها من الجامعة!" لم تكن العبارة سوى العبارة الافتتاحية لمنولوج طويل حرصت شجر ألا تسمعه. انتقلت مع جدها إلى حجرته لتحكي له كيف خرج الطلاب من الحرم واشتبكوا مع قوات

الأمن. "الأولاد قرروا أن يقيموا معرضا للغنائم. أتوا لي ببعض غنائهم للاحتفاظ بها: الهراوة انتزعها أحد الطلاب من صاحبها، الخوذة تدحرجت على الأرض في المعمعة، التقطها طالب، أما القنبلة فتمكنت طالبة من الإمساك بها قبل أن تسقط على الأرض. هذه حصيلة اليوم. والبقية تأتي!".

-وخرجت من الجامعة وأنت تحملين هذه الأشياء؟ !

- خرجت من الباب الخلفي وركبت الأتوبيس، ذهبت إلى دار الكتب في باب الخلق، قرأت ساعتين ثم ركبت الأتوبيس وعدت!

تبتسم شجر، تتساءل: جرأة صافية أم ممتزجة بالغفلة عن الشراك وبنادق الصيادين. أفلتت. مدرج ٧٤ مرة أخرى. الرسالة. "الأرواب" السوداء. المناقشة. حصلت على الدكتوراه.

تتأمل الصور: صور المناقشة الأولى. في الخامسة والعشرين.

صور الناقشة الثانية. في الثامنة والعشرين. السنوات الفارقة لا تبدو في الصورة: الشعر الصبياني القصير، الجسد النحيل، النظرة، كيف تصفها؟ صور ملونة كثيرة يحملها لها

الطلاب بعد انتهاء المناقشة. نفس المدرج و"الروب" الأسود أيضًا ولكنها المشرفة على الرسالة أو عضو في لجنة المناقشة. لم يعد الجسد نحيلا ولا الشعر اسود قصير بل رمادي مطروح للخلف مصفّف بما يليق بأستاذة على مشارف الأربعين، في هذه الصورة في منتصفها في تلك. في الخمسين في صورة ثالثة. تستغرب الصور الأحداث، كأنها لاتتعرف على نفسها فيها. هل تتشبث بصورة الصبية لا تريد هذه المرأة الخمسينية بديلا عنها؟ لأنها اقل جمالا، أقل رشاقة؟ ما معنى الجمال؟ الامتلاء، أليس قيمة؟ اتبتسم: لا أحد يُفلت الحياة من بين يديه راضيا؟ المرأة؟ الرجل أيضا. لا أحد يزهو بالشيب والتجاعيد والطريق المنحدرة إلى الموت!

تعود إلى صور الماجستير. الصبية ذات الشعر الصبياني تقف بين الزملاء والأصدقاء بعد انتهاء المناقشة. في الطرف يقف يوسف. ريفي واضح. طويل، عريض المنكبين، يضحك. في صور الدكتوراه أيضا: يوسف يضحك. في الصور الأخيرة يبدو الوجه صارما وشاحبا وبعيدا كأنه قطع شوطا في طريق الرحيل. لم تنتبه.

زملاء آخرون أيضًا في الصورة. بدوا أقرب. كانوا أقرب. ابتعدوا. في البداية بدا يوسف بعيدا، بدا جلفا، صريحا إلى حد الغلظة. ثم تحمل الأيام اختباراتها الصغيرة، والكبيرة، وطريقًا تتفرع مع كل سؤال، وغوايات تستدرج الأصدقاء إلى وهم صعود يهبط بهم ثم يهبط اكثر فتراهم يبتعدون، يتركون لها الوحشة والخذلان، والغضب أحيانا. يوسف لم يصعد ولم يهبط، بقي متينا كجدران بيت.

- ماذا أفعل يا يوسف؟

- اهدئي قليلا، علينا أن نفكر بهدوء.

كانت توجهت من محطة القطار إلى منزله مباشرة. لم تفكر في اضطرابها أن عليها أن تتأكد أولا من الأوراق التي تحملها.

-فحصت الأوراق؟

-لم أفحصها بعد!

نظر إليها نظرة مستنكرة. مد يده إلى رزمة كراسات الإجابة.

كانت أربعا وأربعين كراسة، فحصاها جميعا. كلها تحمل إجابات تطول أو تقصر.

-هل أنت متأكدة أن الولد سلم الورقة بيضاء تماما؟

أعادت عليه ما سبق أن قالته:

-غادرت البيت في السادسة صباحا خشية التأخر على

الامتحان هذه أول مرة أقدم فيها مقررا دراسيا في جامعة خارج القاهرة- وصلت الكلية قبل بدء الامتحان بساعة كاملة. وقفت في اللجنة طوال الثلاث ساعات أراقب سير الامتحان. عدد الأولاد لا يزيد عن الأربعين، أعرفهم جميعا. حتى من لا أذكر اسمه آلف شكله. هذا الولد لم أره من قبل. استوقفني أنه لا يكتب في كراسة الإجابة، يطلب قهوة، ثم يطلب شايًا ويدخن، ويتطلع إلى ورقة الأسئلة ثم ورقة الإجابة وفقط.

- تأكدت انه طالب بالفرقة الثالثة؟

- فحصت بطاقته الجامعية. ولمزيد من التأكد ملت على طالبة

وسألتها عنه، قالت: "زميلنا و أول الدفعة. كان الأول في سنة أولى وفى سنة ثانية!" انتهى وقت الامتحان، سلم

الولد كراسة الإجابة، فررت صفحاتها، لم يكن خط فيها حرفا واحدا.

-استُبدلت الورقة!

-والحل يا يوسف؟

-لابد من تبليغ النيابة!

-النيابة؟ !

-لابد من عمل كمين للطالب.

الامتحان التالي: لم يبق سوى ربع ساعة على نهاية الامتحان.

الولد يدخن و أمامه كراسته البيضاء. يقوم لتسليمها. تمد الملاحظة يدها لاستلامها منه. يضع مخبر يده على الكراسة، يتحرّز عليها. يتحرّز مخبر آخر على باقي الكراسات التي بحوزة المُلاحظة. خشّبتها المفاجأة ثم بدأت تصيح وتلطم خديها في ذعر. لم يفهم الطلاب ما يحدث، تجمهروا خارج القاعة إلى أن طلب منهم الضابط التفرق. قبل فتح التحقيق كانت الواقعة قد أُثبتت: كراستان عليهما اسم الطالب ورقم جلوسه: واحدة أوشك على تسليمها خالية من أية إجابة، وثانية مستقرة بين باقي الكراسات مع المُلاحظة، تحمل

أوراقها إجابات مطولة على كل الأسئلة المطلوب الإجابة عليها! كان على التحقيق الوصول إلى شركاء الطالب، أستاذ واحد، أساتذة، موظف واحد، موظفين، وفى مقابل ماذا، مبالغ مالية، مكافآت عينية، مركز وظيفي؟ وكيف كانت تستبدل الورقة. . الخ

صدمة أولى. قاسية. "شجر، ليست الجامعة خارج المجتمع، ما يحدث فيه يحدث فيها!" يوسف على حق ولكن البلاغ والنيابة والمخبرين وتحقيقات الشرطة. . . !

الفصل الثامن

لم تنتبه للكراسة الموضوعة على مكتبها إلا في اليوم الرابع لرحيل جدها. متى وضعها؟ هل كان ينوي كتابة المزيد ثم أحس بالموت يلمس كتفه فسارع بوضع هديته على مكتبها. بدأت شجر في قراءة المكتوب:

إهداء:

أقدّم هذه الصورة من تاريخ حياتي إلى حفيدتي وقُرّة عيني الآنسة شجر محمد عبد الغفار المُعلِّمة بقسم التاريخ بالجامعة المصرية هدية متواضعة لها بمناسبة حصولها على درجة الماجستير بتقدير ممتاز سائلا الله القادر أن يديم عليها نعمة العلم ويرضى عنها ويرضيها، إن ربي سميع الدعاء.

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين. أما بعد فهذه مذكّرة بتاريخ حياة العبد الفقير إلى ربه الكريم عبد الغفار بن على زين العابدين. والدته صالحة بنت حسن الخوّاص.

ولدتُ تقريبا عام ١٨٩٧ في قرية زريبة الأشراف (العدلية الآن) بالقرب من بلبيس بمديرية الشرقية. ولم تكن

هذه القرية هي بلدنا الأصلي بل نزل فيها أبي قادما من قرية الزرابي في صعيد مصر قبل ولادتي بخمس سنوات (كان أبي خلّف وراءه في الزرابي زوجته الأولى وبنتين وثلاثة أولاد). لم يحك لي أبي سبب تركه لبلده واختياره لزريبة الأشراف للإقامة وربما كان بنيّته أن يخبرني عن تفاصيل ذلك عندما يشتد عودي ولكن وافته المنيّة ولم ابلغ السابعة من عمري. ولكنه حكى لي عن جدتي شجر وعن أبيه وأخواله الذين ذهبوا إلى ساحات الحفر في منطقة القنال ولم يعودوا أبدا. ولا أدري أن كان أبي شرّق باتجاه الإسماعيلية بعد مغادرته المركب في ميناء امبابة لتنفيذ وصية والدته بزيارة قبر أبيه وأخواله أم لسبب آخر. نزل أبي زريبة الأشراف واستقر فيها ثم تزوج واحدة من بناتها ولا أظن أنه تمكّن من زيارة قبر والده و أخواله رغم تعدد زيارته لتلك الناحية، والأرجح أنه لم يجد علامة يستدل بها على مقابر من ماتوا في ساحات الحفر.

سبب تغيير اسم الزريبة إلى العدلية

في القرن السادس عشر نزح إلى مدينة بلبيس بمديرية الشرقية ثلاث أخوة من سادة بنى هاشم من قبيلة قريش قادمين من الطائف بالحجاز. وكان سبب انتقالهم إلى مصر خلافا نشأ بينهم وبين الشريف عون، حاكم مكة. وكان ثلاثتهم غير راضين عن حكمه يعلنون أنه رجل ظالم لا يراعى الحق ولا شريعة الله. هذا ما قالوه وتناقلته الأجيال. أنشأوا بلدة زريبة الأشراف واستقروا فيها وواصلوا عملهم في زراعة وتجارة الحنّاء في مصر والحجاز والعراق.

في طفولتي كان هناك شخص من عائلة الحنّاوي التي أسست البلدة اسمه محمد صالح ترقّى إلى وظيفة رئيس محكمة الاستئناف بالقاهرة. وكان الخديوي عباس الثاني ابن الخديوي توفيق يملك حوالي ألف فدان أطيان رملية ناحية أنشاص بالشرقية ويرغب في زيادة أملاكه في هذه الجهة فكان يوعز لرجال الضبط والعمد وموظفيه بإقناع ملاك الأراضي المجاورة بالتنازل عنها. من يريد منهم أن يحصل على رتبة بيك يكتب عقدا خالص الثمن بمائة فدان باسم ولي العهد عبد المنعم، ومن يرغب في لقب باشا يكتب عقدا

بمائتي فدان. أما من يرفض التنازل عن أرضه فكان رجال الخديوي وموظفوه يغمرون الأرض المجاورة لأرضه بالماء، ولأن جميع الأطيان في تلك الناحية رملية ترشح على بعضها يتعذر عليه زراعة الأرض فتبور فيضطر إلى التنازل عنها لولي العهد أو بيعها له بثمن بخس. وبهذه الطريقة تمكّن ولي العهد من امتلاك ثمانية آلاف فدان.

هناك عائلة في تلك المنطقة تمسكت بحقها ورفضت التنازل أو البيع حتى عندما تعذر عليها زراعة الجزء الأكبر من الأرض فأمر الخديوي عمّاله بوضع اليد على جميع أطيانها باعتبارها منافع عامة فرفعت العائلة دعوى أمام محكمة الزقازيق ضد الخاصة الخديوية ولكن المحكمة حكمت لصالح الخديوي فقامت العائلة بالاستئناف أمام محكمة مصر. وكان رئيس المحكمة محمد صالح الحنّاوي. نظر القضية والحكم الابتدائي فلم يقبل الظلم وقرر أن يحكم بالعدل حتى لو فقد حياته. وفعلا ودّع أولاده قبل الجلسة بيوم واحد لأنه يعلم علم اليقين أن الخديوي سيقتله إذا حكم ضده. توجه محمد صالح إلى المحكمة وحكم على الخاصّة الخديوية بردّ الأطيان لأصحابها وإلزامها بالتعويض ومصاريف القضية

وال أتعاب. وبعد ساعتين جاءه طلب من سراي عابدين لمقابلة الجناب الخديوي.

قال له الخديوي:

-أنت القاضي الذي حكمت ضدي اليوم؟

فأجابه:

- أنا حكمت بما يرضى الله ويرضي ضميري.
- سأله:
- ما اسمك؟
- اسمي محمد صالح الحنّاوي.
- من أي بلد؟
- أنا من بلدة صغيرة بجوار بلبيس اسمها زريبة الأشراف.

قال له الخديوي:

- أنت منذ اليوم اسمك محمد صالح عدلي وبلدك اسمها العدلية.

في اليوم التالي صدرت الجرائد وعلى صفحاتها الأولى بالخط العريض أن الخديوي أكرم القاضي الذي حكم ضده. وكان لهذا الموضوع رنّة في مصر كلها وكانت العائلة الخديوية تتباهى به.

طفولتي

لم أعد أذكر ملامح والدي ولكني أذكر أنه كان يحب أكل البلح وشرب الشاي وأنه كان يلبس (العربي)عبارة عن جلابية كبيرة بأكمام واسعة جدا يسع الكم ربع أردب قمح وكنت ألعب معه كثيرا فأدخل في كمه الكبير وأمر على جسمه وأخرج من الكم الثاني. وكان يلبس سروالا من البفتة. وكان كريما جدا رغم أنه كان مزارعا رقيق الحال. وكان عند حضوره للمنزل للعشاء يكلّفني بأن أجمع الخبز الفائض من على الطبلية وأنتظره في الشارع ليأخذه للفقراء في الجامع أما والدتي فكانت تمانع في التفريط في الخبر ولذلك تعودت على سرقة الخبر المتبقي كل ليلة لأعطيه لوالدي.

توفى والدي في آخر عام ١٩٠٤ وكنت في حوالي السابعة من عمري. كانت الناس تموت في الشوارع بسبب الوباء الذي كنا نسميه "الشوطة" أو "الكوليرا". وكانت العائلة المكونة من ثمانية أشخاص يموت منها في اليوم الواحد اثنان أو ثلاثة. وكانوا يأخذون الموتى من المنازل على عربات كارو ويدفنوهم كما هم بملابسهم بدون غُسل ولا صلاة في حفرة كبيرة في الجبل. رأيت بعيني وأنا طفل السلالم التي

أرسلتها الحكومة. في كل شارع عمومي وضع سلم جوز كبير وثلاثة عمّال يحمل كل منهم جردل صاج ومقص كبير. يقف أحد العمال على أعلى السلم ويقصّ الهواء بالمقص ويضعه في الجردل ويغطيه ويناوله للعامل الثاني الذي يناوله للعامل الثالث فيغطي الهواء بالرمل وكانت هذه هي طريقة مقاومة العدوى حسب أوامر الحكام الإنجليز في ذلك الوقت الغابر. حفظنا الله من شر حكم الأعادي.

الحالة
الاقتصادية والاجتماعية بين ١٩٠٤و١٩٠٦

بعد وفاة والدي انتقلنا إلى بلبيس للإقامة مع خالي وأنشأت والدتي مشغل لخياطة ملابس السيدات والرجال وكان يساعدها في المشغل فتاة صغيرة. وكانت أمي تحصّل من هذا المشغل المال الضروري لمعيشتنا اليومية. كانت تعطيني قرش خُردة أشتري به طبخة ملوخية أو بامية وطماطم (وكان اسمها بنادورة) وبصل وبرسيم للأرانب. كان القرش الصاغ يساوى ٨ قروش خُردة، والقرش الخُردة وزنه ١٢درهم ومكتوب على أحد وجهيه "ضُرب في القسطنطينية" وعلى الوجه الثاني: "عبد الحميد خان عبد

المجيد". ويوجد نصف القرش الخردة وهو عشرين خردة ووزنها ٦ دراهم من النحاس الأحمر، وربع القرش الخردة ووزنها ٣ دراهم. وكان بعض البياعين يستخدمونها في وزن السلع بدل السنج. وكانت والدتي تعطيني أجرة حلاقتي عشرين خردة فكنت أحتفظ بنصفها وأعطى الحلاق عشرة خردة وهى تساوى ١/٣٢من القرش صاغ. كان الزبون يعطي الأجرة للحلاق فيأخذها منه ويضعها في جيبه دون أن يراها حتى لو كانت يد الزبون فارغة. لذلك كان الله يبارك لهم في حياتهم.

كانت قربة الماء الكبيرة بعشرين خردة والصغيرة بعشرة خردة، ورطل اللحم بقرش صاغ، والفرخة الكبيرة بقرش ونصف، والوزة بقرشين، والعشرين بيضة بقرش صاغ، ورطل الزبدة بقرش ونصف، ورطل السمن البلدي بقرشين، وإردب القمح بستين قرش، وإردب الفول بأربعين قرش، وإردب الذرة بخمسة وثلاثين قرش. وأجرة المنزل المكون من دورين، كل دور ثلاث غرف عشرة قروش. وكانت الجاموسة الوالدة مع نتاجها بين أربعة وخمسة جنيه,والبقرة الوالدة مع نتاجها بثلاثة جنيه، والحمار

الحصاوي العال بجنيه، والخروف بخمسين قرش، والجدي بخمسة وثلاثين قرش. وكانت الخضراوات تباع بالشروة (بالمشنّة) بدون وزن. مشنّة البلح بقرش صاغ، ورطل عسل النحل بقرش تعريفة، ورطل عسل القصب بقرش خُردة، ورطل الطحينة بثلاثة قروش خُردة، ورطل زيت السمسم (السيرج) بنصف قرش.

كانت الدايات والحلاقون هم المعالجون وكان هناك طبيب واحد في البلد يذهب إليه الأغنياء وكان رجلا تركيا يدعى بسيم والكشف عنده بقرشين صاغ. وكانت أجرة تفصيل وخياطة القفطان قرشين صاغ وأجرة الجلابية ومعها الصديرى قرش واحد. وكان الصابون قليلا جدا ولا يستخدمه سوى الأغنياء. وكانت شركة الملح أول من صنع الصابون في مصر فارتبط بيع الصابون بالملح فكان على من يرغب في شراء أقة ملح أن يشتري قطعة صابون بربع قرش ومن لا يشتري الصابون لا يسمح له بشراء الملح. ولم تكن الغالبية العظمى من الناس تستخدم الصابون، كانت البنات والنساء يأخذن الملابس المُراد غسلها إلى الترعة ومعهن مدقّة خشب ويضعن الملابس في الماء ثم يخرجنها ويضعنها

على حجر كبير وينزلن عليها ضربا بالمدقّة حتى تزول عنها البقع وتصير نظيفة. أما الزهرة فلا تستعمل إلا لشال العِمَّة.

في سنة ١٩٠٥ ظهرت البطاطا وكان لها وقع عظيم وكانت تعد من الفواكه المهمة لأنها تغذي الفقير بالثمن القليل. وفى سنة ١٩١٢ ظهرت المانجة وجاءت أشجارها من الهند. وكان التفاح يباع على عربات اليد الأقة بقرش صاغ أما معظم الفواكه الأخرى فتباع بالشروة بدون وزن. وكان العنب يباع في الجناين بالوَزْنَة والوَزْنَة مشنة كبيرة حوالي عشرين أقة بخمسة قروش ومشنّة البلح عشر أقات بقرش واحد. وكانت معاملة تجار الجملة وتجار المنازل والأطيان بالكيس. يقول الإنسان أنا اشتريت المنزل الفلاني بعشرة أكياس، والكيس قيمته عرفا جنيهان ونصف. ويقول آخر أنا زوجت ابنتي فلانة بعشرة أكياس واشتريت الفدان الفلاني بثلاثة أكياس، أو يقول اشتريت هذا الحصان العربي الأصيل بأربعة أكياس ولا أبيعه حتى لو جاءني فيه ستة أكياس.

وكان الجنيه الذهب المرسوم عليه ملك الإنجليز يساوي سبعة وتسعين قرشا ونصف، والجنيه المرسوم عليه الملكة

يساوي سبعة وتسعين قرشا، والجنيه البنتو ويسمى بالجنيه الفرنساوي قيمته ستة وسبعين قرشا واثنين على عشرة.

في سنة١٩٠٦ كان الخديوي عباس يحضر كل يوم أربعاء لمزرعته في إنشاص وفي بعض الأسابيع يعلن أنه سيحضر في محطة بلبيس ثم يعود إلى القاهرة. وكان له قطار خاص بعربة واحدة وكان يسوق الوابور بنفسه لأنه كان يعلم الكثير عن الميكانيكا والبخار. كان السواق والعطشجية يرافقونه ولكنه هو الذي يقود القطار وهو يلبس بدلة كاكي وطربوش طويل مثل لبس العساكر. وفي اليوم الذي يحضر فيه لمحطة بلبيس يخرجنا أسيادنا المشايخ من الكتّاب لانتظاره بالمحطة وما إن نراه حتى نقول بصوت واحد: "مرحب بخديوينا عباس" فيضع يده في جيبه ويرمينا بعملات فضية من ذات القرشين فنسارع لالتقاطها، البعض منا يحصل على قطعة أو اثنتين والبعض الآخر لا يحصل على شيء. ثم نعود إلى الكتّاب ونعطي للمشايخ نصف ما ربحناه.

نبذة عن حياتي الدراسية

دخلت كتّاب الجامع الكبير ودرس فيه أربع سنوات من ١٩٠٤ إلى ١٩٠٨ حفظت فيها نصف القرآن وتعلمت الكتابة والقراءة. كان لكل تلميذ منا لوح صفيح يكتب عليه بالحبر الأسود والقلم الغاب أو البسط. وكنا ندفع المصروفات يوم السبت من كل أسبوع وهى نصف قرش ورغيف مرحرح، أما غير القادرين من التلاميذ فكانوا يأتون برغيف مرحرح بدون نقدية. وكان الإيراد الأسبوعي للكتاب مشنّتين عيش وحوالي خمسين قرشا يقتسمها أسيادنا المشايخ.

كنت دائما أهرب من الكتّاب لأن أسيادنا المشايخ كانوا يضربوننا بقسوة ويستخدمون الفَلَقَة وهى عبارة عن عمود خشب غليظ مربوط في وسطه حبل من القِنَّب. يدخلون رجلي التلميذ في الحبل ويلفّونه عليه واثنين من التلامذة يرفعان رجليه بالفلقة أمام سيدنا وهو يظل يضرب بالعصي الخيزران أربعين أو خمسين مرة حتى أن التلميذ المضروب يظل حوالي ست ساعات عاجزا عن المشي على قدميه

وكانوا يقولون أن عصاية فقي الكتّاب من الجنة وأنا أقول إنها من النار.

حياتي في المرض

كان سني أربع سنوات حين مرضت بالحُمّى. حاولت أمي أن تسقيني زيت خروع ولكني رفضت واجتمعت الجارات عليّ لإقناعي ولكني لم أقبل. قلت لن آخذ الشربة إلا إذا أحضرتم لي أرنبا فسارعت إحدى الجارات بإحضار أرنب من دارها فقلت أريد أرنبا ثانيا ليلعب مع الأرنب الأول فقامت نفس الجارة وأحضرته لي فقلت:هاتوا لي ناقة بيضاء. وكانت أمي غاضبة تفكر في طريقة لإرغامي على تناول الشَربة عندما وصلت الداية التي حضرت ولادتي والتي كنا نعتبرها طبيب العائلة فلفّتني في بطانية وحملتني إلى ميضة الجامع وألقت بي فيها ثم نشلتني منها ولفّتني في البطانية وعادت بي إلى البيت. وكانت ميضة الجامع تستعمل للوضوء قبل ظهور الحنفيات وهى عبارة عن بركة يبدّلون ماءها مرة في الأسبوع. ولم يكن ماؤها نظيفا لان المصلين يتوضأون فيها وبعضهم غير نظيف. ومع ذلك فقد شفيت من

الحُمّى ولم أمرض بعد ذلك مطلقا ويبدو أن هذه الطريقة أعطتني مناعة ضد العدوى من كل الأمراض.

نبذة عن بداية حياتي العملية

في عام ١٩٠٨ وكنت في الحادية عشرة من عمري أخذني أحد أقارب أمي وكان يعمل في البنك الزراعي المصري في بلبيس لأتدرب على الكتابة والحساب. وكان هذا الشخص كريما فسمح لي أن أكتب للفلاحين استمارات السُلفة التي يطلبونها من البنك في مقابل نصف قرش عن كل استمارة. فكان مكسبي اليومي بين قرش وقرشين. فأعطي هذه المبالغ لأمي. وبعدها بعام ساعدني هذا الشخص نفسه على تعييني في وظيفة كاتب في مزرعة بطيخ ناحية بنى صالح تبع دائرة سمو الأميرة نعمت هانم مختار(وهى ابنة الخديوي إسماعيل وسُمِّيت بلقب مختار نسبة إلى زوجها مختار باشا في تركيا). وكان أجري اليومي قرشين صاغ وبطيخة. وكنت أبيع البطيخة بنصف قرش. وبعدها انتقلت للعمل في بُردين وموقعها بين بلبيس والزقازيق وبها من الأطيان أربعة آلاف فدان كانت ضمن أملاك الخديوي

إسماعيل وبعد وفاته قسمت مناصفة بين ابنتيه أمينة ونعمت مختار. فكان نصيب كل منهما ألفي فدان.

وفى عام ١٩١٥ انتقلت للقاهرة وعملت بمحل الحاج السيد علي تاجر نحاس بشارع بيت القاضي بالجمالية. ولم تكن القاهرة مزدحمة وكانت مواصلاتها سهلة. كانت الحمارة تقف في الميادين لتوصيل الناس لأشغالها بأجر زهيد. وكانت لشركة الصبان عربات صندوق تجرها خيل

أو بغال، وأجرة توصيل الشخص من سيدنا الحسين إلى العتبة الخضراء ٢مليم، ومن سيدنا الحسين للقلعة٣ مليم، ومن سيدنا الحسين للسيدة زينب ٥ مليم، ومن العتبة الخضراء إلى السبتية مرورا بباب الحديد ٥ مليم.

أم كلثوم

استمعت إلى أم كلثوم للمرة الأولى عام ١٩١٧ وذلك قبل انتقالها للإقامة في القاهرة بتسع سنوات. وكان الحاج سيد علي تاجر النحاس الذي اعمل عنده قد رزق بولد بعد سبع بنات فقرر أن يحيى ذكرى الإسراء والمعراج بليلة يتحاكى عنها الأهل والجيران. أرسلني الحاج إلى قرية طماي الزهايرة للالتقاء بالشيخ إبراهيم السيد والاتفاق معه أن

يأتي إلى القاهرة برفقة ابنته الشيخة أم كلثوم لإنشاد السيرة النبوية في منزله في القاهرة. وفعلا سافرت إلى السِنْبِلَّوِين ومنها إلى طماي الزهايرة واتفقت مع الحاج أن تحيي ابنته الليلة في مقابل ثلاثة جنيهات شاملة الأجر ومصروفات الانتقال وعدت إلى القاهرة بنص العقد المكتوب موقعا عليه من الشيخ إبراهيم.

في يوم ٢٦ رجب وصل الشيخ إبراهيم ومعه ابنه وابنته ولما رأى الحاج أم كلثوم أحمر وجهه من شدة الغضب ثم انتحى بي جانبا ووبّخني وقال إن الليلة ستنقلب إلى مهزلة وجُرسة وسيظن الناس انه بخل عليهم بمنشد فجاءهم بهذه الطفلة ولن يصدق أحد انه دفع لها ثلاثة جنيهات! طلب مني الحاج أن أذهب، إنقاذا للموقف، للبحث عن الشيخ إسماعيل سُكّر وكان من كبار المنشدين ولكني وجدته يستعد للذهاب إلى حلوان لإحياء الليلة في سراي عز الدين بك يكن. عدت إلى الجمالية لأخبر الحاج بالأمر. فسبّني وكنت أعرف أنه ما إن تنتهي الليلة حتى يطردني من عملي.

ظهرت أم كلثوم: صبية صغيرة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها ترتدي معطفا رجاليا وتغطي

رأسها بكوفية وعقال. سرى بين الحاضرين لغط بين مندهش ومستنكر ولكنها ما إن بدأت تنشد حتى صاروا يتمايلون طربا ويستعيدونها وقلت لنفسي وإن فقدت عملك يا ولد، هذه ليلة من ليالي العمر واليوم خمر وغدا أمر. في نهاية الليلة كان الحاج سعيد لدرجة أنه أعطاني خمسين قرشا هكذا بلا مناسبة

من يومها صرت أعشق غناء أم كلثوم وأذهب إلى كل مكان تغني فيه إذا ما تيسر لي ذلك. تسبب هذا الأمر في مشاكل بيني وبين زوجتي. كانت تقول أنني أبدد النقود في الهلس فأغضب لوصفها غناء أم كلثوم بأنه "هلس" فأقول لها إنها جاهلة. وفي عام ١٩٢٦أصدرت شركة أوديون للاسطوانات ١٤ أسطوانة لأم كلثوم فلم استطع أن أصبر أكثر من ذلك. اشتريت غرامافون والأسطوانات الأربع عشرة وبدلا من أن تفرح زوجتي بهذه النعمة صاحت في وجهي قائلة: "وتأتي بها إلى بيتي لتشاركني فيه!" وغادرتْ إلى بيت أهلها. حاولت مصالحتها ولكنها أصرت ألا تعود إلى البيت إلا بعد خروج الغرامفون منه. فذهب كل منا إلى حال سبيله.

واقعة مفعول به يا محمد أفندي

في سنة ١٩١٩ كنت أعمل في الجمالية وأسكن في نفس الحي وكان لي أصدقاء من طلاب الأزهر. وقد اشتركت معهم في الإضراب منذ اليوم الأول وكان ذلك يوم الاثنين ١٠ مارس وهو اليوم الثاني للثورة لان طلبة مدرسة الحقوق والمهندسخانة ومدرسة الزراعة كانوا سبقونا إلى الإضراب يوم الأحد.

في الأيام التالية كان طلاب الأزهر يخرجون من الأروقة فُرادي أو في مجموعات صغيرة ثم يجتمعون في الميدان ويفاجئون الإنجليز بالمظاهرة. في ذلك اليوم حملت الشيخ عبد العزيز على كتفي, وكان يتميز بصوت جهوري وقدرة على ارتجال هتافات مؤثرة. بدأ يهتف ونحن نهتف وراءه حتى ظهر الإنجليز وبدءوا في إطلاق النار. اضطربت الصفوف فاختل توازني فسقطنا أنا والشيخ عبد العزيز على الأرض. رفع زميل آخر شابا من المتظاهرين على كتفيه، وكان من الأفندية، فعلا صوته بالهتاف: "نفدي الوفدُ بالأرواح"! فصاح الشيخ عبد العزيز بصوته الهادر: "الوفد يا محمد أفندي، الوفدَ: مفعول به يا محمد أفندي!" جذبته من يده

و"زغدته" قائلا: إحنا في إيه واللا في إيه يا شيخ عبد العزيز. قوم فزّ حانموت دهس تحت الرجلين. قال: مش قادر. حملته فواصل الهتاف حتى وأنا أركض به للاحتماء من الرصاص. كانت ساقه مكسورة وظل حتى بعد أن حملته إلى المُجَبِّر يقول في استنكار. نحمي الوفدُ، يرفع المفعول به، سبحانه الله، أفندية آخر زمن! خف إيديك شويه يا حاج. الوجع شديد، شديد قوي!"

واقعتان لم أشهدهما بعيني ولكنى سمعتهما من رجل من الثقات

روى الحاج محمد عبد العال وهو تاجر جملة ونصف جملة عملت في الوكالة التي يملكها في الفترة من ١٩٣٢إلى ١٩٤٢قال: "كانت دائرة سمو الأميرة أمينة إسماعيل وولدها البرنس طاهر باشا تأخذ طلبات السراية من محلاتي بالشهر. وكنت أول كل شهر أكتب فاتورة وأتوجه إلى الدائرة لاستلام حسابي. وفى مرة ذهبت لتحصيل قيمة الفاتورة فقال لي الباشكاتب إن دولة الباشا طاهر في نادي الفروسية فانتظر حتى يأتي ويعطيك حسابك. فانتظرت. في هذه الأثناء حضر الملك فاروق في سيارة صغيرة جدا يسوقها بنفسه وكان

يلبس نظارة سوداء. دخل الدائرة فقابله الباشكاتب. سأله الملك: "أنت مين؟ "فأجاب:" أنا الكاتب" فقال له:"اسمك إيه؟ "قال:محمود" قال الملك: " يا محمود أنا عطشان هات لي كوباية مية حالا "فذهب الباشكاتب مسرعا إلى السراية التي تبعد حوالي مائة متر عن مكتب الدائرة لإحضار الماء. وفى الحال دخل الملك مكتب طاهر باشا وكنت أنظر إليه من خلف الشباك فوجدته يأخذ شيئا من على المكتب ويضعه في الجيب الخلفي لبنطلونه ثم خرج وركب السيارة وعاد إلى سراي القبة. وبعد دقيقة حضر الباشكاتب يجري ومعه دورق ماء وكباية وخلفه ثلاثة من الخدم وسألوني عن الملك فقلت لهم أنه دخل مكتب طاهر باشا وأخذ حاجة من عليه ووضعها في الجيب الخلفي لبنطلونه فدخل محمود أفندي يتفقد الناقص من المكتب وخرج وقال إن الملك سرق تمثال الخدين إسماعيل وهو تمثال صغير من الذهب الخالص مرصع بالأحجار الكريمة وكان هذا التمثال من نصيب الأميرة أمينة عند تقسيم تركة أبيها وهو يساوي أربعة آلاف جنيه.

وعندما حضر طاهر باشا أخبره الباشكاتب بما حدث فقابل: ابن الكلب! طلبه منى عدة مرات فلم أقبل إعطاءه له.

"وفورا ذهب إلى سراي القبة وقابل الملك وطلب التمثال فقال الملك: "هذا تمثال جدي وأنا أحق به من غيري! "فرد طاهر باشا:"صحيح إنه تمثال جدك ولكن والدتي أخذته ضمن نصيبها عند تقسيم التركة. "فرد عليه الملك:" أنا الوارث الوحيد للعائلة المالكة، وأنا الملك! "فعاد الباشا بخفي حنين. "

حادثة أخرى عن الملك فاروق

حدثنا الحاج محمد عبد العال قال: "كانت دائرة سمو الأميرة أمينة إسماعيل وولدها الأمير طاهر باشا قريبة جدا من سراي القبة. وفى مرة أقام الملك حفلا كبيرا في السراي ودعى له عظماء مصريين وأجانب. وكان لدى الأميرة أمينة طقم سفرة كامل من الفضة المطلي بالذهب وعليه نقش التاج و اسم الخديوي إسماعيل أخذته ضمن نصيبها في تركة والدها. طلب الملك الطقم لاستعماله في الحفلة وإعادته بعدها فأرسله الباشا. وبقى هذا الطقم في المطابخ الملكية ونسى طاهر باشا استعادته بل نسى أنه أعاره للملك. وفى يوم طلب طاهر باشا جرد المطابخ فلم يجدوا هذا الطقم. فأبلغ الباشا النيابة وأتهم الباشكاتب الذي كانت مفاتيح العهدة في حوزته. قبض على الباشكاتب وحكم عليه بالسجن وفصل من عمله.

وكان الباشكاتب صديقي وكنت أعرف أنه مظلوم فكنت أزوره في سجن الاستئناف في باب الخلق من حين لأخر. ولما أراد الله أن يظهر الحق حضر أحد طباخين الملك للصاغة ومعه طبق فضه مطلي بالذهب وعليه التاج واسم الخديوي إسماعيل وكان يرغب في بيعه. فأبلغ الصائغ قسم الجمالية فقبض على الطباخ الذي أعترف بالسرقة وحكم عليه بالسجن. وأفرج عن الباشكاتب بعد أن قضى مدة طويلة في السجن بلا ذنب. "

الفصل التاسع

*حلـــــــوان

لم يترك لي جدي لأبي كراسة ألفها في المخمل واحفظها في خزانتي وكان أبي حين يأخذنا إلى بلبيس، يتوقف عند مدخل البلدة حيث المقابر ليقرأ الفاتحة على قبر أبيه فنحذو حذوه. نذهب مرة في العام أو مرتين. أذكر بوابة الدار، بوابة خشبية عتيقة لها سقاطه. ردهة ترابية مسقوفة. حجرات شبه مهجورة في الطابق الأول. سلم خشبي متهالك. أقارب لنا يسكنون الطابق الثاني. أذكر نخلتين في فناء واسع ودار أصغر يسكنها عم أبي.

أبى يأخذنا إلى بلبيس بسيارته الهلمان السوداء، تستغرقنا الطريق ساعة. الطريق إلى بيت جدي لأمي في حلوان تستغرق وقتا مماثلا أو ربما أكثر قليل. تحملنا سيارة أجرة إلى محطة باب اللوق. نركب القطار. يتوقف في السيدة زينب، مارجرجس، المعصرة، المعادى، طرة، طرة الأسمنت، العين. مجرد أسماء في عالم طفولتنا لن تمتلئ بالمعنى إلا لاحقا. ننزل من القطار في محطته الأخيرة. على

باب المحطة رائحة الخيول وصف الحناطير. لكل منها حوذي مستقر في مقدمة العربة، في يسراه لجام وفي يمناه سوط. نركب. تقول أمي: "بيت عزام في شارع خسرو، يا أسطى لو سمحت". يرفع الحوذي سوطه، ينزل به على ظهري الحصانين. يتحركان حركة مفاجئة، ترتج العربة ثم ينتظم اهتزازها مع انتظام قوادم الحصانين. أمي على المقعد الكبير على جانبيها حاتم ووائل "الكبار" – أنا وطارق على الأريكة الصغيرة أمامها. لا نملك الالتفات وراءنا لمشاهدة الحوذي فنتابع وقع حوافر الحصانين على إسفلت الطريق منتظما يتماشى مع كركرة العجلات وقرقعة السوط يقطعها بين حين وأخر صهيل مباغت. في البيت أسماء ورقية. أسماء قمحية اللون، صغيرة الحجم، إنها جدتي. رقية، سلفتها، ممتلئة بيضاء، تحب القطط. "ست رقية" تقول أسماء. ورقية لا تنادي سلفتها إلا "بست أسماء". تتعازمان على الطعام في كل وجبة، تحافظان على الود والمسافة والألفة مع الكلفة، هكذا لأكثر من ستين عاما عاشتا فيه تحت سقف واحد. وقد يأتي للبيت صاحب حاجة يقيم فيه أسابيع أو شهورا. أم دقدق، في الصيف، تجلس متربعة على سجادة

صغيرة على عتبة السلم، لأنه "طراوة". كف بصرها أو كاد. صامتة تفكر في شيء أو آخر. تنشر رائحة البن على السلالم بمطحنة صغيرة تملؤها بين حين وآخر بحفنة من حبوب القهوة المحمصة. حين تفرغ من ذلك تعود إلى ما جمعته من بقايا أقمشة، شرائط ومزق تلفها في كرة كبيرة سوف تتهمك لاحقا في استخدامها لتصنع منها بساطا ملونا زاهيا.

- أم دقدق أحكي لي حكاية أمير اللوا
- صلى على النبي
- اللهم صلى عليه
- كان ياما كان يا سعد يا إكرام في سالف العصر و الأوان

فار وفارة. وفى يوم من ذات الأيام الفار والفارة لقوا بيضة. الفار يقول دي بيضتي والفارة تقول دي بيضتي. إتعاركوا، راحوا للقرد يحكم بالعدل ما بينهم. القرد كسر البيضة نصين وشربها وأعطى نص القشرة للفارة ونصها التاني للفارة. نعمل إيه، نعمل إيه؟ الفار والفارة قالوا نعمل مركب. نزلوا في بحر النيل وعملوا قشرة البيضة مركب. جت الفرخة، قالت:

- مركب مين السايرة النايرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفارة.

قالت:

- وأنا الفرخة الصفرا النقارة.

نطت في المركب ركبت معاهم.

جه الديك. سأل:

- مركب مين السايرة النايرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفارة والفرخة الصفرة النقّارة.

قال:

- وأنا الديك أبو الدويكة اللي بيدن ع الحيطة.

نط ركب معاهم. جه الخروف، شافهم، قال:

- مركب مين السايرة النايرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفارة والفرخة الصفرة النقّارة والديك أبو الدويكة اللي بيدن ع الحيطة. قال:

- وأنا الخروف اللي صوفه بيتباع بالفلوس.

ركب. جه الجمل، سألهم:

- مركب مين السايرة النايرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفارة والفرخة الصفرة النقارة والديك أبو الدويكة اللي بيدن ع الحيطة والخروف أبو صوف يتباع بالفلوس.

قال:

- وأنا جمل الجمال حمال الأحمال.

ونط في المركب معاهم. جه البرغوت. سألهم.

- مركب مين السايرة النايرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفارة والفرخة الصفرة النقارة والديك أبو الدويكة اللي بيدن ع الحيطة و الخروف أبو صوف بيتباع بالفلوس وجمل الجمال حمال الأحمال.

قال البرغوت:

- وأنا أمير اللوا.

نط البرغوت في المركب. طلع البرغوت مبلول وطار على
مرآته ست البدور لاقاها مولّعة البابور وبتسخن ميه عشان تستحمى.

قال:

- بردان، دفيني.

وقرب من النار عشان يدّفى، طق مات. مرآته حلت شعورها

شافها الغراب، سألها:

- مال ست البدور حالة الشعور؟

فردت عليه مرات البرغوت:

- ست البدور حالة الشعور أمير اللوا وقع في النار بقى شوا!!

قال:

- وأنا الغراب عَرَنْدَليش!

طار الغراب ع النخلة، سألته:

- مال الغراب عَرَنْدَليش؟

رد عليها:

- الغراب عَرَنْدَليش، ست البدور حالّة الشعور
أمير اللوا وقع في النار.

بقى شوا!!

النخلة قالت

- وأنا النخلة قراقوش!

المّيه شافت النخلة، سألتها:

- مال النخلة قراقوش؟

ردت النخلة:

- النخلة قراقوش، والغراب عَرَنْدَليش، ست البدور
حالّة

الشعور أمير اللوا وقع في النار بقى شوا

المّية قالت:

- وأنا المّيه قطعون!

تواصل زكية أم دقدق حكايتها، أتابعها أو اقفز فجأة
لأشارك في
اللعب مع بقية الأولاد والبنات.

لا أذكر جدي في هذا البيت، بيته. رأيته فيه ونسيت، ربما. عندما كبرت قليلا كان سافر إلى الهند ليصبح أول

سفير مصري فيها بعد استقلالها. والأرجح أنه عين في هذا المنصب معارا من الجامعة لأنه كان أستاذا للغات الشرقية يتقن اللغة الأردية فضلا عن الفارسية وهي تخصصه الأول.

توفي جدي وأنا في الحادية عشرة من عمري. الصورة الأكثر وضوحا له في مخيلتي، ربما في العام السباق مباشرة على وفاته.

أجازة صيف. بيت أبي قير يملكه عم جدي وتقيم فيه صيفا ابنته وزوجها-أخو جدي- وأولادهما. شرفة خشبية واسعة تشرف على أرض مزروعة بالنخيل، ومن وراء النخيل البحر. الوقت ليلا لا نرى الشباك الكبيرة المثبتة في جذوع النخيل لاصطياد السمان المهاجر. حلقة من الأطفال المتربيعن على الأرض ينصتون إلى رجل يجلس بينهم، فارع الطول، وسيم الملامح، قمحي اللون، له شارب اكتسى ببعض الشيب. يحكي لهم بسلاسة وعذوبة عن أرنباد. (هل كانت قصة من " كليلة ودمنة" أم قصة نسجها على منوالها). حكى طويلا ولما غلب النوم واحدا من الصغار قال غدا أكمل لكم الحكاية. هل أكملها؟ لا أذكر. أذكر خالتي واقفة في هذه الشرفة تقول أنها لا تصدق أنها ستبلغ الثلاثين، أتطلع

إليها فأرى الثلاثين بعيدة وجميلة كضوء النجوم في السماء. رحل جدي وهو في الواحد و الستين من عمره. لم أسمعه أبدا ينشد شعر المتنبي. ولم أكن أنا التي قلت لتميم أنه حقق شعره وكتب عنه. وجد تميم الكتاب في المكتبة، قرأه ثم نقله إلى حجرته. تميم يكتب الشعر كأبيه، وجدي أيضا كان ينظم الشعر ولكنه كان أستاذا جامعيا. أعرف معنى أن يكون المرء مدرسا، كأن في المهنة شيئا يقيد الروح. لا أتخيل جدي يصيح كالمسكون بقصيدة تملكته، لا أتخيله إلا رزينا هادئا. هل كان دائما كذلك أم أن أنني لم أعرفه إلا بعد أن أصبح جدا؟ سألت أمي. قالت كان يترنم بالشعر. أذكره وهو يتريض بالمشي أمام البيت، وهو يحلق ذقنه كل صباح، يترنم بالشعر بصوت خافت كأنه يغنيه.

النوبة في بيتنا تبدأ بتميم، يلقي القصيدة واقفا، صائحا، متمايلا، طائر الذراعين تؤشر يداه وتتشكل أصابع كفيه في كل اتجاه:

أُريـــدُ مـــن زمني ذا أن يُبَلِّغَنِـــي

ما ليس يَبْلُغُهُ مـــن نَفْسه الزمـــنُ

تنتقل النوبة إلى أبيه:

لا تَلْقَ دَهْــرَكَ إلا غَــيْرَ مُكْترِثٍ

مـــا دامَ يَصْحَبُ فيهِ رُوحَك البَدَنُ

فما يُديمُ سُــرورُ ما سُررْتَ بِــهِ

ولا يــَرُدُّ عليكَ الفَائـــِتَ الحَزَنُ

يلتقيان في صوت واحد:

تَحَمَّلُوا. حَمَلَتْكُمْ كُــلُّ نَاجِيَـــــة

فَكُــلُّ بَيْنٍ عَلَــَّى اليَــوْمَ مُؤتَمَــنُ

ما في هَوَادِجِكُمْ من مُهْجَتي عَوَضُ

إن مِتُّ شَوقـــاً، ولا فيها لهـــا ثَمَنُ

مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ العِشْقِ أَنَّهُمـــــو

هَوَوْا وَما عَرَفــوا الدنيا وما فَطِنُوا

تَفْـنَى عُيونُهُمو دَمْعـــاً وأنْفُسُــهُمْ

فــي إثْرِ كــلِّ قَبــيحٍ وَجْهُــهُ حَسَنُ

كم قد قُتِلْتُ وكم قَد مِتُّ عِنْدَكمـــو

ثُمَّ انْتَفَضْــــتُ فَزالَ القَبْرُ والكَفَنُ

قد كان شاهَدَ دفني قبل قولِهمـــو

جماعةُ ثــم مـــاتُوا قبلَ من دَفَنُــوا

ما كلُّ ما يتمنَّى المَرْءُ يُدْرِكُــــهُ

تَجْرِي الريـــاحُ بما لاَ تشتهي السُفُنُ

يعلو الصوت طَرِبا وممسوسا وضاربا عرض الحائط بجار نائم أو بامرأة، تحب الشعر، منهمكة في هذه اللحظة في غيره من الأمور. لا يسمحان بانفرادهما بمتعة الأبيات. يريدان انتباها والتفاتها ومشاركتها في النوبة. المرأة جالسة على مقعدها. تتطلع إليهما:الولد الابن والولد الأب، كبيران الآن، يقفان معا في حيز القصيدة، يتواصلان. الأبيات غالبا للمتنبي. قد ينشدان لسواه، لأبي تمام أو لامريء القيس أو لآخرين ولكنهما في نهاية المطاف يعودان لأحمد حسين:

تميم:

نُعِـــدُّ المَشْـــرَفيَّةَ والعَوالــــــي

وتقتـــلُنا المَنُـــونُ بـــــلا قتـــالِ

مُريد:

ونَـــرْتَبِطُ السَوابِـــقَ مُقْـــرَبَـــاتٍ

ومـــا يُنْجِينَ من خَبَبِ اللَّيالي

معا:

ومـــن لـــم يعشـــقِ الدُنيـــا قديمـــاً؟
ولكن لا سبيلَ إلـــى الوصـــــــالِ
نصيبُكَ في حياتِكَ من حبيـــــــبٍ
نصيبُكَ في منامِكَ مـــن خَيَـــالِ
رماني الدهـــــــــــرُ بالارزاء حتى
فُؤادي فـــــي غِشَاءٍ مـــن نِبالِ
فَصِـــرْتُ إذا أصابَتِني سِهـــــامُ
تَكَسَّرَتِ النِصَـــــالُ على النَصَالِ
وهَانَ فما أُبَالِي بالرَّزايـــــــــــا
لأنِّي ما انْتَفَعْتُ بأن أُبَالِي

" يخرب بيته احمد حسين!" تعليق أخير يشي بختام النوبة. يذهبمُريد إلى المطبخ لإعداد كوب من القهوة ولكن تميم يبقى واقفا أمامي يطلب منى أن اسمع:"هذين البيتين فقط!":

أَوَدُّ من الأيام ما لا تَوَدُّهُ
وَأَشْكُو إليها بَيْنَنَـــــا وَهْـــيَ جُنْدُهُ
أَبَى خُلُقُ الدنيا حَبِيبـــــــاً تُدِيمُهُ
فماَ طَلَبِي منها حبيبـــــاً تَرُدُّهُ

يأتي صوتمُريد من المطبخ:

عزيزٌ آسيً من داؤهُ الحَـــدَقُ النُّجْلُ

عَيَاءُ بِهِ مات المُحبــــُّـــونَ من قَبْلُ

فَمَن شَاءَ فَلْيَنْظُرْ إليَّ فمنظـــــــري

نذيرٌ إلى من ظنَّ أنَّ الهـــوى سَهْلُ

يعود مُريد بقهوته. لم تنته النوبة. قصيدة جديدة يلقيانها معا:

وفاؤكما كالرَبْعِ، أشجاهُ طاسمُـــهْ،

بأن تُسْعِدا والدمعُ أشفاهُ ساجِمُــــهْ

وما أناْ إلا عاشقٌ. كلُّ عاشـــــقٍ

أعَــقُّ خـــــليلَيْه الصَّفِيَّيْنِ لائمُـــهْ

وقد يَتَزيّا بالهـــوى غيرُ أهلِـــــه

ويستَصْحبُ الإنسانُ مـــن لا يلائِمُهْ

بَليتُ بِلَى الأطلالِ إن لـــم اقفْ بها

وقوفَ شحيحٍ ضاع في التُرْبِ خاتِمُهْ

كئيباً تَوَقَّاني العواذِلُ في الهـــوى

كما يَتَوَقَّى رَيِّضَ الخَيْــــلِ حازِمُهْ

ثم

وكُنْتُ إذا يَمَّمْتُ أرضاً بعيـــــدة

سَرَيْتُ فَكُنْتُ السِّــرَّ والليلُ كاتِمُهْ

هل كان المنشد اليوناني القديم الذي خصه أفلاطون بحواريه من حواريّاته ينشد الشعر هكذا؟ يأتي الشعر إلهاما من الآلهة- هذا ما يقوله أفلاطون- فتخلق القصيدة مجالها المغناطيسي تنتقل حلقاته الجاذبة من أبياتها إلى منشدها ومنه إلى المستمعين. ولكن هل كان جدي الذي وهب سنوات طويلة من عمره في تحقيق ودراسة شعر المتنبي مجذوبا في حضرة قصائده كمُريد وتميم أم أنه أحب على طريقته الخاصة والمختلفة أيضا؟ في مقدمته لديوان أبي الطيب المتنبي الذي حققه، كتب جدي:

"كنت في صباي عنيت بأبي الطيب، وكتبت رسالة في أخباره و أشعاره. فجددت العهد بالرجل الذي أكبره. وأخذت أراجع المخطوطات القيمة في دار الكتب المصرية وأقيس بعضها ببعض. ثم دعيت إلى العراق... وأخرجت هناك كتابا في تاريخ المتنبي وأدبه. حرصا على المشاركة في الاحتفال

الذي عم البلاد العربية ما بين شواطئ دجله وشواطئ المحيط الأطلسي.

وكان الاحتفال الأكبر في دمشق واجتمعت وفود البلاد العربية في صيف أربع وخمسين وثلاثمائة وألف، وأُلقيت المحاضرات في جامعة دمشق. وكان من جَدّي أن شاركت في هذا الاحتفال كذلك.

ولما عدت إلى القاهرة المعزية اقترحت على قسم اللغة العربية من كلية الآداب أن يكرم أبا الطيب بإخراج نسخة صحيحة جامعة من ديوانه تكون عمدة للباحثين في شعره, وحجة للمدققين في روايته. فلقي اقتراحي قبولا، ووكل إلى إخراج هذه النسخة التي اقترحت. وعُهد إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر في طبع الكتاب، واستعدت اللجنة للطبع، وقيل لي هات ما عندك فعكفت على هذا العمل الشاق المديد بضع سنين".

نقّب عبد الوهاب عزّام عن آثار أبي الطيب في خزائن الكتب في القاهرة، وبغداد ودمشق واسطنبول وباريس. قارن بين مختلف النسخ واستمعن شروحات ابن جني والواحدي والمعرّي والعكبري لتصحيح المتن ومضاهاة الروايات

والتثبُّت منها وانتهى بتحقيق الديوان. فى تذييل للمقدمة التي وضعها للكتاب يقول:"وكان الفراغ من تحريره بجزيرة الروضة من القاهرة المعزية ضحوة يوم الاثنين خامس شهر صفر الخير من شهور سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة". يحمل الكتاب المطبوع هذا التاريخ الهجري نفسه والتاريخ الميلادي:١٩٤٤ قدم جدي تسع سنوات من عمره في خدمة تحقيق الديوان.

عند صدور الديوان كان عبد الوهاب عزّام في السابعة والأربعين، أستاذا في الأدب العربي والآداب الشرقية في جامعة فؤاد الأول (القاهرة لاحقا)، نشر ترجمته عن الفارسية " للشهنامة"، وحقق " كليلة ودمنة"، وحقق وألّف عددا من الكتب. وكان له ست بنات وثلاثة أحفاد: زينب وفاطمة من بثينة أكبر بناته، وطارق من ابنته التالية ميّ، أمي.

في الحادية والعشرين تزوج عبد الوهاب من ابنة عمه، أسماء، صبية لم تبلغ الخامسة عشرة، تعلمت مبادئ القراءة على يد شيخ استقدمه أبوها لتعليمها القرآن. (هل تأخرت أسماء في الزواج أم اعتُبر الأمر من مستجدات زمانها؟

تزوجت أمها وهي في الحادية عشرة وعاشت لترى حفيدتها ليس لأنها عمّرت طويلا بل لأنها أصبحت جدة قبل أن تبلغ الثلاثين). أثناء ثورة١٩١٩ كانت أسماء انتقلت من بيت أبيها إلى بيت عمها حيث يقيم ابن عمها، العريس. تحكي جدتي: "كنا ننام بكامل ملابسنا خوفا من مداهمة الإنجليز للبيت." لماذا يخافون من مداهمة الإنجليز للبيت؟ هل شارك جدي في الثورة؟ لا اعرف، ولكن بلدته الشوبَك والبدرشين المرتبطة بالشوبك بعلاقات الجيرة والقرابة والنسب كانت لهما حكاية مع الثورة. يكتب عبد الرحمن الرافعي:

" وأبرز الفظائع ما وقع في قرية العزيزيّة والبدرشين (بمركز الجيزة) ونزلة الشوبَك (مركز العياط) وقد سجلت في محاضر رسمية، واحتج عليها مجلس مديرية الجيزة احتجاجا تاريخيا، وخلاصتها انه في ٢٥مارس ١٩١٩، في نحو الساعة الرابعة بعد منتصف الليل، والناس نيام، انقض نحو مائتي بريطاني مدجّجين بالسلاح على بلدتي العزيزيّة و البدرشين، كل فريق أحاط بإحدى البلدتين". ويواصل الرافعي روايته فيصف كيف اقتحم الجنود القريتين وتهجّموا على أهلها رجالا ونساء ثم أخرجوهم من منازلهم وأضرموا فيها

النار "وكان كل من حاول من الأهلين إطفاء الحريق يطلق عليه الجنود الرصاص فيردونه قتيلا."

ثم ينتقل الرافعي إلى ذكر ما حدث في الشوبّك:

"ووقع ببلدة الشوبّك مركز العيّاط يوم ٣٠ مارس فظائع تزيد عما حل بالعزيزيّة والبدرشين، فقد جاءها الجند بعد ظهر اليوم المذكور في قطار مسلح، ونزلت منه قوة مدججة بالسلاح فاقتحموا البلدة ومنازلها، وسلبوا منها ما وصلت إليه أيديهم من حلى ومال ودواجن، واعتدوا على أعراض النساء، وقتلوا عبد التواب عبد المقصود حين كان يدافع عن عرض زوجته، وكذلك فعلوا مع شيخ الخفراء، وقتلت زوجة سليمان محمد الفولي وهى تدافع عن عرضها، ولما رأوا مقاومة الأهالي أخذوا يطلقون النار جزافا فقتل من الأهالي واحد وعشرون، وجرح اثنا عشر، وأشعلوا النار في منازل البلدة، فدمرت مائة وأربعين منزلا، والبلدة لا يزيد عدد منازلها عن مائتين وعشرة، ومن أفظع ما حدث لهذه البلدة، أنهم قبضوا على أحد مشايخها عبد الغني إبراهيم طلبة وابنه سعيد وخفاجه مرزوق من أهالي البلد، ودفنوهم في الأرض

حتى أنصاف أجسامهم-بدعوى التحقيق معهم- ثم قتلوهم رميا بالرصاص وهم على هذا الحالة."

ويلحق عبد الرحمن الرافعي بروايته الرواية المضادة تحت عنوان: "بلاغ السلطة العسكرية"، يقول:"وكل ما أذاعته السلطة العسكرية عن هذه الفظائع أنها قالت في بلاغ ١ إبريل سنة ١٩١٩" أذيعت أخبار كاذبة فيما يتعلق بحوادث يقال أنها وقعت في العزيزيّة، وقد طلب إرسال بلاغ عن الحقيقة، فأبلغ الضابط المتولي القيادة هناك أنه وردت أنباء تتضمن أن القرويين في العزيزيّة والبدرشين اشتهروا بإيواء البدو المسلحين، وقد أجرى البحث في القريتين بناء على ذلك يوم ٢٦مارس، فوجدت في العزيزيّة كمية من الأسلحة، وقد حاول المشاغبون الهرب أثناء البحث بالقفز من سطح لآخر، فأفضى ذلك إلى سقوط السطح تحت ثقلهم، وقد سبب سقوط الأسطح فوق النيران أو مصابيح الزيت في المنازل إلى نشوب بعض الحرائق في القرية".

ويصف البلاغ ما حدث في الشوبك على النحو التالي: "وجد قطار كان يشتغل بأعمال الإصلاح في أثناء سيره جنوبا بعد ظهر يوم ٣٠ مارس جماعة من القرويين يعبثون

بالخط الحديدي في جوار الشوبك، وقد قتل خمسة من الذين كانوا يشتغلون بتدمير الخط، وأطلقت النيران بعدئذ على القطار من القرية فأخرج الجنود أهلها. "وفى نهاية تقريره يقتبس الرافعي نص كلمات أعضاء مجلس مديرية الجيزة ومنها ما قاله محمد أفندي منصور عطاالله الذي سجل الاعتراض التالي:

"حتى اليوم الثالث من حادثة الشوبّك كان الأهالي يجدون جثث قتلاهم خلال مزارع القمح أو طافية على وجه الماء في الترع، وان ما أعدم من المواشي من قذائف المدافع ورصاص البنادق التي أطلقها بعض رجال الجيش الإنجليزي يفوق كل تقدير، أما حاصلات البلد من الذرة التي كانت تجفّف بحرارة الشمس فوق سطح المنازل فهذه قد رشها الجنود البريطانيون بالبنزين وأحرقوها فترتبت على ذلك خسارة عظمى هي جميع حاصلات الأهالي. "

لم يصب جدي ما أصاب أهله في الشوبّك. لم يضرم الإنجليز النار في منزله ولا حرقوا زاد الأسرة وقتلوا مواشيها. داهم الإنجليز البيت فوجدوا مسدسا، قبض على جدي بتهمة حيازة سلاح ثم أفرج عنه وقد برّأته شهادة

صديق ليبي. ادعى الدوكالي ملكيته للمسدس ولما كانت ليبيا مستعمرة إيطالية حظي الدوكالي بامتياز الرعايا الأجانب حيث حيازة سلاح لا توقع تحت طائلة القانون. ورغم تلك الواقعة لا أعتقد أن جدي كان متصدّرا في النشاط السياسي. كان دارسا مكبّا على بحوثه وأوراقه. يذهب إلى الجامعة. يدرّس طلابه. يلتقي بنظرائه من الأساتذة والكتاب. يعود إلى بيته في حلوان أو المنيل، يدلّل بناته ثم يدخل إلى غرفة مكتبه، يواصل درسه. جلوسه للقراءة والكتابة مشهد يومي أليف عاشته أمي ولم أره إلا بعين الخيال.

في طفولتي لم يكن جدّي سوى جدّي: جدّ عذب وسيم فارع الطول، يزيده طربوشه وصغر حجمي طولا. يبتسم، يدلّل، يحمل لنا الحلوى ويرسل فُطرة رمضان في آخر ليلة من ليالي شعبان. نفرح لزيارته أو نستعد للذهاب إلى المطار لاستقباله عند عودته من الهند. نتحمم ونرتدي أحلى ملابسنا ونغنّي في الطريق كأننا ذاهبون إلى العيد. ونغنّي في طريق العودة أيضا لأننا لا نترك العيد ورائنا بل نحمله معنا في السيارة أو نلازم السيارة التي تحمله بالسير خلفها أو أمامها.

الفصل العاشر

توفى جدي في يناير عام ١٩٥٩بعد أربع سنوات ونصف من وفاته، التحقت بكلية الآداب جامعة القاهرة. لم يكن حاضرا في مخيّلتي وأنا أدخل الحرم الجامعي ومبنى كلية الآداب وأنتقل بين قاعات وممرّات قضى فيها سنوات طويلة من حياته. غاب في الذاكرة، ربما، أو غيّبته تطلّعات الصبية إلى فروع أخرى من المعرفة. حتى تخرجي من الجامعة لم أكن قرأت أيا من الكتب التي ألّفها أو ترجمها أو حقّقها. أنتبه الآن لمسار معكوس وطريف أيضا، أحببت جدي وأحببت الجامعة وبقيت حكاية كل منهما قائمة بذاتها ومنفصلة عن الأخرى.

درست في جامعة القاهرة ولكني لم أُعيّن للعمل فيها بل في جامعة عين شمس. لماذا؟ لأن رئيس القسم آنذاك، الدكتور رشاد رشدي، قال لا أريد هذه البنت. فذهبت البنت للعمل في مكان آخر.

هل كان الطريق طويلا أم خاطفا مرّ في لمحة بصر؟

في البدء صبية تدخل قاعة درس حيث طلاب يقاربونها العمر وإن بدت أصغر منهم سنا. أتمت الواحد والعشرين، تبدو في السابعة عشرة وتقدر رغم ذلك على توصيل القليل الذي لديها وخلق لحظة تواصل تتعلم منها بقدر ما يتعلمون. تُدرِّس اللغة الإنجليزية لطلاب الأقسام الأخرى: أقسام اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والاجتماع. بعد سنوات قليلة تدرِّس الترجمة ومقرر النقد الأدبي لطلاب قسمها. تدريس الشعر جاء لاحقا. حصلت على الدكتوراه. تقترب الآن من الثلاثين. تتجاوزها إلى الأربعين فالخمسين. تتبدّل وجوه الطلاب. قاعة الدرس لا تتبدّل.

آداب سفلي: تنزل بضع درجات تحت مستوى الأرض، باب خشبي صغير عن يمينها يفضي إلى مدرج كبير. معتم نسبيا رغم مصابيح "النيون" المضاءة بالنهار. منصّة خشبية سقط طلاؤها منذ سنوات بعيدة ولم يعد لألواحها سوى لون كالح أقرب إلى لون الرماد. على المنصة مكتب المحاضر، مكتبها، أسفلها مقاعد الطلاب: صفوف من الدكك الخشبية المثبتة فيها ألواح الكتابة. أزيز المراوح المعلقة- ست عشرة مثبته في السقف- تختلط بصخب طلاب خارج المدرّج

يصعدون إلى آداب علوي أو يهبطون منه بعد انتهائهم من محاضرة ما. يفاجئنا عصفور صغير ضلّ طريقه، نصف دقيقة، يهرب من النافذة. لا تهرب منها القصيدة، غالبا. كأنها تفرش لها شباكها، كأنها تحترف الصيد. فقط في البداية. ثم تُقبل القصيدة. يمدّ الطلاب أيديهم. يلمسون الرعشة في جسمها. يتأملون ضوء عينيها ورمشة الجفنين. غزال شارد؟ كيف ملكناه إذن؟ كيف استقر قريبا إلى هذا الحد ووديعا إلى هذا الحد؟ متى غاب المدرّج؟ لا نرى الآن سوى ملاح رث يمسك فجأة بيد شاب أتى للعرس بريئا من الحكاية. يحكيها الملاح القديم:الطائر البحري القتيل. السفينة المستقرة على صفحة ساكنة: نقش سفينة في صورة بحر. شمس وقمر. امرأة تلعب النرد، تقهقه. أجساد الملاحين الموتى. حلوق من رماد. عطش. عرس صاخب وملاح رثّ عتيق وولد وحكاية.

طلاب الفرقة الثالثة يحبّون مقرر الشعر الرومانسي. في الفرقة الرابعة يجفلون من مقرر النقد الأدبي، يفهمون التجريد بمشقة. يتمثّلونه بجهد مضاعف. لا طائر بحريًا قتيًلا يثير الخوف والخيال، لا ريح غريبة تربط بين دورات الطبيعة

وعنفوان الثورة، لا شاعر ممسوسًا كالأنبياء يقلب الهامش إلى متن ويدفع بالمتن المتسلط إلى كُناسة في الزاوية. يعود المُدرّج إلى مكانه: الضوء الليموني لمصابيح النيون. الباب الخشبي الصغير. المراوح الكئيبة- توقفها فنختنق، نشغّلها فتصدر أزيزا يشغلنا بالسؤال: ترى هل تسقط إحدى هذه المراوح الآن على رؤوسنا، ترى من تصيب؟ولكن آداب سفلي على علاّته يبدو أحيانا مطلبا عصيّ المنال: "المُدرّج مشغول. أعطيناه لطلاب قسم اللغة العربية. عددهم اكبر" يقول الموظف المسئول عن الجداول. ننحشر في قاعة صغيرة. الأكثر حظا يستقرون على الدكك الخشبية، الأقل حظا يفترشون الأرض أو يقفون مستندين إلى الجدران وباب القاعة، وقد يدبّر بعض الشباب أمرهم فيجلس على حافة النافذة.

نفس الفرقة. نفس الطلاب. مُدرّج شفيق غربال حيث تناقش الرسائل ويحاضر الأساتذة الزوار. واسع. نظيف. نسبيا. غطاء من الجوخ الأخضر يغطي مكتب المحاضر. مكبر صوت لا يضطرني لسؤال هاملت: أكون أو لا أكون: أستخدمه بخرفشاته أو أحاضر صياحا ولا يصل الصوت إلى

الصف الأخير من الطلاب؟ مقرر الأدب الأمريكي الأسود. هل هو المُدرّج يُسقط عن وجوه الأولاد والبنات توتر المكان القبيح أو الخانق أم هي المعرفة بمساحة من تجربة يتواصلون معها لأنها تخصهم؟ القهر يخصّهم. تعكس ذلك لمعة العيون والأسئلة والرغبة في معرفة المزيد. "أحيانا أشعر كطفل لا أم له/ بعيدا جدا عن بيتي "تقول الأغنية الشعبية للعبيد في المزارع. يحبونها. ينصتون بشغف لأخبار خط الهرب المعروف باسم "الخط السري للسكة الحديد". لا سكة حديد، لا قطارات، لا ركاب بل شفرات لتنظيم الهرب من الجنوب إلى الشمال. أساطير العبيد، أدبهم الشعبي، الحرب الأهلية، وثيقة تحريرهم، القصائد والقصص والمقالات تستهويهم. أصحح أوراق الامتحان في نهاية الفصل الدراسي. تؤكد لي الإجابات صحة ما التقطته أثناء المحاضرات:القهر ومسعى التحرر أكثر الأوتار رهافة في وجدان هذا الجيل. ثلاثون عاما، فارق العمر بني وبينهم، لم يتغير من الأمر شيئا!

لم لا أكتب سوى هذه النتف من حياتي في الجامعة؟ كسل أم قصور أم مراوغة؟ أم حكمة تتشبث بمسافة تجعل

الكتابة ممكنة ما دامت تجربة السنوات الثلاثين التي قضيتها فيها- للدقة هي إحدى وثلاثون يضاف إليها سنوات الدراسة الأربع في جامعة القاهرة- تبدو لي الآن كبحر يمكن أن أغرق فيه. أي كاتب استطاع أن يضع كل عمره في نص واحد؟

ولكني أريد أن أحكي عن واقعة المغسلة:

استوقفني في مدخل الكلية- مدخلها الرئيسي المفضي إلى باب المكتبة- هيكل مشيّد من المعدن والزجاج. قاعة صغيرة. خلف الزجاج سترات وملابس معلّقة. سيدة تجلس مبتسمة وراء مكتب من الصاج المطلي باللون الرمادي. لم أفهم. دخلت. سألت. قالت السيدة:

- محل "داري كلين" افتتحاه هذا الأسبوع.
- مغسلة؟
- حضرتك دكتورة في الكلية؟
- نعم.
- ممكن سيادتك تأتي لنا بغسيلك. نحن نقوم بالغسيل والكيّ والتنظيف الجاف ولدينا خدمة مستعجلة و أسعارنا اقتصادية.

نسيت أن هناك مصعدا وأن قسمنا بالطابق الرابع. حملتني قدماي إلى السلم فصعدت. قال لي الساعي:

- صباح الخير يا دكتورة.

- صباح الخير. ماذا جرى؟!

لم يفهم. تطلع إلي

- المغسلة في الطابق الأول؟

ابتسم

- العميد أجّر مدخل الكلية لمحل غسيل.

استدرت ونزلت إلى الطابق الثاني حيث مكتب العميد. لم يكن في مكتبه. ذهبت إلى وكيل الكلية.

- ماذا يحدث؟

لمن يفهم. فصّلت سؤالي. ضحك

-آه، المغسلة! أردنا زيادة دخل الكلية وتحديدا دخل رعاية الشباب. أجّرنا المدخل لمغسلة والقاعة الكبيرة التي في المبنى الآخر، القاعة التي نستخدمها لجنة لامتحان المكفوفين. قلنا نستفيد منها في غير أوقات الامتحانات.

- لكن يا دكتور هذه مهزلة!

ابتسم بوّد. قال

- لماذا مهزلة؟ أنت يا دكتورة درست في الخارج وتعرفين ولابد أنك رأيت هناك بقالة داخل الجامعة وهناك. . .

- كان في الجامعة إلى درست فيها محل كبير يبيع من الكراريس والكتب إلى الأمشاط ومعجون الأسنان، ولكن قاطعني:

- عليك نور، ليس هناك ما يزعج!

- يا دكتور لما الجامعة تكون كبيرة، مساحتها واسعة ومترامية وفيه مبنى خاص وأحيانا مباني للنشاطات وللخدمات الطلابية ممكن يكون فيها محلات لخدمات من هذا النوع. جامعتنا يا دكتور ضاقت بطلابها. في المحاضرة يجلس الطلاب على الأرض أو يسمعون الدرس واقفين. لا توجد في الجامعة كافتيريا للطلاب ولا للأساتذة والمكتبة مخزن كتب وليست مكتبة. وأحيانا لو فرقتين طالعين من المحاضرة في نفس الوقت يبدو المكان كأنه يوم الحشر. ثم إن وضع مغسلة في مدخل الباب الرئيسي للكلية أمام باب المكتبة أمر صادم، شديد القبح!

غادرت مكتب الوكيل إلى المبنى الآخر. كانت المبيعات، أحذية وجوارب وقمصان، معلقة خارج القاعة. دخلت: البضاعة متنوعة: توابل وتمر وفول سوداني وأشرطة كاسيت ينبعث صوت واحد منها متجاوزا القاعة إلى خارجها. شاهدت بأم عيني. انصرفت إلى قاعة الدرس.

كانت الجلسة صاخبة. لم يستطع البعض منع نفسه من التنكيت والسخرية، البعض الآخر كان غاضبا. دافع العميد مطوّلا عن قراره. ختم كلمته قائلا: "أردت تقديم خدمة للكلية ولأعضاء هيئة التدريس!" لم نشكره على نواياه الطيبة. لم يقل شيئا عن جحودنا وإن بدت على وجهه علامات الأسى والدهشة وأمين المجلس يسجّل قرارنا بإزالة المغسلة والمحل، فورا.

ذهب العميد وجاء غيره ثم حل ثالث بالتعيين وقد ألغيت انتخابات العمادة، هكذا بقرار وزاري لم نعرف به قبل غيرنا بل قرأناه في الصحف عملا بمبدأ المساواة بين كافة المواطنين. وأشهد أن أحدا من العمداء منتخبين أو معينين بعد ذلك لم تراوده فكرة إعادة تأجير مدخل الكلية لمغسلة.

الفصل الحادي عشر

لم تفكر شجر إلا أنها هدية شخصية أكرمها بها جدها قبل رحيله لفتها في قطعة من المخمل وحفظتها. لم يفارقها شعور مبهم بأن للهدية معنى ما أكبر مما تحيط به. حصلت على الدكتوراه وتدرّجت في سلم الجامعة من مدرس إلى أستاذ مساعد ثم أخيرا أستاذ. في اليوم الذي اطّلعت فيه على تقرير اللجنة العلمية بترقيتها إلى درجة أستاذ عادت إلى البيت وفتحت خزانتها. أخرجت اللفافة المخملية، فتحتها، أمسكت الكراسة بين يديها. تملّكها شعور طاغ بأن علاقة ما تربط هذه الكراسة، هدية جدها، وكرسي الأستاذية الذي حصلت عليه. لفّت الكراسة في غلافها المخملي وأعادتها إلى مكانها.

بدا لها وهى تغادر مكتب رئيس الجامعة في ذلك اليوم من عام ١٩٧٢ أنها مهددة بالطرد. لم تُطرد. هل تقول إنها محظوظة لاستطاعتها الاحتفاظ بموقعها أم تقول إنها لم تنل سوى ما تستحق لأنها جدّت واجتهدت؟ ولكنها إذ تتطلع حولها ترى أن حكمة "من جدّ وجد، ومن زرع حصد "لم تعد سوى عبارة ساذجة تزين كتب القراءة الرشيدة لأطفال الأول

الابتدائي. يكبرون قليلا ليكتشفوا أنها لم تكن سوى خدعة من الخدع المتعددة الذي تحفل بها كتب مدرسية ألّفها رجال طيبون أو بلهاء أو محترفون للكذب. كيف زرعت وحصدت دون أن يسقط على رأسها حجر يقتلها أو يتركها مُعوقة لعمرها الباقي. محظوظة، لاشك، لأن هذا الأمر، أقصد سقوط حجر على صبي أو صبية طالعة، كاد أن يصبح القاعدة حتى بدا من طبائع الأمور.

الصغير بحاجة لقدر من الحماية، يحتاج من يأخذ بيده ويرعاه ويتعهده كأي عود أخضر تهدده هشاشته في المبتدى. درس من دروس العمر التقطته وهى صبية يرعاها الآخرون والتزمت به حين تقدم العمر بها فتعّين عليها أن ترعى طلابها. بعد أقل من شهرين من لقائها برئيس الجامعة استكملت خطة مفصّلة للبحث وقائمة بالمصادر والمراجع المقترحة، وطلب باسم عميد الكلية لتسجيل الرسالة. قدمت الأوراق إلى أستاذها. قرأها. أشّر عليها: "أوافق على الإشراف". وقّع. في الأسبوع التالي عرض الخطة على مجلس القسم ثم أخذت الأوراق مسارها المعتاد إلى مجلس الكلية فمجلس الجامعة.

انهمكت في البحث ونسيت. بد أنها نسيت. أنجزت الرسالة. لم تنتبه، لا وقت المناقشة ولا لحظة إعلان حصولها على الدرجة العلمية، ولا في السنوات التالية، لم تنتبه أنها مدينة بمشروع رسالتها للقائها برئيس الجامعة وربما أيضا للخوف، خوف دفعها إلى الإسراع في إنجاز العمل وإتقانه لتثبيت علاقتها بالمكان. تتأمل شجر الصبية وهى تهبط على الدرج بعد لقائها برئيس الجامعة:غاضبة، يحكمها العناد والرغبة في تأكيد فكرتها برد مُفْحِمٍ بليغ يكبّرها ويصغّر غريمها، بدا غريما. "خائفة؟" لم تطرح الصغيرة السؤال على نفسها ولو طرحه أحد عليها لبدا لها السؤال جائرا وجارحا وغبيا. ولكنها، ترجّح شجر الآن، كانت خائفة.

في سبتمبر١٩٨١، حين صدر قرار طردها من الجامعة، لم تفزع، لم تستشعر حاجة لكتابة رسائل، لم يكن في القرار ما يهدّد بتحويل مجرى حياتها.

في السجن متّسع لتأمل مفردات العمر المبعثرة في زحمة المشاغل اليومية. في السجن متّسع، لأن النهارات، والليالي أيضا، تأخذ وقتها: لكل ساعة حيّز تقطعه في أناة، لا تزاحمها عليه الساعة التالية. ساعات ريفية صابرة لا تعرف

الركض المحموم ولا رنين التليفونات المتلاحقة ولا التدافع المضغوط في شوارع المدينة وأتوبيساتها المزدحمة وإيقاعاتها المُشعّثة. تتأمل علاقتها بالجامعة، بطلابها. الأولاد والبنات، في قاعة الدرس وأيضا تلك العلاقة الخاصة: تبدأ على استحياء. تتلمس طريقها. متوجسة؟ ربما. ببطء وتدريجيا تعرف طريقها، تجري فيه، كنهر؟ كنهر أحيانا، وأحيانا كنويهر حييّ يجري بلا صخب وإن شق طريقه بثبات. تستعرضهم بالواحدة والواحد، البنات والأولاد الذين تعهدتهم بشكل فردي وأشرفت على رسائلهم. معرفة تختلف، خارج قاعة الدرس، تمتد إلى البيت والبلد البعيد حيث تذهب البنت أو الولد مبعوثين للدراسة. تبدأ على جانبي ذلك المكتب الصغير في قسم التاريخ. الفكرة المشعّثة. الرغبة المندفعة وراء بحث كبير يضع البحر في زجاجة. تقول "ولكن..." تهدئ الحلم قليلا أو كثيرا. الآن خطة البحث. قائمة المراجع. ورشة العمل اليومي وقلق المشاكل الصغيرة. ثم الرسالة المغلّفة والرداء الاسود والتصفيق ولحظة الزهو المشترك. قاعة الدرس تختلف: تجهل الأسماء غالبا. تخلط بين طلاب الفرقة الثالثة والفرقة الرابعة. تحيّي أحدهم بحرارة ظنا منها

أنه تخرّج قبل سنوات وجاء لزيارة القسم، يبتسم الولد، تكتشف أنه في الفرقة الرابعة حضر محاضرة اليوم السابق وجاء يستفسر عن أمر ما. العكس أحيانا: "أنت في الفرقة الثالثة، أليس كذلك؟ "تضحك البنت." لا يا دكتورة. تخرجت من ثلاث سنوات وجئت لرؤيتك" دقائق الارتباك ثم يسقط الحرج. الأولاد والبنات مرساة؟ شراع؟ دفة؟ بوصلة؟ خشب السفينة يطفو بها ويحميها من الغرق؟ هل تهرب من الشارع إليهم في قاعة الدرس المغلقة على قراءتها للتاريخ أم تُقبل عليهم لان عيونهم تكذب الواقع في لحظته الكئيبة لحساب حقيقة أخرى فتعرف أن في الشارع شارعًا، كامنًا وغير مرئي الآن، لن يفاجئها ظهوره المباغت لأنها رأته ولمسته وخبرته في كل يوم وقفت أمامهم ومنحتهم نفسها فمنحوها نفوسهم؟ كفاك ميلودرامية يا شجر. تغضّين الطرف يا شجر. تتشبثين بأوهام مخلّص بهيّ وزّع جسده المُعجز على بضع مئات من الطلاب! تحبينهم ويحبونك، جميل، لكن ما شأن هذا الحب بحلم تلقينه عليهم كبردة أخاذة؟! ليسوا البُردة يا شجر، بل بشر من لحم ودم وخير وشر ونبل وخسّة وزمان يميّلهم فيميلون. لا تتعلمين يا شجر؟! رأيت خليل، الأذكى

والأبهى يقطع الطريق الهابطة, يقطعها ركضا وأنت تغضين الطرف، تقولين ارتباك عابر، تقولين حالة فردية: ولد بدأ واعدا ثم لم يفِ بما وعد. هناك العشرات غيره قابضون على علمهم وشرفهم كجمرة نار، قابضون وقادرون. وواقعة ملح الأرض ما الذي تقولين فيها؟

كانت واقعة من وقائع التاريخ، تاريخها الشخصي في هذه الحالة. منحتها اسما: "ملح الأرض".

لم يستوقفها الأمر في البداية، بدا لها التشابه في أوراق الإجابة من النوع المعتاد. مذكرات ما يدوّنها طالب متوسط القدرات، يستنسخها زملاؤه، يحفظونها عن ظهر قلب، يكتبونها في أوراق الإجابة. تعطي درجة النجاح بالكاد وإن كانت الإجابة صحيحة. تفسر أن المطلوب غير ذلك. البعض يصدقها، البعض الآخر يُؤثر اتبّاع ما رسخته سنوات المدرسة وعشرات المدرسين:لملمة ما خلّفته في قاعة الدرس والاحتفاظ به وديعة موقوتة يعيدها إليها يوم تطلبها في الامتحان. صححت ثلاثين كراسة إجابة. لم تنتبه. استوقفها تكرار جملة وردت في سطرين متعاقبين. سهو من كاتبها؟ نفس التكرار في الأوراق الأربع التالية. كيف؟ أعادت فحص

الكراسات. حالة غش جماعي؟ ورقة ما نقل منها الطلاب بالحرف وتحت ضغط الامتحان، نقلوا حتى جملة مكررة فيها أو خطأ في النحو أو الهجاء. لم يكن الغش في لجنة واحدة ولا في سؤال واحد. إن بعض الظن إثم. تعيد فحص الأوراق. تتبّع خيوط الجريمة. يا إلهي، الجريمة؟ لم تختر وظيفة الشرطي ولا المخبر؟ هل خانها الطلاب؟ ارتعشت للخاطرة. تواجههم؟ كيف تواجههم؟ لم تكن قررت بعد عندما جاء يوم الاثنين، يوم محاضرتها الأسبوعية لطلاب الفرقة الرابعة.

هل كانت تهذي؟ ربما كانت تنظُم لهم حبات ثمينة تخصهم ويملكونها وإن تدحرجت منهم وهم يركضون لركوب الأتوبيس أو الحصول على درس خصوصي أو عمل يفي بحاجتهم المعيشية؟ لا تدري ما الذي قالته تفصيلا وكيف قالته، تذكر أنها تحدثت عن الجامعة: المشروع، حلم روادها الأوائل والأجيال التي خرجت من معاطفهم. جثمان عبد الحكم الجرّاحي. طلاب القصر العيني. الإلهة ماعت التي أحبتها وعلقت رسمها فوق مكتبها. الأوراق المتطابقة. كانت تخلط الأمور وتنتقل من موضوع لآخر كأنها تهذي. قالت

وكأنها لا تقف على منصة الأستاذ، كأنهم ليسوا صغارا يجلسون على مقاعد الدرس، قالت: " أنا خائفة، أيريد أن أسمع منكم، أريد أن أطمئن"

صمت.

تباعا بدأ الأولاد والبنات يرفعون أيديهم ويطلبون الكلام. طالبة أولى: "تقولين أن ما يقرب من ربع أوراق الإجابة تؤكد أن أصحابها نقلوا إجاباتهم غشّا. يؤسفني أن أقول لك أن النسبة مقلوبة فالقاعدة هي الغش، والملاحظون يقفون على الأبواب " ناضورجية" لكي ينبّهوا الطلاب باقتراب أستاذ من الأساتذة". طالبة أخرى:" الملاحظون يساعدون الطلاب على الغش، وقد يطب من أحدهم أن يحمل "برشامة" من طالبة إلى زميلة لها في لجنة أخرى". طالب ثالث: "الإنسان ضعيف بطبعه وحين نجد أن من هم دوننا في المستوى والجهد يحصلون على درجات أعلى ونجد أن الغش هو القاعدة نغش". أخرى: "الامتحانات بهذا الشكل منذ كنا في المدرسة ولما التحقنا بالجامعة وجدنا نفس الوضع!" وقال آخر أن البرشام والورق الفولسكاب والمذكرات وأحيانا الكتب تستخدم في الغش وهو علني. وأخيرا طالب: "قمت

بالغش في هذا الامتحان وفي غيره. وسأكون كاذبا لو قلت لك الآن أنني لن اقرب الغش بعد ذلك. قد أستطيع الوقوف ضد التيار وقد لا أستطيع. المجتمع يذبحنا بألف طريقة. يذبحنا كل يوم فنتعلم تدريجيا كيف نتحايل عليه. قلت انك فكرت في ترك الجامعة و أقول لك أنك لو فعلت تجرمين في حقنا جميعا ليس لأنك تحرميننا من فائدة ومتعة درسك ولكن لأن وجودك يحفظ لنا قيمة ما، ضوءا يؤكد لنا أن الظلام لم يعد مطبقا وان الفوضى والشراسة والجهل والظلم والفساد وإن لم نستطع أن ننفصل تماما عنها ليست هي القانون المطلق للوجود. الإنسان بطبعه يحتاج نجمة ما في سمائه. قلت أنك علقت صورة ماعت فوق مكتبك وأنت تلميذة صغيرة. ألهمتك الصورة وسعيت في اتجاهها. لا تغلقي هذه الطاقة يا دكتورة شجر قد أتطلع أنا إليك وأسعى كما سعيت وقد لا أستطيع ولكن زميّلا لي قد يستطيع ذلك "صفق له الطلاب. هي كانت تتصبب عرقا، أرادت أن تقول شكرا ولكن الصوت كان محبوسا في مكان ما، مقيدا مع الدموع على الأرجح.

قبل أن تغادر القاعة جاءتها طالبة ومدت يدها إليها بوريقة صغيرة مطبوعة قالت هذه هي"البرشامة" التي نقلنا عنها إجابة السؤال الأول. إنها مكتوبة على الكمبيوتر ومصغرة وهناك محل متخصص في إعداد هذا النوع من البرشام، في مختلف التخصصات.

لماذا وجدت نفسها بعد أن غادرت قاعة الدرس تعفي طلابها من المسئولية، هل أعفتهم من المسئولية؟ هل تحبهم إلى حد التواطؤ على طريقة الأمهات، يصورن لأنفسهن أن الآخرين، دائما الآخرون يقومون بإفساد أولادهم؟ هل كان الموقف كله ميلودراميا كمشهد عاطفي في فيلم رديىء؟ يعود الولد العاق، يبكي على صدر أمه، تصفح عنه فتكون النهاية السعيدة؟! لماذا يفاجئها الغش في كل مرة كأنها لا تعرف أنه صار القاعدة؟ لا ليس قاعدة بعد، لكنه أمر عادي ودارج وغير مستنكر كأنه قاعدة، في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، في المعاهد والجامعات. هل تظن أن الفساد يطول كل شيء إلا قاعة درسها وطلابها. هل أصاب الفساد ملح الأرض؟

جلست إلى مكتبها وكتبت مذكرة إلى العميد تشرح فيها ما حدث. قالت إن الغش ثابت ولا يقبل أي شك في ١٢٦ ورقة إجابة وهى تمثل ٢٨٪ من مجموع أوراق الإجابة. طالبت بإلغاء الامتحان وإجراء تحقيق.

معركة جديدة، خاسرة كالمعتاد! رفض العميد إعادة الامتحان أو إجراء تحقيق رسمي. رد على مذكرتها برسالة نفى فيها واقعة الغش، أكد أن الملاحظة في الامتحانات دقيقة وأن سير الامتحانات في الكلية نموذج للانضباط. وأنهى رسالته بلوم مبطّن. ليس مبطنا، لوم واضح كالشمس: قال المشكلة في أن الأساتذة يضعون أسئلة متوقعة وان الطلاب يحفظون مذكرات الأساتذة عن ظهر قلب مما يتسبب في تشابه الإجابات. باختصار تقول الرسالة إنها مخطئة ومقصّرة وواهمة وأن كل شيء على ما يرام. "شيء عفن في الدانمارك!" يا إلهي هل يتعين عليها أن تعيش تجربة الفتى هاملت وهي في الخمسين. أي هاملت وأي بطيخ، لن تغادر المسرح وأجساد الأبطال مبتتة على الخشبة في نهاية المبارزة المأسوية. إنهم يسرقون الصغار، ما العمل؟!

وكريم؟

لم تشهد ولادته، لم تحمله بين يديها في أسابيعه الأولى، لم تساعد أمه في تغيير أقمطته المبتلة وغسل مؤخرته أو تحميمه وتجفيفه ورش جسده بالبودرة الناعمة. ركب معها المصعد وشب على أطراف أصابعه وهو يسألها عن الطابق الذي تقصده:

- الخامس وأنت؟
- الخامس برضه؟
- عندك كام سنة؟

فتح كفه وفرد أصابعه كالمروحة ثم ثنى الإبهام

- يعني أربعة
- عارف، بس ما بحبش الكلام الكثير، لما الواحد يتكلم كتير ممكن يغلط، وممكن يزعج الناس وممكن. . .

وصل المصعد إلى الطابق الخامس. سألت وهى تخرج المفتاح من حقيبتها.

- ماما وبابا طالعين وراك؟
- لأ، هم في البيت؟
- أنت ساكن هنا؟

- أيوه، أنت ساكنة هنا؟
- أيوه
- يبقى إحنا جيران والإنسان المحترم لازم يكون لطيف مع الجيران، لما يشوفهم يقول لهم صباح الخير، ولما يمرضوا يسأل عليهم، ولما يكون عنده أكل لذيذ يقدم لهم منه. دقيقة وحدة.

انطلق إلى شقته، دق الباب باستعجال ووقفت تنتظر.

عاد يحمل صحنا عليه قطعة حلوى.

- امبارح كان عيد ميلادي
- كل سنة وأنت طيب. ممكن تتفضل عندي عشان أديك هدية عيد ميلادك؟
- ممكن أزورك بعد ما اسأل ماما، لكن مش ممكن تديني هدية لان عيد ميلادي كان امبارح، يعني خلص. لازم تستني السنة الجاية ولو كنت لسه بتحبيني- لأن الواحد يدي هدية للي بيحبه بس، اللي ما يحبوش مش لازم أبدا يديله هدية- السنة الجاية تقولي:كل سنة وأنت طيب يا كريم وتديلي هدية. أنا

أقول شكرا. ممكن الهدية تكون وردة، ممكن لعبة، ممكن قلم، ممكن بوسة.

- لأنك ولد ذكي ولطيف. ممكن أسألك سؤال: أنت قلت الواحد بيدي هدية للي بيحبه. وأنت اديتني هدية من غير ما نعرف بعض. . .
- لقيت إنك لطيفة، لو بعد كده طلعتي شريرة حابطّل أحبك وأبطل أديلك هدية. زي الأفلام واحد شكله طيب أحبه وبعدين يظهر أنه شرير خلاص ماحبوش.
- ممكن تسأل ماما وتيجي تزورني؟
- حاسألها بس ممكن أعرف اسمك؟
- شجر
- شجرة؟! ده اسم حلو خالص
- وكريم كمان اسم جميل
- لأ
- ليه؟
- لأنه في الحضانة خمسة اسمهم كريم. المدرسة تقول اسكت يا كريم. وأنا ساكت، أو تقول كريم

ما بيعرفش يرسم وأنا باعرف ارسم ورسمي جميل. وهي بتتكلم على كريم علي أحمد أو على كريم نبيل تادرس أو كوكو، أصل كوكو برضه اسمه كريم. لو اسمي أخضر، مثلا، يعني مثلا، اسكت يا أخضر باكون أنا اللي باتكلم. تقول أخضر أخذ صفر بيكون أنا اللي ماكتبتش الواجب. أخضر ممتاز يعنى أنا الممتاز.

يبقى كل شيء واضح. صح؟!

- صح! إنما أخضر اسم غريب!
- أنا قلت لماما ماسمّتنيش عبد المقصود، مفيش ولا ولد في الفصل اسمه عبد المقصود؟! لكن أخضر أحسن من عبد المقصود. وأنا باحب اللون الأخضر وحافرجك على الرسم بتاعي وكمان في مرة حلمت أني اشتريت جزمة خضرة وقبل العيد قلت أنا عاوز جزمة خضرة مالقيناش وأنا عيّطت كثير، وبعدين بابا اشترالي علبة ألوان كبيرة وأنا رسمت ولد لابس جزمة خضرة. ماما وبابا ضحكوا وقالوا أن الجزمة كبيرة قد راس الولد

تلات مرات. بصي أنا مش حازورك دلوقت لأن ماما حتقول ده وقت غدا وراحة. الساعة ستة احسن. ماشي؟

يقصُر الخيال، حتى العقول المنتبهة المشهود لها بالذكاء تفوتها أحيانا أكثر الأشياء بديهية. لم تمر الفكرة ولا طيف الفكرة بخاطرها طوال ثلاثة اشهر من الأسبوع الأول من سبتمبر إلى أن أفرج عنها. عادت إلى بيتها، غسلت وجهها وبدلت ملابسها ودقت باب كريم. استقبلتها أمه، نادت عليه، لم يجب. دخلت لتناديه، عادت بدونه، قالت انه نائم. انتظرته في بيتها. لم يأت. ذهبت هي إليه. نادت عليه. لم يجب. دخلت الغرفة. كان جالسا إلى مكتبه. لم يلتفت.

- أنت مش عاوز تسلم على ليه؟

لم يجب.

- مش إحنا صحاب، ليه مش بتسلم عليا؟
- مش عاوز أسلم عليك!
- ليه؟
- كده، أنا حر!

اقتربت من المكتب فأزاح المقعد بعيدا. وضعت علبة الشيكولاته التي أتت بها. كانت مغلفة في ورقة لامعة ومربوطة بشريط دقيق أبيض.

- لو سمحت تاخدي الهدية لأني مش عاوزها
- ليه؟
- لم يجب. قام وترك الغرفة. سألت أمه إن كانت أخبرته أنها كانت في السجن. قالت باستنكار: "طبعا لأ، قلت له أنك كنت مسافرة!"

فهمت. بدا الأمر أسهل ثم بدا أصعب.

وقفت تنتظره بباب البيت. رأته وهو ينزل من سيارة المدرسة. دخل العمارة دون أن يتوقف لتحيتها. تبعته في اتجاه المصعد وركبت معه. قالت الكلمات التي أعدّتها طوال الليلة السابقة: "أنا كنت في السجن، ما كنتش مسافرة. وفى السجن ممنوع إني أتكلم في التليفون أو أكتب جوابات. لو كان مسموح كنت حاتصل بيك وأعرفك. . . " نسيت بقية ما أعدته من كلام. وصل المصعد إلى الطابق الخامس، خرج وظلت واقفة مكانها حتى سمعت البواب يصيح: " اقفل الباب" انتبهت. أغلقت باب المصعد واتجهت إلى شقتها.

لم تنتظر طويلا. بعد الظهر دق الباب. سأل وهو يقف بالباب:

- ممكن أسأل ليه كنت في السجن؟

كان في السابعة من عمره. كان عليها أن تجيب على سؤاله. هل كانت إجابتها- لم تعطه سوى إجابة مبسطة ومجزوءة- بداية انتباهه للظلم. ترتعش للخاطرة وكأنها أودت بالولد إلى التهلكة. تنزعج من رعشتها وفكرتها، تردّ عليهما بصوت عال كالمجانين:ما المطلوب، أن نحمي الصغار بأي ثمن حتى لو أخفينا عنهم الحقائق؟ أنت بلهاء يا شجر أفسدتك الوظيفة، غبية، تتصورين نفسك مصدر المعارف، كأن الحياة ليست سوى امتحان أبله يعيد لك كلامك كجواب الصوت. الحقائق ملقاة أمامهم على قارعة الطريق، تطحن البعض، تنفجر فيهم كالألغام، تقتلهم أو تشوههم، والبعض الآخر الأكثر حظا (لأن أهله يملكون تعليمه وإطعامه وتسكينه وتوظيفه) يملك أن يغض الطرف عنها. هل يغضون الطرف عن الألغام حقا أم يعتبرونها من مسلمات الواقع؟ واقع يتطلب منهم الإسهام في تصنيعها وزرعها، فما دامت المعادلة أن تكون قاتلا أو مقتولا، فلتحتفظ برأسك ولتعش، كالملوك إن أمكن. هذا ما قاله خليل. وكريم قاتل أم مقتول؟

الفصل الثاني عشر

في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧سافر السادات إلى إسرائيل. في اليوم التالي، صباح يوم العيد، جاء خمسة من رجال الأمن إلى بيتنا وأخذوا مُريد لترحيله من مصر.

بعد شهرين، سافرت للقاء مُريد في بيت شقيقه في الدوحة. صورة تميم في جواز سفره الأول: مدور الوجه. لا يبتسم، يبدو قلقا أو منزعجا. في الزاويتين السفليتين للصورة تبدو يدان تساعدان الولد الرضيع على الجلوس منتصبا. كان ابن ستة أشهر أو ربما أقل قليلا بإمكانه الجلوس، على الأرجح. ربما خشيت من سقوطه من على مقعد المصور فقرفصت وراءه وسندته بيدَيّ. أرسلت الصورة إلى مُريد ليستخرج له جواز سفر مستقل يمكنني من اصطحابه إلى الدوحة في أجازة نصف السنة.

ميدان التحرير. مبنى المجمع. امرأة في الثلاثين تصعد السلم وسط جمهرة الصاعدين والهابطين. تسأل. تقف في صف طويل. تقترب تدريجيا من القضبان الحديدية للشباك. تصل. تمد يدها للموظفة الجالسة وراءه بجوازي سفر. جوازها: أخضر يحمل شعار النسر تعلوه عبارة جمهورية

مصر العربية مكتوبة بالعربية وبالفرنسية، وجواز خضرته أفتح يحمل نقش تاج تعلوه عبارة المملكة الأردنية الهاشمية بالعربية والإنجليزية، ونسخة مصوّرة من جواز سفر ثالث. تعيد الموظفة الأوراق و الجوازين للمرأة. عليها أن تكتب، فضلا عن طلب الإقامة، طلبا آخر. "في المكتب رقم كذا" قالت الموظفة. اشترت المرأة ورقا أبيض وطوابع دمغة. توجّهت للمكتب رقم كذا. "المطلوب؟" "كتابة إقرار بكفالة الطفل والتعهد بإعالته. لابد من كتابة إقرار". المرأة لا ترى الورقة. المرأة لا تتعرف على الحروف. المرأة تخطئ في هجاء الكلمات. تمزّق الورقة. تبدأ من جديد. تخطئ في كتابة اسمها. ورقة جديدة. تخطئ في كتابة التاريخ. تعيد الطلب للمرة الرابعة. أخيرا كتبت الإقرار. ختمه الموظف. مكتب ثالث. يسأل الموظف:

- تاريخ الوصول إلى مصر؟
- وصول من؟
- وصول ابنك؟
- عمره ستة أشهر. ولد في مصر ولم يغادرها.
- تاريخ آخر وصول لوالده؟

يبحث في الأوراق المصورة.

- وجدته: ٧٧/٥/١٧, للحصول على الإقامة لابد من تسجيل تاريخ آخر وصول.
- ولكن ابني مولود بعد هذا التاريخ بشهر!
- لا يهم!

سجل التاريخ على الجواز والإقامة لمدة عام. حملت المرأة الجواز إلى موظفة كتبت: "البيانات صحيحة" ووقعت. موظف أخير طبع خاتمين: خاتم صغير وخاتم النسر يحمل اسم مصلحة وثائق السفر والهجرة والجنسية مضافا إليها: وحدة تسجيل الأجانب.

بإمكانها الآن أن تصطحب ابنها لزيارة أبيه. وضعت المرأة الأوراق في حقيبتها ومضت.

يونيو ٧٧ قبل ترحيل مُريد بخمسة أشهر، بعد ثلاثة أيام من ولادة تميم. صورة فوتوغرافية: تميم: أحمله ملفلفا في الأقمطة البيضاء، أحيطه بذراعيّ. لا يبدو منه سوى شعره الأسود يغطي جزءا من جبينه. عيناه مغلقتان. النيل واضح ورائي يملأ خلفية الصورة. أمامي المستشفى الذي غادرته قبل دقائق، لا يظهر في الصورة. نفس الشارع الذي وُلدت

فيه قبل واحد وثلاثين سنة. يمتد بطول الشاطئ الغربي لجزيرة منيل الروضة من المباني الخلفية للقصر العيني في أقصى الطرف الشمالي للجزيرة إلى مقياس الروضة في أقصى طرفها الغربي مارا بكوبري الجامعة وكوبري عباس. ولادة عسرة دامت ليلتين. جاء تميم. ذهب مُريد لتسجيل شهادة ميلاده. عاد. بدا مندهشا ومرتبكا. قال وهو يجلس بجوار سريري في المستشفى: "أعطيت البيانات للموظف، وعقد الزواج وورقة المستشفى. ونبّهته أن الأم مصرية" قال الموظف: "سأسجل في الشهادة اسم الأم وجنسيتها ولكن لا معنى لهذا على الإطلاق. أن تكون الأم مصرية أو إنجليزية أو إسرائيلية لا يهمنا في شئ. المهم الأب!"

التقينا بمُريد في الدوحة وفى بودابست وفى عمّان، في العطلات الصيفية وعطلات نصف السنة، والتقيت به في الجزائر والإمارات والمغرب في فعاليات ثقافية دعينا معا للمشاركة فيها.

بعد سبع سنوات من الترحيل سوف يتمكن مُريد من العودة إلى بيتنا في القاهرة ليس للإقامة معنا بل لزيارتنا زيارات قصيرة تحكمها في كل مرة موافقة مسبقة من

الجهات الأمنية. عند وصوله إلى مطار القاهرة يختم ضابط المطار جواز سفره ويؤشر عليه بعبارة "أسبوع لا يجدد" أو" أسبوعان فقط". نستقبله في المطار. نودّعه في المطار. ننتظر أن نذهب إليه في عطلتنا الصيفية أو نقدم طلبا جديدا قد يوافقون عليه فيزورنا مرة أخرى. دامت بنا هذه الحال عشر سنوات أخرى.

في يناير ١٩٩٥ سمح لمُريد بالإقامة في مصر. عاد إلى البيت رقم٦ شارع رامز بالمهندسين، نفس البيت الذي غادره مرحّلا قبل سبعة عشر عاما. كبرنا، صرنا في الخمسين، أتمها مُريد قبل عام وكنت أتمها في العام التالي. تميم أيضا كبر، أصبح في الصف الثالث الثانوي يستعد لامتحان الثانوية العامة. بعد شهور سيصطحبه أبوه إلى لجنة الامتحان ثم يذهب إليه بعد ساعات ليصطحبه إلى البيت.

اجتاز تميم الامتحان وحصل على ٩١,٦٪. أعلن عن فتح المرحلة الأولى بمكتب التنسيق. ذهب مع زملائه. وقف في الصف. اشترى الاستمارات. عاد ظافرا إلى البيت. بعد يومين اتضح ان الاستمارات التي اشتراها لا تخصّه. للوافدين تنسيق خاص. أين؟ في منشية البكري في مواجهة

بيت عبد الناصر. ذهبنا. الشروط المفصّلة مكتوبة بخط واضح على ورق مقوى معلق بباب المكتب. اشترينا الاستمارات الصحيحة. حالتنا: طالب وافد، أمه مصرية، درس المراحل التعليمية الثلاث في المدارس المصرية. المطلوب؟ فضلا عن استمارات التنسيق، عقد زواج الوالدين. بطاقة الأم أو جواز سفرها. شهادة من جهة العمل إن كانت عاملة. شهادات الابتدائية والإعدادية والثانوية العامة. قدّمناها. أرفقنا خطابا من جامعة عين شمس يفيد بان الدكتورة رضوى عاشور أستاذ ورئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب.

ظهرت نتيجة التنسيق: قبل تميم في الكلية التي أراد الالتحاق بها في جامعة القاهرة. بدأت الدراسة في أواخر شهر تسعة. شهر أكتوبر: نسأل في الكلية عن الأوراق. لم تصل. نوفمبر: لم تصل. أخيرا ديسمبر: وصلت. إدارة شئون الطلاب: قامت الموظفة المحجبة من وراء مكتبها. أخرجت عددا من الملفات. استلّت منها واحدا. ملفّ تميم.

- وافد؟
- أمه مصرية.

- أرامل ولّا مطلّقات؟

كررت بصوت حاد

- أرامل ولاّ مطلّقات؟
- مش فاهمة

صرخت في

- سيادتك أرملة؟
- لأ
- مطلقة؟
- لأ
- يبقى الولد وافد، أجنبي. مالهاش معنى الأم المصرية.

التقطت نفسا عميقا:

- قرار المجلس الأعلى للجامعات الصادر في شهر مايو الماضي يقضي بمعاملة أبناء المصريات من الطلاب نفس معاملة الطلاب المصريين.
- ما وصلنيش قرار من هذا النوع!

٢ شارع ضريح سعد. الإدارة العامة للوافدين. أتعرّف على أحد كبار الموظفين. قال أنه حضر لي مناقشة دكتوراه.

طلب لي قهوة. أعطاني صورة من قرار المجلس الأعلى. قال أعتقد أنهم تراجعوا عن القرار دون إثبات ذلك في الأوراق واستبدلوا به إعفاء أبناء المصريات الذين يقيمون في مصر من تسعين في المائة من المصروفات بشرط تقديم بيان حالة.

"يعني؟" "يعني شهادة مفادها أن الوضع المادي للأسرة لا يسمح بدفع المصروفات!"

في هذه السنوات المعلّقة بين الكوارث العامة والخاصة عشنا كغيرنا من البشر. لم تخل حياتنا من مباهج، صغيرة أو كبيرة، فالحياة تحمي نفسها في نهاية المطاف. بعد أيام قليلة من مجازر صبرا وشاتيلا سوف يذهب تميم إلى يومه الأول في المدرسة، مدرسة الحرية بالجيزة. يرتدي قميصا أبيض وبنطالا رماديا وربطة عنق حمراء داكنة. أتأمله بعينيّ وعينيّ أبيه فأعيش فرحا مزدوجا وكاملا ومطلقا. لم يكن الذهاب المنتظم كل صباح إلى مكان به أطفال ومعلّمات ومشرفات جديدا على تميم، كان عمره عاما ونصف حين ألحقناه بحضانة "مانى نينى", حضانة خاصة في بودابست، واظب على الذهاب إليها من يناير حتى أغسطس ١٩٧٩. في

سبتمبر رفضت الجامعة الموافقة على طلبي بتمديد إجازتي لمرافقة الزوج. عدنا إلى مصر. دخل تميم حضانة أخرى في القاهرة. في نهاية العام الدراسي رجعنا إلى بودابست. ألحقناه بحضانة جديدة يقول اسمها باعتداد: "بودابشتي هاريشنيا جيار أوفودا" (حضانة مصنع جوارب بودابست). انتظم في هذه الحضانة عامين متصلين. يأخذه أبوه في الثامنة صباحا ويأتي به في الرابعة مساء فيدخل البيت بحصيلة من الحكايات أو أغنية أو وردة يقدمها لي أو ثمار الجوز في جيوبه. ينتحي جانبا من الشرفة، يقرفص، يخرج غنيمته، يخلع حذاءه، يمسك بإحدى الفردتين يُكسر بها حبات الجوز. أحاول أن أثنيه، يقول بحسم إن الجوز يُكسر هكذا، هكذا يفعل كل الصغار في الحضانة! كم كان عمره حين قال لي: "الحقيقة زي البندقية لازم الواحد يتعب لغاية ما يلاقيها"؟ لم أفهم من أين أتته هذه الفكرة إلا عندما دخل البيت يحمل تلك اللفافات الشوكية: "ما هذا يا تميم؟ "بندق" ظننته يمزح: "فين البندق؟!" "مستخبّي جوا لازم أطلعه".

سوف نخرج أيام العطلة إلى تلال بودا، غابات من أشجار البلوط والسرو والحور والكستناء والجوز وأشجار

أخرى لا نجد من يدلّنا على أسمائها. نركض ونقفز ونلعب بالكرة ثم نجلس على حصيرتنا نتناول ما حملناه معنا من الطعام. أو نذهب إلى مطعم الخيول في تلك القرية المجرية. نقبل على الحساء. يقدمونه لنا في قصعة فيها ما يكفي عشرة أشخاص. يتعجل تميم الانتهاء من وجبته لأنه يقصد الخيول يريد إطعامها أو لمسها أو متابعة ركضها. في هذا المطعم في صيف١٩٨٤، حصل تميم، وكان في السابعة، على البيضة التي أرادها. كنا نتناول غداءنا حين مر قروي ينادي على بضاعته: "بيضة تجلب لصاحبها الحظ". في يد الرجل بيضة عليها حُدوة منمنمة مثبتة بمسامير دقيقة. "أريد واحدة!" دفع مُريد ثمن البيضة. مد تميم يده، أمسك بها. هتف: "الله! بقى عندي حظ، حايسمحوا لبابا يرجع مصر!" دارينا تأثرنا بالحديث عن البيضة. قلنا إنها جميلة ومدهشة. قلنا أنظر يا تميم كيف صنعها الرجل: ثقبها هذا الثقب الدقيق، ليفرغ ما في داخلها ثم ثبّت الحدوة بالمسامير دون أن تنكسر، كيف؟! لم ينسَ أي منا ما قاله تميم ذلك اليوم وعندما سُمح لمُريد بالدخول إلى مصر بعد شهرين اكتسبت البيضة مكانة ليس

لأننا، أنا ومُريد على الأقل، صدّقنا أنها جلبت الحظ لتميم ولنا بل لمجرد ان تميم قال ما قاله وتحققت الأمنية.

تتداخل الخيوط، كلها تتداخل. حتى أيام المستشفى لم تخل من فرح ناعم وعميق. المستشفى القريب في أول أسبوعين. المستشفى الآخر البعيد في الأسابيع الثلاثة التالية. مصحة للأمراض الصدرية كل ما فيها كئيب يزيد من وطأة المرض. لا يرافقني في حجرتي سوى المذياع الروسي الصنع، اشتراه لي مُريد خصيصا لالتقط بث الإذاعة المصرية ومتابعة أخبار حملة سبتمبر ١٩٨١.مُريد يأخذ تميم إلى الحضانة في الثامنة صباحا. يأتي لزيارتي. نحتسي قهوتنا. يذهب إلى عمله. في الثالثة يغادر مكتبه. يذهب إلى الحضانة ليأتي بتميم. في الرابعة أبدأ في الانتظار. يصلان في الرابعة والربع أو بعدها بقليل. عبر النافذة أرى السيارة اللادا البيضاء.مُريد في مقعد القيادة، تميم في المقعد الخلفي. تبطئ السيارة. تتوقف. ينزلان. أحوّل عينيّ إلى الباب.

في القاهرة كان تميم يأتي لزيارتي وأنا أرقد في مستشفى بدران وبعدها في مستشفى مجدي. يروقّه أن ينام في سريري. كان في الثالثة. صار الآن في الرابعة لا يشغله

السرير بل العربة المعدنية التي تجرها الممرضة محملة بوجبات عشاء المرضى. تضع الصينية بجواري يواصل اهتمامه: "ممكن يا ماما آكل معاك؟" انتهى وقت الزيارة. يغادران. أراهما معا عبر النافذة يلتفتان ويلوحان. تحملهما السيارة وتبتعد. أرى المشهد كاملا عبر النافذة وزهرة جربيرا برتقالية في مزهرية من فخار جاء بهما مُريد (الزهرة عاشت أسبوعا كامًلا والمزهرية انتقلت معنا من المستشفى إلى بيتنا في بودابست ثم إلى بيت شارع رامز و الآن معنا في هذا البيت) . لم يكن مجرد حزن ولا أسى بل حياة ممتلئة بخيوط متشابكة شوكية بداخلها حبات البندق. صديقاتي في السجن: لطيفة وأمينة وعواطف وفريدة وشاهنده وصافي ناز، والعديد من معارفي، وعشرات من القيادات السياسية والثقافية في مصر. المعتقلون المعترف بهم رسميا ألف وخمسمائة لم يرد بينهم اسمي و إن ورد في قائمة الأساتذة المطرودين من الجامعة. الأوضاع في مصر لها وطأة أحدّ من تلك الآلام التي تمتد من ظهري إلى كتفي الأيسر وعنقي بعد كل مرة يضعون الإبرة في الرئة لسحب ما فيها من ماء. لكن الحياة، أكرر، تحمي نفسها. في

المستشفى في سبتمبر ٨١ وأنا مصابة بانسكاب بلّوري في رئتي اليمنى كان مُريد وتميم يأتيان كل يوم ويبدو أنني أتماثل للشفاء فيسمح لي الطبيب بقضاء عطلة نهاية الأسبوع في البيت. مساء الجمعة أعود إلى البيت. باكرا صباح الاثنين يعيدني مُريد للمستشفى. وأحيانا، حين أتمكن ويسمح لي الطبيب، أمشي في حديقة المصحّة. أتأمّل أشجار البَلّوط والكستناء، أتعرف على جذوعها وأوراقها وثمارها. يبدو لي الوجود أليفا ومتينا، رغم كل شيء.

تميم يحب المطارات والسفر، يقول ذلك فأعلّق على ما يقوله أحيانا، وأحيانا أسكت. ركب الطائرة لأول مرة وعمره سبعة شهور. رافقتنا في رحلتنا إلى الدوحة والدة مُريد. كانت الرحلة ميسّرة على غير رحلتنا إلى بودابست في سبتمبر التالي. الإجراءات الأمنية في المطار مشددة. قبل أيام عقدت اتفاقية كامب ديفيد الأولى. قال موظف الأمن: غير مسموح للركاب حمل أية حقائب في كابينة الركاب. بيدي حقيبة صغيرة بها غيار الولد وغطاء صوفي صغير وعلبة حليب وزجاجة الرضاع. أفهمته.

- ممنوع الشنط منعا باتا!

- والحل؟
- بسيطة، امسكيهم في يدك.
- كيف؟
- في كيس نايلون.

كان علي أن انتظر المرور بضابط الجوازات قبل الوصول إلى السوق الحرة حيث أكياس النايلون .

حشرت علبة الحليب وغيار تميم في حقيبة اليد، علقتها على كتفي. حملت تميم وزجاجة الحليب في يد وجوازيّ السفر والتذاكر في اليد الأخرى. اتجهت إلى ضابط الجوازات. مددت يدي بالأوراق، انسلتت زجاجة الحليب. سقطت على الأرض. انكسرت. لشهور طويلة لن يملّ تميم من ترديد الحكاية انكسار زجاجة الحليب. كان عمره عاما وثلاثة أشهر ويقدر على تكوين جمل مفيدة.

لم يكن أتم السادسة من عمره حين ركب الطائرة وحده. ودعته بهدوء، لن ألتقي به قبل شهرين يتعين علي فيهما تصحيح أوراق طلابي وإنهاء أعمال الامتحانات. كتبت له بطاقة المغادرة. وزنت له حقيبته. قبلته: "سلم على بابا"

لوّح لي. مشى مبتعدا. استدار. لوّح لي مرة أخرى وهو يبتسم. كان فرحا.

لم أكن أخشى الطائرات. صرت أخشاها. الشيخوخة؟ (مع الشيخوخة يتشبث البشر بحياتهم أكثر وهذا منطقي. رغم المفارقة الظاهرة: أليست الشيخوخة في أحد تعريفاتها حياة مهددة بالرحيل) . الأرجح أنها الشيخوخة، أقول لنفسي لمقاومة تطّير يوسوس بأن الطائرة ستقتلني. هل هو الوعي بأن طائرة ما، غدا أو بعد غد، ستحمل تميم إلى بلد ما يكون فيها غريبا لأنه فلسطيني فتحمله طائرة أخرى ثم تتوالد الطائرات لترسم في حركتها المعلقة في الفضاء خريطة موازية؟ أليس هذا قانون الشتات الذي حكم كل من عرفت من أمهات الفلسطينيين، حكم أم مُريد وأولادها الأربعة؟ أم أن السبب هو تراكم مخاوف لم أسمح لها أبدا أن تعبّر عن نفسها في حينه فتستدّ مني بحضور مضاعف: تلك الساعة التي أنتظرها في المطار، أنتظر بهدوء كأنني لست معلّقة على حبل غريب بيد ضابط يسمح لمُريد بدخول البلد أو لا يسمح، ومخاوف استجدّت ما إن بلغ تميم الرابعة عشرة من عمره فيوقفونه لبعض الوقت لفحص القوائم والتأكد. ونكون

سويا عائدين من السفر فأقدم الجوازين معا، يختم الضابط جوازي ويقول لتميم انتظر، أنتظر معه، يقول الضابط: "اتفضلي حضرتك" يصيغ الأمر بلطف ويكون علي أن أمتثل فأمرّ لأقف في جانب من السور وتميم في الجانب الآخر. ننتظر.

أمامي الآن على المكتب أربعة عشر جواز سفر قديم لي ولمُريد ولتميم كلها تحمل خاتم "ملغى". أحملها في يدي فأبدو كموظفي شركات السياحة في المطار يستقبلون مجموعة سياحية ويجمعون جوازاتها لإنهاء الإجراءات.

أثناء إقامتنا في بودابست تكررت زيارتنا لفيينا فالمسافة بين العاصمتين لاتتجاوز ٢٦٠ كيلو تقطعها السيارة في ثلاث ساعات. نذهب إلى فيينا لقضاء عطلة قصيرة، للعلاج أحيانا، للقاء أصدقاء... الخ. الأردن لم تعد تجدد جوازات مواطنيها المرتبطين بمنظمة الحرير. لم تجدد جواز مُريد. يحمل جواز سفر جزائرياً منحته له الجزائر. الاسم على الجواز مُريد البرغوثي. الوظيفة شاعر. مكان الميلاد. دير غسانة، الجزائر! أحمل جواز سفر مصري. ولأن المرأة في الشرع تتبع زوجها فقد سجلت مصلحة الجوازات المصرية، من باب

أضعف الإيمان، تحت ملحوظات: زوجة نوّاف عبد الرازق البرغوثي، أردني الجنسية. ونوّاف هو اسم مُريد الذي سجله مختار القرية ١٩٤٤ لأن القابلة عندما ذهبت إليه لتخبره أن عبد الرازق وسكينة أتاهما ولد سألها عن الاسم تلعثمت. قالت إنه اسم غريب. حاولت تذكّره. لم تتذكر. حل لها المختار المشكلة: قال أخوه غريب. حاولت تذكرة. لم تتذكر. حل لها المختار المشكلة: قال أخوه منيف، نسميه نوّاف. سجل المختار ميلاد الطفل وحمل الشهادة إلى والدته. أخذتها منه. شكرته. حفظتها بعيدا عن أيدي الأولاد حتى اليوم الذي عاد فيه مُريد من المدرسة- كان في الحادية عشرة- وأخبرها أن المدير يطلب شهادة الميلاد لأنها ضرورية قبل دخول امتحان الشهادة الابتدائية. ساعتها فقط اكتشف مُريد اسمه الآخر. القابلة والمختار اللذان لم التق بهما حددا الاسم المسجّل في جواز سفري وجواز سفر تميم. احتلال الصهاينة للجزء الأكبر من فلسطين أدى إلى ضم الضفة الغربية لنهر الأردن إلى الضفة الشرقية فنشأت المملكة الأردنية الهاشمية وصار مُريد ومن بعده تميم أردنيين. رفض الأردن لتجديد جوازات سفر الفلسطينيين أدى إلى أن يحمل مُريد جواز

جزائريا يحدد مكان الميلاد بدير غسانة الجزائر، رغم أنه على قدر علمي لا توجد قرية في الجزائر بهذا الاسم. لكن لحرية الفرد مزاياها وفي أوروبا العلاقات المفتوحة لم يكن ضابط الجوازات النمسوي على نقطة الحدود بين المجر والنمسا ليتوقف طويلا. حالة عادية: شخص جزائري يصادق امرأة مصرية لها طفل من زيجة أو علاقة سابقة بشخص أردني. ربما يستوقفه تكرار اسم برغوثي. لا يستفسر، يخشى أن يبدو جاهلا فقد يكون الاسم شائعا كاسم محمد بين العرب أو يان بين النمسويين! وإن عقّدها الضابط وواجهتنا مشكلة نصبح كبراقش المثل: جنت على نفسها مادام ذهابنا إلى فيينا ترفًا كان بإمكاننا التخلي عنه. أما أن يأتي مُريد للقاء زوجته وابنه والإقامة أيامًا معدودة في بيته فلا ترف هنا ولا براقش. نذهب لاستقباله في مطار القاهرة، ننتظر في الممر الكئيب لكي نتابع عن قرب الخارجين من قاعة الوصول. ننتظر ساعة أو ساعتين فيبدو ذلك محتملا ربما لأننا تعودنا وأيضا لأن العبرة بالنهايات، أقصد السماح لمُريد بالدخول.

عام١٩٨٦ انتظرنا عشر ساعات من الواحدة بعد منتصف الليل حتى الحادية عشرة صباحا. غادرت المطار

في الرابعة والنصف فجرا بدون مُريد. السبت: تأشيرة السفارة المصرية لا تعني شيئا، لابد من الموافقة المعتادة للاظوغلى (قسم فلسطين بمباحث أمن الدولة) . عدنا إلى البيت. تميم يكرر.

- حانعمل إيه يا ماما؟
- الصباح رباح يا تميم.

يدخل سريره ينادى علي:

- ماما، تفتكري بابا حيدخل؟
- أيوه يا تميم، الصبح إن شاء الله يدخل
- متأكدة؟

لا أجيب. يكرر:

- متأكدة؟
- نام يا حبيبي

أدخِّن. أفكر: أبدأ بالاتصال بمن ومتى. كيف أعالج تغيّبي عن لجنة الامتحان الشفهي لطلاب السنة الرابعة المقرر عقده في الكلية صباح الغد. أتطلع إلى الساعة: السادسة. في الثامنة صباحا اتصل بأحد العاملين بمكتب المنظمة. وبّخني على عدم الاتصال بالمكتب قبل وصول

مُريد لعمل اللازم (لم يحدث أن لجأت إلى المكتب لتسهيل دخول مُريد سوى مرة واحدة لم يأتني فيها جواب، تجاهلا أو إهمالا أو عجزا، الله أعلم!) اتصل بصديق لنا. يعد بحل المشكلة: "إعطني عشر دقائق فأعاود الاتصال بك". اتصل برئيسة القسم: "وضع طارئ أرجو أن تحل إحدى زميلاتي مكاني إلى أن آتي". يتصل الصديق بي كما وعد. يتصل مرة أخرى، وأخيرا: "بعد نصف ساعة سيكون مُريد في طريقه إلى البيت، لا تذهبي إلى المطار". في الحادية عشرة يصل مُريد إلى البيت. أعد القهوة، نشربها معا. أغادر على عجل إلى الكلية. أقول لتميم وأنا اضحك: "فرصة نادرة للانفراد بأبيك!"

في عام١٩٩٣ بدا أننا نتقدم، رغم كل شئ، ساعات الانتظار العشر صارت خمسا! مُريد مدعو من الهيئة العامة لقصور الثقافة للمشاركة في مهرجان الشعر العربي. موعد وصول الطائرة من عمان الثانية ظهرا. قلت لتميم "لا داعي للتغيب عن المدرسة. أنت تعود للبيت في الثالثة أو الثالثة والربع، تذهب وتشتري وردا لأبيك وتعود فتجدنا في البيت أو نأتيك بعدها بربع ساعة. أبوك مدعو رسميا ومعه سعدي

يوسف وإبراهيم نصر الله. لن تستغرق إجراءات الدخول سوى دقائق". في المطار، اثنان من موظفي المجلس الأعلى للثقافة ينتظران لاستقبال الضيوف. هبطت الطائرة بسلام. مرت ساعة، ساعتان. يدخل أحد الموظفين إلى المنطقة الجمركية. يعود. يتصل بالمجلس. يدخل مرة أخرى. اتصل بتميم: "ما المشكلة؟ " يمكن عمك سعدي لأنه عراقي، يمكن بابا، لا أعرف" يظهر موظف المجلس وفى يده قطعة شيكولاته: " الأستاذ مُريد أرسلها لك، يعرف انك أتيت من الكلية مباشرة! "يتصل بالمجلس، يطلب منهم الاتصال بمكتب الوزير. يقف بجوار التليفون. بعد عشر دقائق يعاود الاتصال. يدخل إلى المنطقة الجمركية. بعد ساعة يظهر، متهلل الوجه هذه المرة. "خير؟ " عرفنا المشكلة، هناك تتطابق بين اسم الأستاذ مُريد في جواز السفر واسم ثاني على الكمبيوتر ممنوع من الدخول، تشابه الأسماء تسبب في هذا التأخير!" لم أعلق. واصلنا الانتظار حتى ظهر الفرسان الثلاثة: إبراهيم نصر الله- سمحوا له بالدخول وبقي تضامنا مع مُريد سعدي. وبعد ثلاث ساعات ونصف وافقوا على دخول سعدي-بقي مع إبراهيم نصر الله من أجل مُريد.

وأخيرا سُمح لمُريد بالدخول فخرج ثلاثتهم. وصلنا بيت شارع رامز قبل التاسعة بقليل.

ولأن ذلك كله يمر بهدوء فهو لا يمر.

الأمر أكثر تركيبا وهذه الكتابة تختزل. كم مرة حملتنا الطائرة برفق وسلام لنلتقي؟ صارت الطائرة المجرية- الوحيدة التي تذهب مباشرة من القاهرة إلى بودابست- أليفة كالأوتوبيس أو قطار الإسكندرية. تقلع بنا في الثالثة والنصف فجرا. نصل مطار بودابست في الصباح المبكر. يحملنا مُريد في سيارته. نقطع شوارع بشت ثم الدانوب في طريقنا إلى بودا في الضفة الغربية للنهر. نصعد باتجاه حي "الروجا دومب". نميل يمينا إلى شارع "فيرهالُم"، يهدئ مُريد سرعة السيارة. يتوقف أمام البقالة. يدخل تميم ويعود مبتهجا بأقراص الخبز التي أحبها منذ كان يتردد على الحضانة في المجر. نتجاوز البقالة إلى مجموعة البنايات السكنية. نمر من البوابة. عن يميننا شجرتا الجور العاليتان وأرجوحة الأطفال. ننحرف يسارا. يوقف مُريد السيارة. نحمل أمتعتنا. نصعد إلى الطابق الثالث. نفتح الباب على الأثاث الأليف. هذا أيضا بيتنا. المطبخ الصغير إلى يمين الداخل يطل على شجرتي

الحور وأرجوحة الأطفال. أنادي على تميم لتناول غذائه أو عشائه أو ينادي مُريد عليه: "يا تميم" أحيانا, وأحيانا "يا تمتم" أو"طماطم" (تحولت لاحقا إلى "طماطيش" ثم "مُكرّر" و"معقود" بعد زيارة للجزائر عرف فيها مُريد أن صلصة الطماطم في الجزائر الدارجة يطلق عليها: "مكرر معقود الطماطيش" فتوزعت الكلمات الثلاثة أسماء جديدة لتميم) يصيح مُريد بأعلى صوته: "معقود! مكرر!" فيأتي صوت تميم من تحت النافذة "نعم يا بابا!" في لحظات الغيظ أو التوتر: "يا زفت!" "نعم يا ماما!" يركض صاعدا إلى الطابق الثالث متوجسا من توبيخ ما على الطريق. يدق الجرس. أفتح الباب فيجدنا نضحك. هو أيضا يلتقط المفارقة، يضحك!

في الثالثة من عمره سيحصل تميم على عوده الأول، اشتراه له أبوه من تونس. ومن بودابست، من امرأة غجرية سمراء تبسط على مدخل سوق الخضرة القريب من الحضانة مصنوعاتها من القش والخيزران و الخشب سنشتري لتميم كرسيا صغيرا. يجلس عليه، يمسك العود، يرتجل تلك "الملاحم" المبكرة الطريفة التي يضمِّنها كل معارفه: من المكرونة إلى فلسطين.

نتناسى أنها زيارة لأسابيع معدودة تنتهي بانتهاء العُطلة. نستقبل الأهل والأصدقاء. سيأتي حسين مروة عام١٩٨٣ وفى العام التالي ناجي العلي. سيجلس تميم على كرسيه الصغير ويقدم عرضا فنيا لأبي نزار، حسين مروة؛ وعلى ورقة دفتر صغير يرسم ناجي حنظلة يمسك بوردة، يقول: صباح الخير يا تميم. يغادران. تنقل دار الإذاعة البريطانية في نشرتها خبر الاغتيال. حسين مروة في بيته في بيروت. أسمع الخبر في القاهرة. يسمعه مُريد في بودابست. خبر اغتيال ناجي العلي في لندن، نسمعه معا، من نفس الإذاعة، في "بلاطون فولدفار" قرية على شاطئ بحيرة البلاطون في المجر. كاتم الصوت في الحالتين. إميل حبيبي ولطيفة الزيات ماتا بالشيخوخة على سرير المرض. في بودابست أتت لطيفة لتميم ببيانو أحمر صغير. تربّع أمامه ودق عليه، عمره سنة ونصف، قال: "ارقصي يا لطيفة" ضحكت. قامت وخطت خطوتين. جلست وضحكت أكثر. بعدها بسنوات ضحك إميل عاليا وطويلا، يهتز جسمهن الممتلئ، يمسك بخاصرتيه: "من شان الله يا تميم، كفاية!" ولكن تميم يواصل قول نكته المصرية التي لا تنفذ. في مطلع التسعينيات سوف

ألتقي بإميل في مطار القاهرة. نتصافح، يعي كل منا الفجوة المستجدة بعد قبوله للجائزة التي منحتها له دولة إسرائيل. استلمها في يوم١٥ مايو، " يوم استقلال الدولة". بين الأعلام الإسرائيلية المرفرفة سيصعد إميل لمصافحة شامير ويتسلم جائزته. بعد خمس سنوات، كنا يوم ١٥مايو نفسه ستودع دمشق جثمان سعد الله ونوس. مشينا معًا في تلال بودا، حكى وحكيت عن الانسكاب البلّوري الذي أصابه وأصابني.

تفرقت المسالك وتشعبت الطرق. جميعهم رحلوا. تركنا بودابست.

الفصل الثالث عشر

رن جرس الباب. فتحت. ثريا، جارتي. دعوتها للدخول، ظلت واقفة بالباب:

- علي أن اشتري بعض الأغراض. متى تسافرين؟
- مساء الغد.
- سمعت الأخبار؟
- لا
- بشير الجميّل مات. بالأمس قالوا أنه أصيب في انفجار بيت الكتائب. هذا الصباح، سمعت الأخبار، قالوا إنه مات.

ذهبت. أغلقت الباب. الساعة تقترب من الحادية عشرة. مُريد في المكتب وتميم في الحضانة. لم أفتح الراديو ولا التلفزيون لمعرفة التفاصيل واصلت الإعداد للسفر.

مساء اليوم التالي، الخميس. حملنا مُريد في سيارته اللادا إلى المطار. أقلعت بنا الطائرة في العاشرة والنصف مساء. تميم شديد التأثر لمفارقة أبيه، أشاغله بالحديث عن المدرسة الجديدة التي سيدخلها، عن أهلنا وأصدقائنا الذين ينتظروننا في القاهرة، عن زيارتنا القادمة لبودابست."في

أجازة نص السنة، تلعب في الثلج مع أصحابك". ظل صامتا ثم استغرق في النوم. أرجعت ظهر مقعدي إلى الخلف قليلا. أغمضت عيني. في طريقي إلى القاهرة بعد عامين من الإقامة في بودابست. جئت إليها في أعقاب عمليتين جراحيتين كبيرتين. العام الأول فيه متسع، للنقاهة، للكتابة، لحياتنا معا. العام الثاني مضغوط بما يحمله، حقيبة منتفخة ثقيلة تكاد تنفزر من كثرة المحشور فيها: إصابة في الرئة اليمنى. المستشفى. المستشفى مرة أخرى. في مصر الاعتقالات. طرد من الجامعة. مقتل رئيس. تولي آخر. إفراج عن المعتقلين. قرار جمهوري بعودة الأساتذة المفصولين. اجتياح لبنان، حصار بيروت. رحيل المقاومة الفلسطينية. سفن وشاحنات وأرز ودموع. جراحة جديدة. مُريد يلوح لنا مودعا. أخيرا الطائرة.

هبطت في لارنكا. بعد ثلاثة أرباع الساعة أقلعت في طريقها إلى القاهرة. وصلناها في الثانية والنصف فجرا. في الرابعة وصلنا إلى البيت. تميم يكرر: "بابا وحشني". جلَسْنا معا في الصالة، انتظرنا حتى طلوع النهار. يتسلل الضوء

من السواتر الخشبية للنوافذ وكذلك زقزقة العصافير. بدا المكان اقل وحشة فدخلنا لننام.

نمت نوما متقطعا ولما استيقظت انهمكت في فتح الحقائب وترتيب الملابس وشراء الضروري من المأكولات. في المساء جاءت أمي لزيارتي وأيضا بعض الأصدقاء. لم أشتر الجرائد. لم أفتح المذياع. صباح السبت كان علي أن أذهب إلى طبيب- قبل سفري بأسبوع أجريت لي جراحة صغيرة كانت تستلزم تغيير الضمادات والمتابعة- بعدها ذهبنا إلى بيتنا في المنيل. هناك لمحت عناوين الصفحة الأولى في الأهرام. لم أقرأ التفاصيل. أعتقد أنني لم أعرف ما جرى إلا في اليوم التالي: يوم الأحد ١٩، أقصد احتلال الإسرائيليين لبيروت والمذابح. ولا أدري لماذا ارتبطت ذاكرة ما حدث في تلك الأيام في بيروت بكل التفاصيل المحيطة بالسفر كأن عدم متابعتي وانتباهي أيام الأربعاء والخميس والجمعة من الخطايا التي لا تنسى ولا تُغتفر. تبقى متصدّرة في الذاكرة. أعرف أن في الأمر مفارقة ساخرة ومُرة لان متابعتي للحدث أو عدم متابعتي له لا وزن لهما فالمحصلة النهائية عجز مطلق في الحالتين، وقهر، ولا شيء

آخر. ومع ذلك يبقى أن الانهماك في الحدث يؤكد أننا ننتمي له وللقتيل هناك الذي هو قتيلنا. لا ليس تماما. أقصد ليس التعبير معادلا لما شعرت وما زلت أشعر به. ربما شعور مقارب لشعور حماتي كلما فكرت أن ابنها منيف، أكبر أولادها، كان ملقى على الرصيف في شارع من شوارع باريس ينزف دما ويموت. تحاول آن تتذكر ما الذي كانت تفعله يوم الاثنين في الحادية عشرة ليلا. هل كانت نائمة؟ كيف كانت نائمة؟ تكاد الفكرة تحيلها إلى الجنون، يصبح النوم ذنبا، وعدم المعرفة لا يشفع في الذنب بل يكرّسه.

عندما دقت ثريا الباب صباح الأربعاء ونقلت لي خبر قتل بشير الجميّل كان إريال شارون، الرجل البدين الذي يحب الكلاب ويكره العرب، يقف على سطح بناية عالية بالقرب من السفارة الكويتية في بيروت يراقب المدينة والمخيمات. بعدها اتصل ببيغن وقال: "قواتنا تتقدم نحو أهدافها. أستطيع أن أراها بأم العين". أتم شارون الاتصال ثم ذهب إلى بكْفيّا لتقديم واجب العزاء في بشير الجميّل. لا أذكر متى نمت ليلة الثلاثاء ومتى استيقظت صباح الأربعاء ولكنني الآن أعرف أن الإسرائيليين، طوال ليلة الثلاثاء على

الأربعاء، كانوا ينقلون عتادهم ومظلييهم عبر جسر جوي مكثف يصل مطاراتهم بمطار بيروت. في الفجر كنت نائمة, بدأت القوات الإسرائيلية التي تطوق بيروت الغربية من الضاحية جنوبا ومن المرفأ شمالا دخول المدينة. الأربعاء- الخميس أعد للسفر، أغسل ملابسنا، أكويها، أشتري ألواح شيكولاته صغيرة عليها رسوم طريفة يحبها تميم، سأعطيه منها وهو ذاهب إلى المدرسة. سقطت بيروت. الدبابات الإسرائيلية في شارع الحمراء. في الفاكهاني. في كورنيش المزرعة. ظهر السبت كانت القوات الإسرائيلية استولت على كل بيروت ومكنت رجال الكتائب وسعد حداد من قضاء أربعين ساعة في مخيمي صبرا وشاتيلا. استخدموا الرصاص والفئوس والبلطات والسكاكين. قتلوا. ذبحوا. اغتصبوا. حطموا الرءوس. قطعوا الأطراف. مثلوا بالجثث. نهبوا ما أمكن نهبه من أموال وحلي. السبت: أُنجزت المهمة. تركوا المخيم. الأحد: الجرافات. الجثث. الذباب،. كمامات رجال الإسعاف. عدسات مصوري وكالات الأنباء. نساء يندبن. دبلوماسيون أجانب يتنقلون بخطى ثقيلة بين الأزقة.

ليلة الخميس على الجمعة. الطائرة في الجو. عبر النافذة ظلام مطبق تقطعه مؤشرات ضوئية متقطعة. في بيروت تُقطع الكهرباء، يُخيّم على المدينة ظلام كامل تقطعه بدءا من منتصف الليل صواريخ مضيئة موجّهة إلى المخيمات. في الحادية عشرة ليلا- بعد ساعة من إقلاع الطائرة من مطار بودابست- يُبلِّغ قائد القوات الكتائبية التي دخلت شاتيلا تقريره إلى القائد الإسرائيلي: "قتلنا حتى الآن ٣٠٠ مدني وإرهابي". حصيلة الساعات الست الأولى. الحصيلة النهائية، لم يمكن تحديدها بهذه الدقة. أمكن لمصادر الحكومة اللبنانية أن تحصر ٢١٢ جثة دفنت في المقابر الجماعية بعد الفشل في تحديد هويات أصحابها ٣٠٢ جثة تم التعرف عليها و إحراقها بواسطة فرق الإسعاف. ٢٤٨ جثة دفنت بواسطة الصليب الأحمر. حوالي ١٢٠ جثة تعرف عليها أهلها ودفنوها في مقابر خاصة. كانت هناك جثث أخرى- يقدر عددها بالمئات- تحت الأنقاض، وجثث دفنها رجال الكتائب وسعد حداد في حفر جماعية، أثناء المجزرة، لم يسمح، بعدها، بنبشها. وأكثر من ألف رجل- قدرت الصحافة الفرنسية عددهم بألفين- حُملوا في شاحنات نقلتهم إلى جهات

غير معلومة. غابوا إلى الأبد. فقد المخيم في أربعين ساعة ما يقرب من ربع سكانه. وطوال الأربعين ساعة سيتابع الإسرائيليون ما يجرى عبر مناظيرهم المكبرة، من مواقعهم المشرفة على أسطح البنايات الثلاث المتاخمة. لاحقا سوف يشهد أحد ضباطهم: " كنا نرى كما يرى مشاهدو الصف الأول خشبة المسرح".

سوف ترى الحكومة الإسرائيلية ضرورة نشر ما يبرّئ إسرائيل مما حدث. نُشر البيان كإعلان مدفوع الأجر في كل من"النيويورك تايمز" و"الواشنطون بوست" تحت عنوان: "مؤامرة دموية":

"أثناء رأس السنة، حيكت ضد الدولة اليهودية وحكومتها وضد جيش الدفاع الإسرائيلي مؤامرة دموية حقيقية. ففي مكان بعيد عن موقع جيش الدفاع الإسرائيلي دخلت وحدة لبنانية إلى مخيم للاجئين، حيث كان يختبئ الإرهابيون، بهدف القبض عليهم. اعتدت هذه الوحدة على السكان، وأوقعت عددا كبيرا من الضحايا في صفوفهم. ونحن نسجل هذه الواقعة بحزن وبأسف عميقين. وما كاد الجيش الإسرائيلي يعرف بما جرى في مخيم شاتيلا حتى بادر إلى

وقف سفك دماء المدنيين الأبرياء، وإلى إرغام الوحدة اللبنانية على مغادرة المخيم.

ولقد بادر السكان المدنيون أنفسهم إلى التعبير صراحة عن عرفانهم بالجميل لعملية الإنقاذ التي قامت بها قوات جيش الدفاع الإسرائيلي. إن كل الاتهامات الصريحة والمبطنة التي زعمت أن الجيش الإسرائيلي يتحمل أي قسط من المسئولية في هذه المأساة اتهامات لا أساس لها من الصحة ترفضها الحكومة وتنظر إليها بازدراء. لقد ثبت أنه لولا تدخل الحكومة الإسرائيلية لكان عدد الضحايا اكثر بكثير مما هو عليه الآن.

ومن جهة أخرى، فان تساحال (الجيش الإسرائيلي) قام بعملياته ضد الإرهابيين في بيروت الغربية مدة يومين على التوالي دون أن تصدر شكوى واحدة تفيد الاعتداء على المدنيين من السكان.

وفى هذه الأثناء اتضح أن الإرهابيين خرقوا اتفاق الجلاء وابقوا في بيروت الغربية ٢٠٠٠ إرهابي فضلا عن مستودعات سلاح كبيرة بها دبابات ومدافع هاون وكميات هائلة من كل أنواع الذخيرة.

وكان هدفهم من كل ذلك متابعة أعمال الإرهاب الدموية ضد إسرائيل وغيرها من الشعوب، انطلاقا من بيروت الغربية.

وبرغم التشهير الذي يجد له تجاوبا داخل البلاد ذاتها فإننا ندعو الشعب إلى الالتفاف حول حكومته المنتخبة والتي تناضل من اجل ضمان الأمن والسلام لإسرائيل وجميع سكانها. لن يعطينا أحد دروسا في الأخلاق وفى احترام الحياة الإنسانية وهى القيم التي قادت خطواتنا والتي في ضوئها سنواصل إعداد أجيال من المقاتلين في إسرائيل"

"عبء الرجل الأبيض" مرة أخرى! الجيش الإسرائيلي (اسمه جيش الدفاع) جيش إنقاذ. "إن دخول الجيش الإسرائيلي (إلى بيروت) يحمل السلام والأمان، ويحول دون مجزرة يتعرض لها السكان الفلسطينيون في القسم الغربي من بيروت". شارون للمبعوث الأمريكي دريبر. "دخولنا إلى بيروت حال دون وقوع كارثة" رافائيل اتان، رئيس الأركان، للصحافة الإسرائيلية. ليس الاستعمار الكلاسيكي وحده، هم أيضا في حاجة لاعتماد صورة أخلاقية عن الذات. ربما كانت حاجتهم أكبر لأنهم يهود يحملون تراث الضحية

المتطلّعة إلى العدل. لابد أن تعكس المرآة نبل الوجه وسموه الأخلاقي. الوجه القديم، المعتمد. الكارثة أن تسقط فجأة على المرآة بقعة ضوء مباغتة فيرى الوجه ذاته غير ذاته فيفزع أو يدير ظهره أو يمد يده ليكسر المرآة لأنها حقيرة وكاذبة. في الكنيست أعلن شارون: "كل محاولة لربط هذه القصة التعيسة بجيشنا، بما في ذلك المطالبة بتعيين لجنة تحقيق هي تجنٍّ يرتكب في حق جيش الدفاع الإسرائيلي، في حق المسئولين عنه، وفي حق الشعب الإسرائيلي بأسره" قد يبدو هذا التصريح طبيعيا لأن شارون وزير الدفاع المسئول الأول في عملية اجتياح لبنان ودخول بيروت ومذابح صبرا وشاتيلا يدافع عن نفسه وعن المؤسسة العسكرية التي يرأسها. ولكنه قد يكتسب معنى أعمق في ضوء ما كتبه إسرائيليون في إدانة المذبحة. قال أحد الجنود "إن مرأى أكوام الجثث في مخيمي بيروت جعلني أخجل، لأول مرة، من انتمائي للجيش الإسرائيلي. "وقال أحد الصحفيين: "هذه المجزرة جعلت من حرب لبنان الكارثة الكبرى التي حلت بالشعب اليهودي منذ المحرقة." وقال أحد الأدباء: "يا سيد بيغن، بضربة واحدة خسرت ملايين الأطفال اليهود الذين كانوا كل ما تملك على

الأرض. إن أطفال أوشفتز لم يعودوا ملكا لك. لقد هدرتهم. بعتهم دون ربح." كان بإمكانهم جميعا إدانة المجزرة وربما سهّل عليهم ذلك أن الأيدي نفذتها لكم تكن إسرائيلية، وأن الغزو كان لأرض مجاورة اسمها لبنان أما الخطيئة الأصلية التي سمحت لهم بإقامة دولتهم فهذا ما لا طاقة للمرآة على احتماله، كان على المرآة أن تحتفظ بالصمت، ربما ببعض الظلال، ذلك إن غالت في جرأتها. قليلون هم اليهود القادرون على الصياح على طريقة طفل أندرسون بأن الملك الذي يتفنن الكل في الإطراء على روعة ملابسه، عار تماما. وهذا ما سوف يتلقطه نعوم شومسكي الكاتب اليهودي الأمريكي حين يصف إلي ويزل بأنه أفّاق بشع، فويزل الحاصل على جائزة نوبل وعلى جوائز عالمية عديدة والذي كتب مجلدات ضد الصمت وفصّل تجربة يهود المحرقة وهو الناجي منها لا يرى مفارقة في صمته المطبق إزاء ما يحدث للفلسطينيين ولا في ارتباطه وعمله في الأربعينيات مع الإرغون أكثر العصابات الصهيونية عنصرية وإرهابا. سوف يتشبث مئات المثقفين اليهود بفكرة التراث الأخلاقي لليهود. سوف يواصلون اعتماد الهوية العتيقة مُسقطين

المحتوى المستجد لكلمة يهودي: محتوى صنعته دير ياسين وبحر البقر وتكسير العظام وقانا. إنها هوية مستجدة لا تملك المرآة إلا طمسها.

في قرطبة، قبل خمسة أعوام، وعلى مدخل مسجدها الجامع رأيت رجلا إسرائيليا وامرأته وبدا لي، رغم أنني لا أعرف اللغة العبرية، أنهما يتشاجران. تساءلت إن كان القبح البادي على وجهيهما إسقاطا لمشاعري عليهما أم أنهما فعلا قبيحان. مزيج من الغلظة والفجاجة وشئ آخر منفّر لم أستطع تحديده. في داخل المسجد- الكنيسة رأيت مجموعة كاملة من السواح الإسرائيليين. لم يكن أحد منهم يتشاجر، كانوا ينصتون لمرشد سياحي. راقبتهم لحظات. ابتعدت. لا ليس إحساسي بالقهر، شيء في الوجوه، في الحركة، في نظرة العين، ما هو؟ لعلها هذه المرآة، لعله الكذب أو التنكر لحلم العدل القديم والادعاء بأنه قائم. وربما شيء آخر. أيتذكر الآن مقال جان جنيه: "أربع ساعات في شاتيلا" كنت ترجمته من الفرنسية إلى العربية مع الدكتورة أمينة رشيد في عام١٩٨٣.

يقول جنيه: "قبل حرب الجزائر، في فرنسا، لم يكن العرب يتسمون بالجمال فهيأتهم ثقيلة، وخطواتهم متباطئة، ووجوههم معوجة. وفجأة حلاهم النصر. ولكن قبل أن يتحول ذلك النصر إلى شيء مبهر، عندما كان أكثر من نصف مليون جندي فرنسي يلقون حتفهم وينتهون في الأوراس وفي الجزائر كلها كان بالإمكان ملاحظة تلك الظاهرة الغريبة التي تعتمل على وجه العمال العرب وفى أجسادهم: شيء كجمال يقترب، كحدس بجمال مازال هشا وإن كان سيخطف الأبصار عندما تسقط القشور عن جلودهم وأعيننا. وكان لابد من قبول ذلك الأمر الجلي: أنهم تحرروا سياسيا ليظهروا بالشكل الذي ينبغي علينا أن نراهم به، غاية في الجمال. كذلك أيضا كان الفدائيون الهاربون من مخيمات اللجوء، الهاربون من المخيمات ونظامها وقانونها الذي فرضته ضرورة البقاء. ولما كان هذا الجمال جديدا، أي وليدا، أي بريئا، فقد كان نضرا وحيا إلى حد اكتشافه الفوري لذلك الذي يربط بينه وبين كل جمال في هذا العالم ينتزع نفسه من العار".

للعين العابرة يبدو ما يقوله جنيه مجرد تعبير بلاغي عن انحيازه ومحبته لثوار الجزائر وثوار فلسطين. ولكني أعتقد أنه بكلامه يصوغ قانونا إنسانيا عاما. قبله بأقل قليلا من سبعين عاما انتبه ييتس، الشاعر الأيرلندي، لنفس القانون حين كتب قصيدته الشهيرة عن انتفاضة ١٩١٦: ناس عاديون، يعرفهم: هذا جلف، وذاك سكير، وتلك عالية الصوت، سوقية مزعجة؛ يحملهم مجرى الحياة اليومية، يشاركون في ملهاتها السخيفة. "فجأة" تقول القصيدة، "يولد جمال مروِّع". يشتد بهم الحب. يُقْدمون. قلوبهم حجر يعترض المجرى. يُقتلون. "يتغيرون، يتغيرون تماماً: جمال مروعٌّ". إن هذا الجمال الذي رآه جنيه ومن قبله ييتس يقابله قبح يمليه التواطؤ والكذب. وكأن المرآة تنتقم من الصمت المفروض عليها فتترك للوجه والنظرة وحركة الجسم وإيقاع الكلام مهمّة فضح ذلك الشيء المتفسخ في الداخل والذي كان نضرا وحيا وبريئا ذات يوم، ولم يعد.

الفصل الرابع عشر

نبّهني تميم- وكنت أحدثه عن مفهوم "الكا" و"البا" عند قدماء المصريين- إلى أن العرب، في أيام الجاهلية وصدر الإسلام، كانت تعتقد أن روح القتيل تصير طائرا يحوم حول أهله صائحا: "اسقوني، اسقوني" حتى يأخذوا بثأره. قال تميم: كانت العرب تسمى هذا الطائر الهامة ربما لاعتقادها بأنه يخرج من رأس القتيل. كذلك تسميه طائر الصدى، والصدى تعني، فضلا عن رجع الصوت، العطش.

رجعت لكتاب "حياة الحيوان الكبرى" للدّميري فتأكد لي دقة ما قاله تميم. عرفت أن الهامة أو الصدى هو ذكر البوم، طائر من طيور الليل يخرج من بيته ليلا. يرتبط في بعض الحكايات بالقتيل ولا يقتصر، في بعضها الآخر، عليه. ويقول الدميري: "تزعم العرب أن الإنسان إذا مات أو قبل تتصور نفسُه في صورة طائر تصرخ على قبره مستوحشة لجسدها". ويرد تعبير"طيران الهامة" في بعض أبيات الشعر القديم، مزاوجا بين قطع الرأس والإشارة للطائر. والبُوّه، بضم الباء وتشديد الواو، طائر يشبه البوم إلا انه اصغر منه.

استوقفنا التشابه بين هذا المعتقد ومفهوم الروح أو البا لدى قدماء المصريين وقد صوروها على شكل طائر له رأس إنسان وأحيانا له ذراعاه أيضا. ترافق البا صاحبها إلى قبره ولكنها لا تبقى حبيسة معه فيه بل تنتقل بحرية بينه وبين عالم الأحياء، تزور أهل الميت أو الأماكن التي ألفها، تفي بحاجتها إلى الطعام والشراب والسفاد نهارا وفى الليل تعود إلى قبر صاحبها، تتوحد بجسده لتضمن لهذا الجسد الخلود.

تعرفت على "البا" وأنا أبحث عن مفهوم الكا" فوجدت أن الإشارة لأحدهما ترتبط دائما بالإشارة للآخر، وأحيانا ترد ضمن تناول تصور قدماء المصريين للشخصية الإنسانية. لم أجد ما كنت أبحث عنه، ولكنني عرفت بعض الأشياء، منها مثلا أن شخصية الإنسان تتكون من أجزاء خمسة: جسده وكاؤه وباؤه واسمه وظله. ولا يبدو أن ما وصل إلينا أو ما اكتشفه الدارسون حتى الآن يسمح بفهم كامل لهذه العناصر ربما لأنهم لم يجدوا في رصيدنا الحالي مفاهيم مقابلة لها. ولسوء الحظ فإن مفهوم "الكا"، وهو ما أبحث عنه، كان وما زال أكثرها غموضا ومدعاة للالتباس.

تُصور بعض النقوش القديمة هذا الفرعون أو ذاك ووراءه شخص يطابقه، ولعل هذه النقوش هي التي تسببت في ترجمة "الكا" في البحوث المبكرة بكلمة "قرين". فخنوم إله الخلق له عجلة دوّارة كعجلة الفخّارين هي أداته في صنع البشر، يستخدمها في تشكيل نسختين متطابقتين: جسد المولود الجديد وكاؤه التي تلازمه من يوم ميلاده إلى ما بعد الموت. في حياته يكون الإنسان "سيد كائه"، " يروح ويجيء معها"، وإن بقيت غير مرئية. تحمل " الكا" ملامح الشخص وصفاته، لها نفس الطول والعرض والمشية والضحكة، وترتدي ثيابا مطابقة لثيابه. قد تتركه ساعة نومه لتذهب في جولة هنا أو هناك تلتقي فيها كاءات أخرى تتحدث معها. وعلى غير "البا" التي تأخذ شكل طائر. يُرمز للكا بيدين مرفوعتين فوق الرأس ذلك لأن إله الشمس بدأ الوجود بأن، تفل من فمه زوج الآلهة الأول ووضع ذراعيه خلفهما فكللتهما كاؤه وفاضت عليهما بالحياة. لكل إذن كاؤه: الآلهة والملوك والبشر. لرَع أربع عشرة، وللفرعون أكثر من واحدة، أما باقي البشر فلكل واحدة. تولد معه، تلازمه في حياته، وحين يموت لا تموت معه. تصاحبه إلى قبره، تسكن في موميائه

أو تمثاله الجنائزي. يحمل لها الأهل ما تتقوت به من مأكولات لتبقى حية لأن في حياتها تأميناً لبعث صاحبها وخلوده.

يفسِّر بعض الدارسين "الكا" بأنها طاقة الحياة لدى الشخص، قوته الروحية، قدرته الإبداعية ولكن الغريب أن الكا لا تسكن في جسم الإنسان بل في اسمه، فهي تحّل فيه وهو يجسّدها. وتربط بعض النصوص بين الكا والاسم الذي لا يبلى رغم رحيل صاحبه. وتشير هذه النصوص إلى من يبقى ذكرهم في الأرض رغم أنهم لم يصنعوا لأنفسهم أهرامات من نحاس أو شواهد من حديد. لم يخلفوا ذرية ترثهم، تحمل أسماءهم وتكررها. استبدلوا بها جميعا ما أنتجوه من كتابات وأسفار وتعاليم تشهد على قوة كاءاتهم وبقاء أسمائهم بعد أن يطوي النسيان أقاربهم، ويموت الكهنة المسئولون عن قبورهم، وتتحول هذه القبور إلى أطلال.

لا أريد أن أدخل في تفاصيل جديدة حول الاسم والظل وعلاقة كل منهما بهذه "الكا" المحيّرة التي رحت أقرأ عنها وأنا أكتب هذه الرواية. استسهل البعض ترجمة "الكا" بكلمة قرين ولكن ما معنى كلمة قرين؟

عدت إلى "لسان العرب" فوجدت أن ابن منظور المصري أفرد لقَرَن ثلاث عشرة صفحة. للكلمة واشتقاقاتها عشرات المعاني منها، القرين: المصاحب، وتعني أيضا الأسير وفي الحديث: أنه عليه السلام، مر برجلين مُقترنين فقال: ما بال القران؟ قالا: نذرنا، أي مشدودين أحدهما إلى الآخر بحبل. والقَرن، بالتحريك، الحبل الذي يشدّان به. . . وقوله تعالى: وآخرين مُقرّنين في الأصفاد" والقَرنُ: مثلك في السن، تقول هو على قَرني أي على سني. الأصمعي: هو قَرْنه في السن، بالفتح، وهو قِرْنه، بالكسر، إذا كان مثله في الشجاعة. والقَرَن: الحبل يقرن به البعيران. . . وقال:

أبلغ أبا مسمعٍ، إن كنت لاقيه، إني، لدى البابِ، كالمشدود في قَرَنِو القرين: صاحبك الذي يقارنك. . . والقِرن، بالكسر: كفؤك في الشجاعة والحرب، والقَرن بفتح القاف، الحصن، وجمعه قرون... والقرون والقرونة والقرينة والقرين: النفس".

هل الكا تجسيد للنفس؟

وأين موقع شجر من ذلك كله؟ ولماذا أريد ان يكون لهذه الرواية نفس العنوان الذي اختارته شجر لكتابها عن دير

ياسين؟ ليس العنوان متطابقا، ليس تماما، عنوان كتابها "الأطياف"، اسم معرفة، استبدلت به كلمة "أطياف" مجردة من أداة التعريف. أغلق الجزء السادس والأخير من "لسان العرب" حيث كلمة قرن، وأفتح الجزء الرابع بحثا عن ما يضيفه لي ابن منظور. خمس صفحات يفصل فيها معاني واشتقاقات كلمة طوف.

اقتبس منها:

"طاف بالقوم وعليهم. . . استدار وجاء من نواحيه. وأطاف فلان بالأمر إذا أحاط به، وفي التنزيل العزيز: يطاف عليهم بآنية من فضة.

وقيل: أطاف به حام حوله وأطاف به وعليه: طرقه ليلا. . .

قال الفرّاء: الطائف والطيف سواء، هو ما كان كالخيال والشيء يلم بك. . . وروي عن مجاهد في قوله تعالى إذا مسّهم طائف قال: الغضب. . . قال أبو منصور: الطيف في كلام العرب الجنون. . . وقيل للغضب طيف لأن عقل من استفزه الغضب يعزُب حتى يصير في صورة المجنون الذي زال عقله. . . وطاف في البلاد طوفا وتطوافا وطوّف: سار

فيها. . . وقال أبو الهيثم الطائف هو الخادم الذي يخدمك برفق وعناية. . .

والطائفة من الشيء: جزء منه. . . الطائفة الجماعة من الناس وتقع على الواحد كأنه أراد نفسا طائفة. . .

والطوف. . . خشب يشد ويركب عليه في البحر والجمع أطواف. وقال أبو منصور التي يُعبر عليها في الأنهار الكبار تُسوّى من القصب والعيدان يشد بعضها فوق بعض ثم تقمّط بالقُمُط حتى يؤمن انحلالها، ثم تركب ويعبر عليها.

والطوفان: الماء الذي يغشى كل مكان، وقيل المطر الغالب الذي يغرق من كثرته، وقيل الطوفان الموت العظيم. وفى الحديث عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: الطوفان الموت، وقيل الطوفان من كل شيء ما كان كثيرا محيطا مطيفا بالجماعة كلها كالغرق الذي يشتمل على المدن الكثيرة. والقتل الذريع والموت الجارف يقال له طوفان. . . ويقال لشدة سواد الليل.

وتحت طيف يكتب ابن منظور: طيف الخيال: مجيئه في النوم. . . وأطاف لغة. . . والطيف: الخيال نفسه. "

لا أظن أن شجر رجعت إلى" لسان العرب". كان الكتاب المنسوخ على الآلة الكاتبة يحمل عنوان: "دير ياسين: تحقيق حول مجزرة" ولكنها في ذلك الصباح وهي تحتسي قهوتها، قبل أن تغادر بيتها للقاء الناشر، غيرت العنوان إلى "الأطياف: رواية دير ياسين". هل كان السبب مجيء عزيزة ونزيهة وباسمة زهران في الحلم تلك الليلة؟ أم كانت تربط، بوعي أو بلا وعي، بين زائرات الليل ورحلة أخرى شغلتها طويلا في صباها حيث العبور في النهر المستتر من ضفة إلى ضفة؟!

الفصل الخامس عشر

ماذا تفعل شجر؟

تكتب كتابا في التاريخ.

الكلمات تختزل. تكذب. كيف تفسر الأصوات التي لازمتها، كلمات حياة البلبيسي، منديل باسمة زهران، عمر؟ جاءها في المنام، لم يكن ابن عامين بل كان مثلها كبيرا. "الموتى لا يكبرون" تمتمت شجر. المصعد معطل. تنزل الدرج الذي صعدته إلى قسم المصنّفات الفنية بوزارة الثقافة. يفحصون الأشرطة الواردة من خارج البلاد. في الطابق التاسع ببناية في القصر العيني، تتسلمها. توقّع. تراسل أصدقاء تعرفهم وآخرين لا تعرف إلا أسماءهم ووظائفهم. يحمل لها ساعي البريد أوراقا مصورة أو كتابا أو فصلا من كتاب. يصلها على الفاكس صفحة من جريدة، شهادة بخط اليد، أخرى منسوخة على آلة كاتبة: كلامهم منقولا إلى الفصحى. لماذا؟ الأشرطة: نص كلماتهم بلغتهم اليومية الدارجة، تحملها بحرص أكبر.

عجيب أمرك يا شجر، تسعين بقدميك إلى الأطياف. تعودين بهم إلى البيت. تنصتين. لم تتفرغي لشيخوختك بعد

يا شجر. هل صرت جدتك القديمة، تُبقين حديثهم في صدرك أو تحكين بعضه القليل للصغار المجتمعين على العشاء؟ تنزل على الدرج. تذهب إلى بيتها. تنصت. حملان، لا حول لها ولا قوة إزاء سكين الجزّار؟ كذب:

شكّلنا لجنة طوارئ لتنظيم الدفاع عن القرية. أقمنا استحكامات. نظّمنا الحراسة الليلية: تناوبنا على الحراسة من السادسة مساء إلى الثانية عشرة ليلا، ومن الثانية عشرة ليلا إلى السادسة صباحا. حفرنا خنادق في مدخل القرية جهة الشرق، من ناحية جيفعات شاؤول. نقلنا أحجارا كبيرة من الكسارات: قطعنا الطريق من ناحية المدرسة. أوكلنا إلى علي قاسم وهو من المحاربين القدامى في ثورة ١٩٣٦وصلاح عَبِد الذي عمل في قوة الحدود البريطانية مهمة تدريب شبابنا. أرسلنا مجموعة منهم إلى مصر لشراء الأسلحة. سافروا وعادوا بخمسة وعشرين بندقية ومدفعي رشاش طراز ستين.

خليل سمّور:

بلغ سعر البندقية٥٥ جنيها وهو المرتب الشهري لكبار موظفي حكومة الانتداب العرب. بلغ سعر المخزن الواحد

للبندقية (٥طلقات) ٥٠قرشا وهي أجرة يوم كامل للعامل العربي العادي. نساء القرية تبرعن بحلّيهن لشراء الأسلحة.

حسين عطية:

حملت معي إلى مصر ١٠٠٠جنيه فلسطيني. اتصلت بالسماسرة. أخذوني إلى المنصورة. اشتريت خمس بنادق مع ذخيرتها. اعتقلتني المخابرات المصرية. صادرت السلاح والذخيرة. أفرجت عني بعد اتصالات مع قيادة الجيش المصري. تولّى الجيش نقل السلاح. سلّمه لي في رفح وضعته في صناديق في سيارة شحن تحمل خضارا إلى القدس، ومنها إلى عين كارم، ومن عين كارم على الدواب إلى دير ياسين. وصلتها يوم الأحد ١٩٤٨/٤/٤.

عادوا من مصر. المعارك مشتعلة في القسطل. بمقدور الصغار متابعة تفاصيلها من فوق أسطح الدور. سقطت القسطل. استعدناها. وصلت تعزيزات من الهاغاناه إلى المهاجمين اليهود. حاصرونا. يوم الثلاثاء ٤/٦ أرسلت القسطل تطلب النجدة من القرى المجاورة. توجه ١٢شاب من دير ياسين للمشاركة في الدفاع عنها.

الضابط الإسرائيلي عوزي نركيس:

وصلت القسطل يوم الخميس ٨ إبريل لإمداد القوات بالمؤن والذخيرة. سألت إذا كانت الأمور تسير على ما يرام. قالوا أمورنا ممتازة والمعنويات عالية. جعلنا العرب ينسحبون ولا خسائر من جانبنا، ولكن توجد جثة واحدة هناك. ذهبت إليها. ما زلت أتذكر هذه الجثة: ممدّدة على بطنها في الحقل في رداء بني فاتح. لم نكن نعلم من هو صاحبها ولكنه كان يحمل معه مصحفا. أخذت المصحف وغادرت.

زينب عطية (أم صلاح) :

لما شباب بلدنا ذهبوا إلى القسطل غنينا للمجاهدين وفرحنا بأخبار انتصار عبد القادر الحسيني. لم نعلم أنه استشهد وأن القسطل سقطت إلا من واحد من بلدنا اسمه يوسف احمد عليا، قال لنا: "مثل ما غنيتن، راح تبكين بدل الدموع دم".

الحاج محمد محمود أسعد:

فوجئنا بنبأ استشهاد عبد القادر الحسيني. . . كبار رجال القرية جمعوا الشباب والرجال الذين يحملون

السلاح. . . تم توزيعهم على المواقع الرئيسية في القرية وعلى وجه الخصوص البوابة الشرقية والتي تحدّ مستعمرات جفعات شاؤول/ منتفيوري/ بيت هكيريم/ بيت فجان.

أم عيد:

يوم الخميس ليلا سمع زوجي محمد عيد نعي عبد القادر الحسيني من جهاز راديو بالبطّارية. تحمم ونام. قمت بإخراج البابور بعد تنظيفه. شعرت بحركة في العتمة. خفت. اندفعت إلى داخل البيت. طرقت الباب بشدة أيقظت زوجي. هدّاني. رضّعت الولد. نمت.

عزيزة إسماعيل عطية:

لم أنم. من سطح دارنا رأيت تجمعا في جيفعات شاؤول. لم يكن زوجي بالبيت، كان يقف مع أخيه أحمد في نقطة حراسة عند الكسارات في المداخل الشرقية للقرية وكان الصغار نائمين. لم أتمكن من النوم. حملت صينية العجين وأغلقت الباب على الصغار واتجهت إلى فرن القرية. كان الساعة حوالي الثانية صباحا.

أم عزيز:

لم ينم أحد في تلك الليلة. . . ذهبت مع عدة نساء من الحي كعادتنا نحمل العجين لنعدّ الخبر في الطابون. خبزت الطرحة الأولى سبعة أرغفة. وضعت الطرحة الثانية سبعة أرغفة أخرى. بقيت في الطابون. لم أخرجها.

إسماعيل محمد عطية:

في الثانية والنصف فجرا شاهدت أضواء كاشفة لسيارات تغادر المستعمرات وتعود إليها أمام دارنا المطلة على الوادي والساحة في جنوب شرقي القرية. ذهبنا إلى الطريق الرئيسية لاستطلاع الأمر. توقفت الحركة بدا كل شيء ساكنا والظلام مطبقا. عدنا إلى مركز حراستنا قدّام الدار.

حسين عطية:

سمعنا وقع أقدام قادمة من الجهة الشمالية الشرقية. كنا نقف على تلة مشرفة على الطريق الرئيسي، في مواجهة جيفعات شاؤول. توقفت الحركة وساد السكون. ثم سمعنا إطلاق النار خلفنا وسط البلد، عند مراكز ابن العم إسماعيل عطية وابنه محمود.

الحاج محمد محمود أسعد:

في الساعة الثالثة والنصف سمعنا طلقات نارية وصوت محمود إسماعيل عطية يصيح: "يا أهل البلد هاجمونا اليهود، هاجمونا اليهود".

حسين عطية:

بعدها مباشرة طلعت علينا مجموعة ثانية يهودية من الشمال، من عند المدرسة. بدأت المعركة بيننا وبينهم، وفي حارات وسط البلد. انتقلنا إلى دار الحاج أحمد رضوان المشرف على المدخل الشرقي للقرية. تمركزنا على سطح الدار. رأينا مصفحة إسرائيلية تقترب ووراءها عشرة مقاتلين ثم مجموعة أخرى مهاجمة تلحق بهم.

عزرا ياخين، الضابط الإسرائيلي المسئول عن مرافقة العربة المصفّحة:

اصطدمت العربة بالحفرة. كان علينا ان نردمها حتى نتمكن من الاستمرار. ثم وجدنا حفرة أخرى. وفي مدخل القرية حفرة ثالثة. قررنا أنه لا فائدة من الاستمرار.

أبو توفيق ياسيني:

عبروا حتى وصلوا المدرسة وكنا وضعنا بعض الأحجار ولم يستطيعوا التقدم أكثر. ترك أحدهم العربة وبدأ يرفع الأحجار. صوّب عليه واحدا من شبابنا وأصابه. جذبه زملاؤه تحت العربة وادخلوها فيها.

أبو محمود:

شغّلوا مكبر الصوت من المصفحة المحشورة في الخندق. حاولوا إرهابنا حتى نغادر القرية ونهرب. أخذ مكبر الصوت يكرر: "أوقفوا القتال، انسحبوا. أنجو بحياتهم، ألقوا أسلحتكم".

حسين عطية:

استمر تبادل إطلاق النار. أصيب رضوان أسعد. بدأت ذخيرتنا إلى الأعالي الغربية للقرية بعد أن نجحنا في وقف المجموعة المهاجمة من المداخل الشرقية للقرية.

جمعة زهران:

خرجت من الدار لصلاة الفجر حوالي الرابعة. سمعت قرقعة. لم أعرف مصدرها بسبب الظلام. كان الجو غائما وبدأ رذاذ المطر. وحين بدأت المعركة في حوالي الخامسة لم يكن معي سلاح لان السلاح كان مع والدي الحاج محمد،

ومع أخي علي، وابن أخي محمد موسى. بعد الطلقات الأولى قُتل والدي. أخذت منه البندقية الإيطالية. فوجئت باليهود أمام بيوتنا. استحكمت خلف جدار وأخذت أطلق النار. انقضّ علي أحد المهاجمين يريد سحب بندقيتي. تعاركنا بالأيدي. تغلّبت عليه. أطلقت عليه النار. أصبته. انصب علي وابل من الرصاص. انسحبت إلى الأعالي الغربية للقرية. كان المقاتلون من شباب القرية تمركزوا هناك. بعدها لم أر أيا من أفراد أسرتي وعائلتي ولا بيتنا.

أبو محمود:

ألقوا قنبلة يدوية داخل دار زهران فاحترقت الدار بمن فيها: ٢٨فردا من أفراد الأسرة قتلوا في الحال.

فقد جمعة زهران زوجته بسمة أسعد رضوان وأطفاله الخمسة: فاطمة وصفية وشفيقة وفتحي ورسمية، أكبرهم في الثامنة من عمرها والأصغر لم تتم عامها الأول.

فقد جمعة أباه الحاج محمد زهران وأمه فاطمة وزوجة أبيه حَمْدَة. فقد جمعة زوجة أخيه الأكبر موسى وأولادهما الأربعة.

فقد جمعة أخاه الأصغر علي محمد زهران وابنه محمد علي.

فقد جمعة زوجة عمه أحمد زهران وصغارهما الأربعة: الأكبر في العاشرة والأصغر عمره عامان.

فقد جمعة ابن عمه محمود، شاب في الثامنة عشرة من عمره.

أبو ياسين:

بقى عمري ثلاث عشر سنة وبقينا نايمين أنا واخوتي وأخواتي وأمي. أبوي بقى متوفى. صحينا في نص الليل على صوت الرصاص والمدافع من جميع الجهات. طلع أخوي يشوف شو صار وبعدين رجع بسرعة وأخذنا أنا واخوتي عشان يهرّبنا. أختي الزغيرة على ظهري والرصاص كان فوق روسنا مثل المطر. وصلّونا لعند طريق عين كارم ورجعت أمي وأخوي وكان معنا وقتها المعلمة حياة البلبيسي. وقفت وقالت: والله أنا مستحي من حالي واجبي بيحتم على أني أرجع وأسعف الجرحى على الأقل. ورِجعَتْ وما كملتش الطريق معانا.

بدأت المقاومة عند المداخل الشمالية الشرقية للقرية وفي دار الحاج إسماعيل عطية المشرفة على الوادي في جنوبها الشرقي. تمكن أولاد الحاج وأحفاده من صد المجموعة المهاجمة وهي تحاول اقتحام البوابة المقابلة للوادي. أرغموها على التراجع. ثم انخرطوا في مواجهة المجموعة القادمة من الشرق.

تركّزت المقاومة في الأعالي الغربية المشرفة على القرية كلها. النيران تنصبّ على المهاجمين من أربعة مواقع: من بيت علي قاسم في أقصى غرب القرية. ومن بيت محمود رضوان وبيت أخيه حسن رضوان في شمالها الغربي. ومن بيت أبي علي صلاح آخر بيوت القرية في طرفها الشمالي الغربي (لم تتوقف المقاومة من هذا البيت الأخير إلا عندما وصلت وحدة من الهاغاناه بمدفعين اثنين بوصة قصفت بهما البيت) .

الحاج محمد محمود أسعد:

استطاع علي قاسم أن يدحر المجموعة المهاجمة من جهة الغرب قبل أن يصاب إصابة خطرة وينقل إلى عين كارم.

حسن رضوان:

استيقظت على صوت الرصاص والصراخ، خرجت لاستطلاع الأمر. أخذت بندقية من ابن جاري. استحكمت أمام الدار، خلف جدار يُشرف على القرية كلها وعلى الطريق الرئيسية من جفعات شاؤول. كانت بندقيتي إنجليزية من مصر يحتوي مخزنها على خمس طلقات. وكان في منزلي حوالي ثلاثين مخزنا اشتريت ذخيرتها من هنا وهناك ومن بعض أهالي القرية. عند طلوع الشمس رأيت اليهود يأتون من الشرق، من عند بيوت زهران. كانت الساعة حوالي الخامسة. أخذت أطلق عليهم النار وهم يردون علي. . . في حوالي السابعة انضم إلى جمعة زهران وخليل سمّور وأخواه عبد المجيد وعبد الحميد.

في السابعة صباحا أرسل المهاجمون في طلب النجدة. جاءتهم من جفعات شاؤول. أسلحة. ذخيرة. قنابل يدوية. متفجرات. وحدتان من قوات الهاغناه ومدفعا هاون.

روفن غرينبرغ، من رجال الإتسيل (الإرغون)

كان العرب يقاتلون كالأسود. تفوقوا علينا في دقة القنص. كانت النساء العربيات يركضن من بيوتهن تحت

قصف النيران ويجمعن الأسلحة من المصابين من مقاتليهم ويحملنها إلى البيوت.

يهوشع غولد سميث، ضابط عمليات إتسيل:

فكرنا في الانسحاب. كانت المقاومة شديدة ولا نستطيع إخلاء جرحانا بسبب كثافة النيران. اقترحت تجميع القوة لمهاجمة كل منزل على حدة. نطلق عليه النيران بكثافة وتحت ساتر النيران يتقدم حملة المتفجرات لنفسه.

بتحيا زليفانكس، قائد قوة ليحى (شتيرن)

تقدمت كل مجموعة إلى الهدف. نسفنا الأبواب بأصابع غلغانيت. قذفنا قنابل يدوية إلى داخل الدور ورشقناها بالنيران.

موردخاي رعنان، قائد الإتسيل في القدس- شارك في الهجوم:

في الساعة الحادية عشرة نسفنا المنزل الأول. بعدها بربع ساعة المنزل الثاني. هكذا كل ربع ساعة منزل. اعتبرنا كل منزل حصنا قائما بذاته.

كالمان روزنبلانت (من رجال الهاغاناه الذين جاءوا لاحقا لنجدة المهاجمين) :

ألقينا القنابل اليدوية في البيوت قبل أن ندخلها.

ديفيد غوتليب (من رجال ليحي) :

حقق رجال الهاغاناه في ساعة ما لم نستطع تحقيقه في عدة ساعات. كان معهم أسلحة جيدة ولديهم خبرة قتالية.

الحاج محمد محمود أسعد:

في عين رواس، تحت شجر الزيتون كان يتواجد العديد من جنود جيش الإنقاذ العربي الذي انسحب من القسطل. طلب منهم أهالي القرية الفارين من الموت نجدة القرية. كانوا يسمعون دوي المدافع. كان ردهم: "لا توجد لدينا أوامر بالتدخل".

زينب محمد إسماعيل عطية (أم صلاح)

والدي وعمي تمركزا فوق سطح المنزل. . . تنبها إلى أن الجنود يقتربون من أبو العبد صلاح. كان يتوضأ في حوش داره المقابل لدارنا. حذراه فهرب إلى بيت ابنته المجاور. ولكن الجنود داهموه وقتلوا كل من فيه. كان عددهم ٢٧ شخصا. ابنة أبو العبد صلاح وزوجها وحماتها وحماها

وإخوة زوجها وعائلاتهم. . . أطلق والدي وجدي الرصاص في اتجاه الجنود فقتلا قائد الكتيبة وبعض الجنود، قصفوا الدار بمدافع الهاون، قتل والدي وجدي على السطح. اقتحموا بوابة الدار وطرقوا الباب. كنت مختبئة أنا وأطفالي وأخي الأصغر موسى. قالوا: "افتح الباب" لم أفتح. رموا قنبلة فأصيبت ابنتي مريم في قدميها. دخلوا البيت. أخوي موسى كان عمره ثلاث عشرة سنة، سحبوه من شعره إلى الحوش وركلوه بأرجلهم. أخرجت ٢٥٠ ليرة من عبّي وقدمتها إلى أحدهم مستجدية أن لا يطلق عليه الرصاص. تناول الفلوس بيد وأطلق الرصاص بالأخرى. ثم صرخوا في وجهنا يا ولاد الكلب اطلعوا. . .

هربت طفلتي مريم، كان عمرها ثلاث سنين، عندما رأت اليهود يقتلون خالها موسى إلى زوجة أبي في الطابق الثاني. وجدتها مذبوحة فهربت إلى الطابق الثالث. وجدت خالها محمود ينزف، طلب منها ماء. . . روت لي والدتي رحمها الله أن محمود ووالدي بقيا على قيد الحياة مدة ثلاثة أيام.

نزيهة أحمد أسعد رضوان:

دخلوا البيت. رجلان وامرأة مسلحين. قتلوا عمي رضوان. وضعونا أنا وجدتي وأخي عمر في قن الدجاج. ساروا نحو القرية. كان عمر عمره سنتين وأنا ثمانية. حملت ستي عمر على ظهرها وأخذتنا عبر بساتين الزيتون لنذهب إلى عمتي بسمة في دار زهران. قابلنا يهودي. أطلق النار على ستّي. سقطت على الأرض. سقط أخي عمر عن ظهرها. ركضت إلى دار عمتي بسمة. كان الحوش على وسعه كله جثث وباب الدار محروق والدخان طالع وعمتي على مدخل البيت مرمية ومن حولها جثث بناتها وابن عمتي فتحي، عمره ثلاث سنين. تحت رأس عمتي بركة دم ورأسها مكشوف وشالتها مرمية جنب رأسها. سمعت أنينا من الداخل وبكا من الناحية الثانية. ناديت فأجابني صوت يقول: "أنا فاطمة" فعرفتها لأنها بنفس عمري وكنا نلعب سوى. سألتني: "أنت مين؟ " قلت لها: "أنا نزيهة" قالت: "تعالى، أدخلي عندي" "قلت لها: " ماقدرش. بيتكم محروق. تعالي أنت بره "قالت: "ماقدرش. رأسي متصاوب. فيه دم. مش قادرة أمشي". رجعت إلى عمتي وضعت يدي على جبينها ورأسها.

حسست عليها. لقيت أيدي وشعري عليهم دم. انفزعت وركضت على ستي وتمددت جنبها وجنب عمر. ونمت.

نعمة زهران (أم محمد)

حطوا المدفع الساعة اثنين ونص. أول قنبلة، ثاني قنبلة وثالث قنبلة. . . الرابعة بعيد منك كيف النار، الدخنة، لا إحنا نشوفهم ولاهم يشوفونا. قال: افتح يا خنزيره. قلت مابفتحش. ضرب الخامسة صارت الدار علينا مثل الطابون، بطّلنا نشوف بعضنا. قال افتح يا خنزيره، قلت بافتح بتقتل الأولاد. قال: ما باقتل حدا. . . هات على القلب اللي يقدم على الباب. صرنا زي الشايبين. رفعت الزند وقلت هي موته والاّ موتتين. إلا ما استرجى يفوت. . . قال يا خنزيره هيك وهيك محمدك ودينك. . .

أخذونا على دار خالي مصطفى وحطونا هناك. لقيت مرة أحمد أسعد جابر: يا مرة عمي وريني دار أبوي. قالت: شو تشوفي قتلوهم ٢٧نسمة كوم.

شفنا في الطريق أبو جبر وابنه خليل رشيدة في طريق دار أبوي مكموّمين الثلاثة على وجوههم. . . قلت يا بنت

عمي خذيني دار أبوي، قالت وين تروحي إذا رحتي بتموتي، ٢٧نسمة كوم. بنت صغيرة في السرير قتلوها.

حطونا في دار خالي مصطفى الساعة ثلاثة بعد الظهر. جابوا العلم الأبيض وبدو طخ وحرقوا البلد حرق. حطوا أعلام بيضا إنهم استحلّوا البلد. جابو لنا تركات ديزل من البلد، من الكبار.

جميلة على (أم محمد) :

إحنا لما طلعنا قعدنا ثلاث أيام في نفس البلد أسرى عندهم، بعد الثلاثة أيام فتحوا الباب علينا وأطلعونا... وصلّونا عند الباص. لما وصلنا عند مفرق الباص فيه كوم من أهل البلد مقتولين بيجوز ١٠٠ أو ١٠٤ أو ١٠٥مكومين فوق بضعهم. اليهودية أخذت سلفي وقتلته وحطته هناك عند الكوم.

وكان ٥٠٠مسلح في عين كارم وما طلعش على بلدنا واحد يساعدنا. وطلعنا في التركّات وجابولنا برتقال وقالوا يا خنازير إحنا بنشفق عليكم ولو انتوا بتذبحونا ذبح. ركّبونا التركّات.

. . . أخذونا على محنا يهودا، كانوا يفتحوا الأباجور بيقولوا على المسلخ، ناس بيقولوا على الحريقة وناس بيقولوا

على أبو جبّة. إحنا عارفين مين أبو جبه؟ !سلمونا للجنة القومية هناك، اللجنة القومية حطونا فيها. قعدنا شهر في القدس.

أبو توفيق الياسيني:

أخذوا أربعة عشر شخصا إلى المحاجر أطلقوا عليهم الرصاص. رأيت ذلك بأم عيني.

ألقوا بهم في البئر، بئر الجوزة. رفعوا علمهم على بيت محمود صلاح في الأعالي الغربية للقرية ظنا منهم أنه بيت المختار. فتشوا البيوت بدقة أملا في العثور على مال أو حلي ذهبية. نقلوا المؤن. لاحقوا الدجاج والماعز والأغنام السائبة في أزقة القرية ونقلوها إلى الأحياء اليهودية في القدس. لم يتبقى سوى شيء واحد: دفن الجثث.

موشية بَرْزيلي (من لحي) :

الأحد عصرا: صببنا ثلاثة أوعية نفط على ثلاثين جثة في الشارع الرئيسي في القرية. بعد نصف ساعة أدركنا أن هذا مستحيل.

شمعون مونيتا (من الهاغاناه) :

اعتقدنا أن الجثث ستشتعل. ولكن لا يمكن إحراق جثث في الهواء الطلق. ولقد بنى النازيون من أجل ذلك موقدا خاصا يشتعل بدرجة حرارة عالية جدا.

يهوشع أريائيلي قائد لواء الجدناع:

الثلاثاء صباحا: دفنّا حوالي ٧٠ جثة في قبر جماعي. نسفنا مجموعتين من البيوت في كل منها حوالي ٢٠ جثة.

أحضروا لهم قفازات. معاطف واقية. كمامات لتغطية الوجه.

دفنوا أربعين رجلا وامرأة وطفلا وطفلة من حَمولة عقل. عائلات رضوان وعطية وزهران.

دفنوا واحدا وثلاثين رجلا وامرأة وطفلا وطفلة من حَمولة شحادة: من عائلات سمّور وزيدان وحمدان وعبد الله.

دفنوا أحد عشر رجلا وامرأة وطفلا وطفلة من حَمولة جابر.

دفنوا تسعة رجال و نساء وأطفال من حَمولة حميدة.

ثمانية من دار عيد.

ستة من دار حسين.

دفنوا عَبِد الفران وابنه وكانا من الخليل.

دفنوا المعلّمة حياة البلبيسي التي وصلت إلى طريق عين كارم ثم وقفت وقالت: والله أنا مستحي من حالي واجبي بيحتّم علي إني أرجع وأسعف الجرحى على الأقل. ورجعت وماكملتش الطريق.

الفصل السادس عشر

الدليل؟ لا دليل سوى الحدس. ولكن هل يأتي الرد سريعا وفوريا إلى هذا الحد؟ ومن الذي قرر: مسئولون في جهاز ما يعملون من مكاتبهم على بعد آلاف الأميال أم شخص جن جنونه فاتخذ هذا القرار بشكل منفرد ونفذه أو أوكل إلى غيره مهمة تنفيذه؟

تقطع خيط أفكارها. تمشي في الاتجاه المعاكس. حادثة، مجرد حادثة من آلاف الحوادث العابرة، يتعرض لها إنسان ما في مكان ما، تصيبه مصادفة وقد تصيب غيره. كيف تفسر النظرة إذن؟ رجل عادي تماما تضيع ملامحه في زحام المحطة والسلالم الكهربائية وأرصفة القطارات. هل تتبّعها حين ركبت القطار؟

جلست على طرف المقعد تعد نفسها للقيام في أية لحظة، تنقل عينيها بين الخريطة المرسومة فوق الباب إلى يسارها والنافذة إلى يمينها. يتوقف القطار، تقرأ اسم المحطة على اللافتة. يمشي القطار. تنتظر المحطة التالية. هل كان ينظر إليها من حين لآخر؟ ربما التقت عيونهما فجأة. ارتبك.

لاحظت واستغربت. لم تطل التفكير في الأمر. واصلت تتبع المحطات. محطة أخيرة ثم تحرّك القطار. قامت وانتظرت بالقرب من الباب. توقف. نزلت.

بدا اشتراكها في الندوة أمرا غريبا. قال لها زميل من زملائها:

- كأنك تضعين رأسك في عش الدبابير. ندوة عن مارتن بوبر بمناسبة مرور ربع قرن على رحيله، سيكون الحضور صهاينة يدعون أنهم يساريون وتقدميون. باختصار حرقة دم بلا داعي. ما الداعي؟!"
- لن يكلفني الأمر سوى ركوب القطار ساعة للذهاب إلى كامبريدج مساء الجمعة وساعة للعودة منها، مساء الأحد.
- وجهد البحث؟
- لدي ما أقوله في الموضوع. أرسلت لهم العنوان وملخصا من مائتي كلمة وأرسلوا بالموافقة على المشاركة.
- ربنا يستر!

ما الذي يخشاه؟ ندوة علمية. أوراق ومناقشات ثم يذهب كل إلى حال سبيله.

الجمعة مساء: العشب الأخضر. مائدة مستطيلة. غطاء أبيض. الكئوس والمشروبات. أكاديميون. مجموعات صغيرة تتجدد بهدوء حتى تتبدل. هذا يتحدث مع ذاك فيلحق بهم ثالث. دقائق. يلتفت الأول لشخص ما، يذهب إليه، يسيران معا في اتجاه مجموعة أخرى. ينسلت واحد منها، يتجه إلى مائدة المشروبات، في الطريق يتوقف ليتبادل الحديث مع زميل له تعرّف عليه سابقا أو آخر يتعرف عليه الآن. "من مصر؟ !حلمت دائما بزيارة مصر".

السبت: ثلاث جلسات. ثلاثة محاور. أوراق عن بوبر في ألمانيا: تكوينه الثقافي. دوره في مواجهة النازية. فكره الاشتراكي.

الأحد: ثلاثة محاور: بوبر: الدين والسياسة. البعد الأخلاقي لصهيونية بوبر. بوبر وعرب فلسطين.

قرأت شجر ورقتها. جاءت التعقيبات على ما توقعت: فشلت في فهم المشكلة اليهودية. فشلت في فهم بوبر المفكر الصهيوني العظيم الذي ناضل من أجل إعطاء حقوق

متساوية للعرب في إسرائيل. اتهامات بمعاداة السامية، بافتقاد الموضوعية، بالرؤية القومية المتعصبة. "بروفيسورة عبد الغفار، كتبت كتابا عن دير ياسين، هل تعلمين أن بوبر أدان المذبحة؟ !لقد أدان المذبحة!" "أعرف يا سيدي. كان كريما معنا في ذلك!" تدخل رئيس الجلسة: "أرجو عدم المقاطعة. سنمنحك فرصة للتعقيب يا بروفسورة عبد الغفار!"

أعطاها رئيس الجلسة الكلمة, قال خمس دقائق فقط. "شكرا، لا احتاج سوى دقيقة واحدة: تتوفر في خطاب بوبر كل عناصر الخطاب الكولونيالي: المهمة المقدسة لشعب مختار ينشر ضوء الحضارة في صحراء البداوة، يتكرم على أهلها بالسماح لهم بأخذ وجودهم في الاعتبار. وعلى أي حال يسعدني ويشرّفني أن أرتبط بغاندي حتى لو كان في رؤيتنا الفاشلة للقضية الفلسطينية. شكرا"

ما الذي دعاها للاشتراك في الندوة؟ ليس الغل مبررا مقبولا لعمل أكاديمي. نشر الورقة في وقائع الندوة؟ كان نشرها متاحا في دورية متخصصة دون أن تكلف نفسها عناء الحضور. لم تجد إجابة مقنعة. أغلقت التلفزيون. أعدت كوبا من القهوة. جلست إلى مكتبها. ترجمت رسالة غاندي. في

اليوم التالي واصلت العمل. ترجمت رد بوبر. بعد أسبوع انتهت من ترجمة النصين وإعادة صياغة بحثها باللغة العربية. وضعت المخطوطة في مظروف وأرسلتها إلى يوسف في القاهرة وفوّضته في نشرها في كتيِّب. لم تجد إجابة على سؤالها إلا وهي عائدة من مكتب البريد. غريب، تمتمت شجر، يبدو المرء تلقائيا هو يفعل هذا الأمر أو ذاك ثم يكتشف أن ما يفعله محكوم بمنطق متماسك وإن لم يعه. مشروع الكتابة عن بوبر وغاندي، المشروع المؤجل منذ سنوات، فرض نفسه فجأة. بسبب الندوة؟ لم تكن الندوة سوى تكئة. كانت ترد ضمنيا- وبشكل مباشر أيضا- على النغمة الصاعدة حول ثقافة السلام ودولة ثنائية القومية كحل للمشكلة الفلسطينية. لا جديد. أفكار طرحها بوبر قبل ستين عام. لم تنطل على الهندي النحيل ذي الصدر العاري والرأس الحليق. نظارته الطبية جيدة الصنع. مكّنته أن يرى من هناك، من الهند البعيدة، مالا يستطيع رؤيته بعض المثقفين العرب الواقفين على بعد أمتار من خط النار. في نوفمبر ١٩٣٨ كتب غاندي.

"فلسطين للعرب كما أن إنجلترا للإنجليز وفرنسا للفرنسيين. . . إن التضييق على العرب المعروفين بالكبرياء لإعطاء فلسطين لليهود جزئيا أو كليا لتكون وطنا قوميا لهم جريمة ضد الإنسانية.

إن السبيل الأكثر نبلا هو الإصرار على معاملة اليهود معاملة عادلة حيثما ولدوا وتربوا. إن يهود فرنسا فرنسيون كما أن مسيحييها فرنسيون. وإن لم يكن لليهود وطن فهل يقبلون أن يرغموا على ترك بلدان العالم الأخرى التي استقروا فيها؟ أم انهم يريدون وطنا مزدوجا، فيقررون العيش هنا أو هناك حسب هواهم؟ "

السلام ليكْ والسلامة	**من هنا ليوم القيامة**
يا للي أظهرت الكرامة	**بعد عهد المرسلين**
يا للي من لعبك بمغزل	**تطلع البورصات وتنزل**
فوق دماغ لندن، وتغزل	**لا نكشاير الغزّالين!**
فيلسوف ما يخبش قولك	**كل فلسفتك في نولك**
والتلاميذ اللي حُولك	**بالمكاكيك شغالين**
لنجليز عايشين في لذة	**عندهم أسطول وعزة**
وأنت تضربهم ب معزة	**سودا بنت أربع سنين**

سيدة إنجليزية عابرة تحدق فيها باستغراب. انتهت شجر أنها كانت تلقي القصيدة بالصوت المسموع، هل كانت ترفع صوتها وتحرك يديها؟ ضحكت. اتجهت إلى مطعم أليف. أكلت. غادرت المطعم. السماء رائقة وكذلك مزاجها. تغنى أغنية قديمة لعبد الوهاب. تذكرت ست جُلْسُن واحتجاجها المستمر كلما سمعتها تغني. الله يرحمها. كان على حق. أنشّز واغني بصوت عال. لم تردعها الفكرة. واصلت الغناء.

قطعت الطريق إلى المطعم إلى بيتها في ساعة. الوقت متأخر و المارة قليلون. لم يحدث شيء.

بعد أيام. زيارة ومبلدون. لا تعرف المكان. القطار. الرجل. تحاول تذكر ملامحه، لا تذكر سوى ارتباكه لحظة التقت عيونهما. لا ، ليس ارتباك رجل تلتقي عيناه فجأة بعيني امرأة يتطلع خلسة إليها. ارتباك آخر، لم تفهمه. غادرت القطار ثم المحطة. اتجهت يمينا في الشارع العمومي كما أوصاها أصدقاؤها. مرت بمفرق، مفرقين، عند المفرق الثالث وجدت لافتة صغيرة تحمل اسم الشارع. على وشك الوصول. انعطفت يمينا إلى الشارع. خطوات معدودة. بدا

لها أن حجرا وقع عليها. سقطت على الأرض. هل يسقط عليها مزيد من الأحجار أم أن أحدا يضربها. لماذا؟

لم تلتق شجر تناجى العلي. لم تكن تعرف وهي في طريقها إلى أصدقائها في ومبلدون أن بيت ناجي، الآن بيت وداد، أرملته، وأبنائه الأربعة خالد وليال وجودي وأسامة، في نفس الشارع على بعد خطوات من المكان الذي تقصده. ولو كانت وداد في تلك اللحظة في طريقها إلى محطة القطارات أو البقالة في الشارع العمومي لسمعت صرخة شجر. لو كان أسامة في طريق عودته من المدرسة لرآها ممدة على الإسفلت وسيارة الإسعاف تقترب ولركض إلى أمه ودخل عليها لاهثا: "يامّه فيه واحدة في أول الشارع ضربوها، حدا ضربها وشفتها يامّه مكومة على الأرض، والإسعاف وصل وحملوها على المستشفى". تتمتم وداد: " يا ولدى!" لن يلحظ أسامه صوت أمه- غريب كأنه يأتي من بئر عميقة مظلمة. لن يرى وجهها الممتقع. يهرول صاعدا إلى الطابق الثاني. يتوقف فجأة ضائعا كأنه لا يعرف إن كانت حجرته جهة اليمين أو اليسار. إن كان يريد أن يدخل

الحمام أو يدخل حجرته. يهبط الدرج ركضا، إلى أمه في المطبخ:

- يامّه وين خالد؟
- في الجامعة.

يدخل الصالون. يجلس. يقوم. يعود إلى أمه:

- هو خالد بده يتأخر؟
- تاكل؟
- مش جوعان.

كل ذلك لم يحدث ولكني الآن وأنا أكتب عن شجر أتخيله يحدث لأنني أعرف وداد وأسامة. أعرف المطبخ والدرج وغرفة أسامة وغرفة الصالون ولوحات ناجي المعلقة على جدرانه. أعرف بيتهم والشارع ومحطة قطارات ومبلدون. لكن لماذا جعلت هذه المنطقة مسرحا للاعتداء على شجر؟

شجر الآن ممددة على الأرض. لا تسمع الصفير المتقطع لسيارة الإسعاف. تقترب. تتوقف. ينزل منها شخصان. أحدهما يفحصها. الآخر يعود إلى مؤخرة السيارة ويأتي بنقالة يحملانها عليها. الرجرجة. الصفير المتقطع.

الضوء يظهر ويختفي. سخونة حارقة في ساقها اليمنى. هل أوقعت إبريق الشاي المغلي على ساقها؟ هل كانت تصنع لنفسها الشاي؟ متى؟ أين؟ ألم في الرأس. تحاول أن تتذكر. تغيب.

في الطائرة العائدة بها إلى القاهرة بعد تسعة شهور من الإقامة في إنجلترا قالت شجر لنفسها: حساب المكسب والخسارة: مسودة كتاب عن ١٩٥٦ اعتمادا على الوثائق البريطانية، بحث "غاندي ضد بوبر" أصدقاء جدد، ساق معطوبة وعكاز. لمن يكن الحساب دقيقا. عادت لتجد كريم غير كريم. هذا أيضا يدخل في حساب الخسارة.

الفصل السابع عشر:

حين صدرت رواية غرناطة ربط أكثر من ناقد بينها وبين فلسطين واعتبر البعض أنني اتخذت من سقوط الأندلس معادلا لضياع فلسطين. فاجأني ذلك الربط الذي لم يدر بذهني طوال فترة كتابتي للنص. وأجبت على سؤال طرحه علي أحد الصحفيين: حين أستطيع الكتابة عن فلسطين سأكتب عنها، ولا أظن أنني بحاجة للرجوع خمسمائة عام إلى الوراء لكتابتها ما دامت حية وحاضرة إلى هذا الحد في داخلي، وجزءا أيضا من حياتي اليومية. ثم أنني لم أُسلّم بضياع فلسطين ولا أملك نفسيا أن أتحدث عنها عبر غرناطة. وفاجأت الصحفي بأن غرناطة كانت معادلا لخوفي أثناء حرب الخليج. وكنت صادقة.

ولكنني وأنا أبحث في دير ياسين للكتابة عن شجر وكتابها "الأطياف" انتبهت أنني أقوم بنفس ما قومت به وأنا أكتب عن غرناطة. في الحالتين كانت خريطة المكان ضرورية للغاية. مكّنتني خريطة قديمة لمدينة غرناطة من معرفة تفاصيل المكان: موقع نهر حدرّو، موقع نهر شانيل،

تلة البيازين والتلة المقابلة حيث قصور الحمراء، سوق القيصرية، ميدان باب الرملة . . . إلخ ساعدتني دراسة هذه الخريطة، وخرائط أخرى لاحقا، على تخيل الحيّز الذي تشغله وتتحرك فيه شخصيات الرواية. زرت غرناطة مرتين بعد ذلك، مرة في آخر صيف ١٩٩٣ بعد أن انتهيت من الجزء الأول من الثلاثية ومرة ثانية في مطلع صيف عام ١٩٩٤ بعد شهرين من صدور الجزء الأول ولم أكن أنجزت سوى بضعة فصول من "مريمة وهي الجزء الثاني من الرواية.

لم أزر دير ياسين، ولم يتح لي أبدا زيارة فلسطين ولكنني رجعت إلى خريطتي وليد الخالدي (نشرهما في جريدة "الحياة " مع مقالاته السبع: "خمسون عاما على ملحمة دير ياسين: قرية أمام منظمات صهيون") . توضح الخريطة الأولى موقع القرية والمستوطنات اليهودية السبع المحيطة بها. وتشير بأسهم سوداء غليظة للأماكن الأربع الذي انطلق منها الهجوم على القرية. أما الخريطة الثانية فتعيد بناء مواقع بيوت القرية وتميزها بأرقام ترد في الدراسة بحيث يمكن للقارئ أن يعود للخريطة فيعرف بيوت هذه العائلة أو تلك

ومواقع المقاومين وتحركاتهم. وبقراءة متكررة للشهادات التي أوردها الخالدي والشهادات الأخرى التي حصلت عليها أضفت إلى الخريطة المرسومة بحبر المطابع الأسود أسهما بالأحمر وملحوظات بالأزرق يسّرت لي تتبع، على سبيل المثال، حركة عزيزة إسماعيل عطية من بيتها في أعالي غرب القرية إلى الفرن: سهم أحمر، وبالأزرق ملحوظة: "عزيزة في الثانية فجرا". أو حركة حسين عطية في موقع الحراسة الأول (قبل طلوع الفجر) ثم متمترسا مع زملائه فوق سطح منزل أحمد أسعد رضوان، ثم انتقاله مع رفاقه، بعد نفاذ الذخيرة، إلى بيت محمود رضوان (بيت عزيزة) والبيت المجاور له، بيت أخيه حسن رضوان حيث واصلوا المقاومة.

كنت أقوم بذلك دون أن أعرف تحديدا حاجتي المباشرة أو كيفية توظيف هذه المعرفة في كتابتي عن شجر وفى كتابة شجر عن دير ياسين. ولكني انتبهت أنني أفعل أمرا مطابقا لما سبق أن قمت به وأنا أعد لكتابة غرناطة (رغم أن شخصيات غرناطة من محض خيالي وشخصيات دير ياسين حقيقية وبعضها- أدلى بشهادته- فهو مازال حيًا يرزق) .

تذكرت ما كتبه البعض بعد صدور "غرناطة" وسؤال الصحفي ونفيي. ارتبكت وقد بدت لي الأمور أكثر تشابكا وتساءلت فجأة إن كان بمقدور أي منا أن يتتبع الخيوط المكونة لنسيج عمره: خذ مثلا تلك المرأة وهي تنتحب في المطار في ذلك اليوم من أوائل شهر فبراير ١٩٩١:

قبل أسبوعين من ذلك التاريخ وتحديدا في الثانية من فجر يوم ١٧ يناير دق جرس التليفون في شقتها في بودابست. شقيق زوجها يتحدث من فرنسا. يقول: "بدأ ضرب العراق، إنهم يقصفون بغداد!" توقظ زوجها. يشاهدان معا ما شاهدته البشرية المالكة لأجهزة التليفزيون. تغطية السي. إن. إن. خطاب جورج بوش. تعليقات المذيعين: الأشقر بيتر أرنيت، والأسمر برنى شو. يسمعان تشبيه بغداد تحت القذائف المتساقطة بشجرة هائلة من أشجار عيد الميلاد. قال المذيع، أيهما، لا تذكر، إن المشهد ساحر وأخّاذ!!

لن تتمكن المرأة من العودة إلى القاهرة مباشرة لأن معظم شركات الطيران ألغت رحلاتها إلى منطقة الشرق الأوسط- هكذا يسموننا. حملتها الطائرة مع ابنها شمالا إلى سويسرا ثم بعد عشر ساعات من الانتظار في مطار زيورخ

جنوبا إلى مصر. المرأة لا تبكي في المطارات. يثقل الفراق. تبتلعه. يستقر في معدتها كرة من الحديد يحجبها جدار المعدة وملابسها. تبتسم، تلوِّح. تقول: مع السلامة.

يقف زوجها على جانب من السور وتقف مع ابنها على الجانب الآخر. نادوا على ركاب الطائرة. مد زوجها يده للسلام فتشبثت بيده وبدأت تبكي. انفلت البكاء وصار نشيجا. ألح زوجها في أن تخرج: "تؤجل السفر". هزت رأسها. مسحت دموعها. مضت برفقة ابنها إلى الطائرة.

المرأة في الرابعة والأربعين، تبدو أصغر بسبب وجهها وصغر حجمها رغم الشيب الواضح في شعرها. عادة تبدو متماسكة قوية، لعل السبب وظيفتها فهي معلمة تقف في المدرج الكبير لتدرس مئات الطلاب والطالبات دفعة واحدة أو تشرف على طالب يدرس للدكتوراه وتقف بعد المناقشة لتعلن على الحاضرين حصوله على الدرجة، وقد يكون الطالب على مشارف الأربعين أتي معه بزوجته وربما بأطفاله. كبّرتها الوظيفة أو قيّدتها أو علّمتها. درّبتها على التنكّر للهشاشة وإن كانت فطرتها ونصيبها الموروث. المرأة خائفة. لا تعي أنها، وهي تودّع زوجها، تعرف بالحدس

ومنطق الأشياء أنهما حين يلتقيان مرة أخرى سوف تكون هذه الحرب المشتعلة الآن انتهت لحساب أمريكا وترتبت مقدرات المنطقة لعشرات السنين القادمة في غير صالحها.

هل أبسّط؟ كما أسلفت، من يملك فصل الخيوط المتشابكة، من يملك فصل الخوف من الهزيمة القادمة من وعي الهزائم السابقة؟ المرأة تبكي، يعلو بكاؤها، يصير نشيجا. تبتلع نشيجها. تمسك بيد ابنها. يسيران معا في الممر المؤدي إلى الطائرة. يجلسان. يربط كل حزامه. يفك كل حزامه. يقومان. يغادران الطائرة. ينتظران في مطار زيورخ. يتناولان الغداء. يشتريان شيكولاته!

في القاهرة تذهب المرأة إلى الجامعة. تعود من الجامعة. تفتح التليفزيون والمذياع في نفس الوقت. تنتقل بين المحطات بحثا عن الأخبار. تسمع الجديد منها، وما سمعته من قبل تسمعه ثانية.

كانت تجلس أمام التلفزيون، هل كان يعرض خبرا مصورا عن قصف بغداد أم كانت الصور للأسرى العراقيين أم كانت مقابلات مع الجنود الأمريكيين؟ ربما كانت لقطات من طريق الكويت البصرة، السيارات المدمرة والجثث. لم

تنتبه إلى أن هذه المشاهد تفتح أبوابا في الذاكرة تندفع منها صور تتحلّ إلى أصولها: الطائرات تقصف: الجنود المصريون في سيناء، مطار بيروت، المخيمات الفلسطينية، بيروت المحاصرة، صيدا وصور والنبطية وإقليم التفاح. تطفو صورة امرأة عارية تمشي ذاهلة في صباح غائم بارد، تخوض قدماها الحافيتان في وحل الطريق. هل هو الموت الوشيك؟ موتها؟

لم تنتبه أنها مقبلة على كتابة نص جديد. واصلت العام الدراسي وأسهمت الضغوط اليومية لعملها كرئيسة للقسم عليها القيام بكم من المسئوليات الإدارية لا تحبها ولا تتقنها في محاصرة اضطرابها وحشرة داخلها وإحكام تربيطه حتى بدا الخريف، عندما بدأت المفاوضات في مدريد بين العرب والإسرائيليين، كانت الأربطة تحلّلت تماما: لم تتمكن من متابعة الجلسة الأولى التي نقلها التلفزيون. لم تتصور أن تطلع العينين ومتابعة مشهد ما يكلف جهدا إلا في ذلك اليوم عندما شعرت، بعد خمس دقائق من الجلوس أمام التليفزيون، بأن لا طاقة لها على بذل الجهد المطلوب لذلك. كانت مصابة

بالتهاب شديد في الكبد. رعتها أمها طوال ثلاثة أشهر لزمت فيها الفراش.

كتابة "غرناطة" ثم "مريمة والرحيل" في الأعوام الثلاثة التالية أعادت للمرأة توازنها، ربما لان الكتابة استنقذت إرادة منفية ومعطلة أمام عواصف الصحراء التي اجتاحتها بآلاتها العسكرية والإعلامية. ستكتب عن بشر مثلها يعيشون قبضة تاريخ قاتل لا فكاك لهم منه. ستكتب النهايات. ولكن الخوض في التاريخ (التعرف عليه ثم معرفته) وفعل الكتابة (أن تبدأ هنا وتنتهي هناك، أن تبدع شخوصا وأزمنة ومسارات، تسرع أو تبطئ، تنشئ أسلوبا ثم تستبدل به آخر) أعاد لها سيادتها على مقدرات حياتها، وإن كان في كون من بدع الخيال.

كتبت عن غرناطة وبالينسية والبشرّات. لم تكتب عن قرطبة. قرطبة لا تدخل حيز الرواية. زارتها. المدن العربية متشابهة إلى حد التطابق أحيانا: المسجد الجامع مستقر في رحب ساحته والأزقة والأسواق من حولها: الأزهر في القاهرة، المسجد الأموي في دمشق، جامع الزيتونة في تونس، جامع الفنا في مراكش ومسجد قرطبة. سارت في

أزقة المدينة القديمة، يفضي الزقاق إلى زقاق. فجأة رحب من الفضاء، حجارة عتيقة، جدار عال، أسراب حمام: المسجد الأعظم. دخلته مع الداخلين من باب النخيل إلى الصحن المكشوف، صحن البرتقال. وقفت مهذبة هادئة في الصف. جاء دورها. اشترت تذكرة الدخول. السائحون من حولها تتدلى على أكتافهم آلات التصوير. دخلت من باب جانبي صغير إلى الصحن المسقوف. انتبهت للرائحة. تطلّعت: غابة من الأعمدة، أقواس على أقواس، ضوء خافت والرائحة. تنتبه: البوابات ذات الأقواس المفتوحة قديما سُدّت بالحجارة فتحولت إلى جدار فاصل بين الصحن الداخلي للمسجد والصحن الخارجي- الفناء المزروع بأشجار البرتقال. للمكان معمار المساجد ورائحة الكنائس وظلالها. تعود إلى الأعمدة ولونها المراوغ، وردي؟ ليس تماما. لون يراوغ الأسماء. قضبان حديدية بامتداد الجدران. تقترب. كنوز الكاتدرائية المشيّدة داخل المسجد محفوظة وراء حديد القضبان. اتجهت المرأة إلى أقرب مقعد. جلست. بكت.

تركت المسجد لتقدم موعد السفر إلى مدريد. وفى مدريد انتظرت موعد إقلاع الطائرة مثقلة بوطأة الساعات. تريد

العودة إلى القاهرة. إلى مصر. أية مفارقة! لكن الإنسان يراوغ ليواصل: مئات التفاصيل اليومية في البيت، في الوظيفة، بين الأصحاب والأهل تغيّم الصورة قليلا، تغبّشها، تصرف العين، تتوِّهها عن حقيقتها العارية، حقيقتها القاتلة التي طالعتها ذلك اليوم هناك في قرطبة. عادت للكتابة، ولكن ليس عن قرطبة. من يملك الكتابة عن قرطبة؟!

أتوقف.

هذه كتابة ناقصة، أقول، كان إميل حبيبي بارعا يعرف كيف يضحك قارئه ويضحك هو نفسه حتى وهو ينقل أكثر التجارب وطأة. خذ مثلا ذلك المقطع الفذ من روايته "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" حيث ينقل تجربة استلاب عرب ١٩٤٨واضطرارهم إلى تمويه هويتهم إبقاء على وجودهم في أرضهم بعد قيام دولة إسرائيل. تحت عنوان "كيف تحول سعيد إلى هرة تموء" يكتب إميل أن سعيد كلما أراد أن يفصح عن سره ما خرج من تحت شاربه سوى قطة تموء. "تصور روحك، بعد موتك، حلّت في هرة. فبعثت هذه الهرة لتسيب في فناء بيتك. فخرج ابنك حبيبك، يتلهى بما يتلهى به الصبيان من اللعب. فناديته فمؤت. فزجرك

فناديته طويلا، فموّت طويلا. فرماك بحجر. فذهبت في حال سبيلك وحالك كحال الفتى العربي في شعب بوان: "غريب الوجه واليد واللسان".

"هكذا حالي من عشرين عاما أهر وأموء حتى أصبح هذا الحلول يقينا في خاطري. فإذا رأيت هرة توسوست: لعلها والدتي، رحمها الله! فأهش لها وأبش وكنا نتماوأ أحيانا".

يضفر إميل حبيبي المضحكات بالمبكيات، يغلّف المأساة بالهزل، تلتقط عينه عناصر المفارقة مهما كان الموقف مفجعا. لست كاتبة ساخرة مثله، ما العمل؟!لكن الدقة شرط من شروط الكتابة واختزال الحياة إلى مأساة خالصة منزلق إلى الكذب. مثلا، لماذا لم أقتبس الجزء الأول من شهادة نعمة زهران؟ فيها استعلاء طريف على ذلك الرجل الذي جاء يختبئ في دارها، كان خائفا ولم تكن. غيظها من الرجل يتصدر أحيانا حتى على رواية المذبحة. بعد ربع ساعة من بداية الضرب، تحكي نعمة زهران" شفت ها الزلمة بدلهب عليّ (رأت رجلا يدخل مُتَسَحِّبا إلى بيتها) عبر وقال راحت البلد... سكّر الباب وعبر.. أجوا اليهود وطقوا علينا

ضرب... قال هلقيت بيعبروا علينا وبيذبحونا. أنا الأمانة ما خفت بس هو شعر أيديه قشعر". وعندما دخل اليهودي سأل: "شو بيقربلك، زوجك؟ قلت لأ. من عيلتك؟ قلت لأ. يا خواجا لا هو زوجي ولا من قرابتي. . . ولا من الفاميليا!"

لم تكن نعمة زهران تضحك وهى تحكي ولكن سلوى تضحك وتُضحك السامعين وهي تحكي عن رحلتها إلى أراضي الـ٤٨ بعد احتلال ٦٧ وفتح الأراضي المحتلة على بعضها. اتفقت نساء القرية مع سائق يحملهن في أتوبيسه ويأخذهن في جولة في فلسطين التي صار اسمها إسرائيل والتي حرم عليهن زيارتها من ذلك التاريخ. ركبن وتحرك الأتوبيس غربا. إما فخري إما عطا جلستا متجاورتين. تتعازمان بين حين وآخر على النشوق. تخرج عزيزة العلبة من جيب ثوبها الفلاحي وتقدمه إلى أختها، وتكون أختها أيضا مدت يدها وأخرجت علبتها. "والله زعوطي أحسن يا عزيزة ياختي!"بس جربي ها الزعوطات يا ظريفة ياختي، ما فيه أحسن منهن!" تمد كل منهما إبهامها وسبابتها في العلبة وتحمل قدرا من المسحوق وتدفسه في أنفها. تعطس عزيزة وتعطس ظريفة. تقوم وصال فجأة كأنما نبهتها العطسة،

تلتفت خلفها لترى أولادها الثلاثة المستقرين في آخر مقعد في الأتوبيس، لا تكتفي برؤيتهم، تنادي عليهم" بشير، سمير، نبيل، أنتوا هان يامّه؟ "لا تنتظر جوابا على سؤالها. تجلس وتنظر أمامها وتقول للسائق "سوق ياخوي سوق!". ولم يكن السائق توقف عن السير ولا انتقل الباب الوحيد للباص (عن يمينها مباشرة) إلى حيث يجلس الأولاد. من يدري هذا زمن اليهود، وكل شيء ممكن!

يضل السائق طريقه في الجبال، يجد نفسه بالقرب من مستوطنه. لا يملك الاقتراب. يتوقف للاستعلام. القط، وليس أولاد وصال، يختفي من السيارة. يعود السائق، يستعد للتحرك. كيف تتحرك بدون أبو عمّار؟ الكل يبحث عنه، تحت المقاعد، تحت الأتوبيس، أمامه وخلفه. تمشي صاحبة القط وتنادي بأعلى الصوت: "يابو عمّار. . . يابو عمّار". يزداد السائق توترا ويلح: "خلّي الرحلة تمر بسلام، هلقيت يطلعونا مستوطنين ويطخّونا" وأخيرا يظهر القط كما اختفى ويستقر الجميع في أماكنهم وتعود أم عطا وأم فخري تتعازمان على النشوق ووصال إلى هبّاتها المفاجئة والجملة

اللازمة للرحلة: "بشير، نبيل، سمير، انتوا هان يامّه؟ " تراهم بأم عينها فتلتفت إلى السائق وتقول : سوق ياخوي سوق!"

لم تكن زيارة بحيرة طبريا في البرنامج ولكن النساء الأكبر سنا حكّمن رأيهن. قلن إن المشوار لا يتم إلا بالسباحة في " بحر طبريا" تقهقه سلوى وهي تحكي عن كلسون الختيارة الذي قرر أن يواصل السباحة منفردا "كلسون يملي العين، طويل وله دكّة" حاولت صاحبته اللحاق به وعندما فشلت اكتفت بمتابعة حركته الطافية على سطح الماء. لعله كان يسبح في طريقه إلى الشام!

لم تحك سلوى لأن زمن الحكي لم يدخل حيّر السبعينيات فما بالك بالثمانينيات، أواخرها. الفتية في الشوارع يواجهون جيش الاحتلال بالحجارة والمقاليع والإطارات القديمة. ووصال تركض بين البيت والسجن ومقر الحاكم العسكري. اليوم لأن واحد من أولادها في السجن تذهب لزيارته، وغدا لأن الثاني اعتقل، وفي يوم ثالث لأن ولدا من رماة الحجارة دخل عندها فأعطته قميصا غير الذي شاهده فيه الجنود. "هو اللي رمى علينا حجارة، كان لابس قميص أحمر". "يا خواجه ربنا عرفوه بالعقل ولد

لابس أحمر رمى عليكم حجر. وولد لابس قميص أبيض جاي يزور صاحبه تتهموه بأمارة إيش؟ !"ومرة رابعة لأنهم داهموا شقتها فتخلصت من أوراق أولادها برميها من النافذة: "وقع الورق على رأس العسكري يّم، وأنا إيش درّاني أنهم واقفين تحت الشباك؟ !"هذه المرة لم تركض وصال إلى السجن لزيارة ولد من أولادها. ولكنها وهي في طريقها إلى السجن لم تعدم وسيلة تكايد بها الجندي الإسرائيلي: "باقول ياخواجه لو تقول للسجان يجيبلي كام من بسكوته. الصبح وأنا بشرب الشاي بالحليب بأحب أتشتشهن! "تستعيد سحنته وتضحك.

لطيفة أيضا وثريا كن يضحكن وهن يستعدن حكايات السجن. هل يضحك الإنسان بعد أن تمر وطأة اللحظة، أم يضحك وهو فيها لأن الضحك سلاح غريب، سحري، لا يريق دماء ولكنه يحمي أيضا يقلب معادلة الغالب والمغلوب؟

أردت دائما أن أكتب حكاية ثريا حبشي، ثريا شاكر التي اعتدنا الإشارة إليها باسم ثريا حبشي نسبة إلى زوجها فوزي حبشي. استمعت إليها ذات ليلة هناك في المجر. جاءت مع زوجها للعلاج. جلست معها في غرفتها بالفندق واستمعت

للحكاية تفصيلا. بعد سنوات سجلت ثريا جزءا من الحكاية كتابة. اعتقلت فجر ١٩٥٩/٣/٢٨في الثالثة صباحا دقوا بابها. قاموا بتفتيش البيت تفتيشا دقيقا استغرقهم ساعتين ثم:

- تفضلي معانا يا ست ثريا.
- هل هو اعتقال أم ماذا؟
- لا هي كلها نصف ساعة وتعودين للمنزل. . .

"خرجت ولم أعد للمنزل إلا بعد أربع سنوات وأربعة أشهر بالتمام والكمال. . . تركت ثلاثة أطفال: الكبير ممدوح ٨ سنوات، وحسام ٦ سنوات، ونجوى سنة واحدة وكانت بترضع لسه".

تحكي ثريا:

"كانت زميلتنا ايفون حبشي مسجونة وأولادي برضه اسمهم حبشي. . . أخبرت السجانة بذلك حتى تساعدني ووافقت. فوجئت وقت الزيارة أن السجن قفل كله. وأنا هربت وقتها لدورة المياه وقفلت على روحي علشان أقدر أشوف الأولاد لما ييجوا يدخلوا غرفة ايفون لأنها كانت بمستشفى السجن. . . بصيت لقيت الدنيا كلها كربست في دقائق. ضباط من المباحث دخلوا واحتلوا الغرفة اللي فيها

ايفون ومنتظرين الزيارة. . . الأولاد حضروا ولا على بالهم. . . وأنا داخل دورة المياه ارتعش من الخوف على الأولاد. جاءني الضابط في الدورة و أخذ يخبط على الباب ويقول اطلعي من جوه يا ثريا، أنا عاف انك جوه وبقولك تعالي شوفي أولادك يا ستي فخرجت وأنا في حالة يرثى لها وأنا أصرخ وأقول ماحدش له دعوه بيهم واللي هايمسهم أنا هشرب من دمه وكلام كتير مش عارفة كان بيطلع منين. . ونزلت فيهم شتيمة وقلت يسخطوك يا قرد. . ها يعملوك إيه، غزال؟!

... انقضيت على الأولاد واحتضنتهم بشدة. والذي ضايقني جدا أن الأولاد كانوا متأثرين من رؤيتي في هذه الحالة الشاذة وأنا اصرخ واشتم واحتضن وأبوس كله في آن واحد...

بعد مرور حوالي أسبوع فوجئت بحضور طاقم من الكابات الحمرا وعقدوا محكمة في قلب السجن لمحاكمة ثريا. ونودي علي وحضرت من العنبر لأفاجأ بعقد هذه المحكمة. حاجة تخوّف، بالفعل كانت السجانة نفسها وهى تحضرني معها ترتعش و تقول أنتي عملتي إيه؟ دى الدنيا مقلوبة

عليك. ووقفت أمامهم وأنا قلبي يكاد ينخلع من جنبي وتكاد دقاته تسمع من بعيد. وتمالكت أعصابي وطلبت كرسي أجلس عليه أولا. ثم بدءوا يوجهوا التهمة لي وهي باختصار أني شفت أولادي. فبدون أن أدري صرخت في وجوههم ألا تستحوا من أنفسكم، كل هذا الهيلمان لماذا؟ لتحاكموا أما شافت أولادها، بدلا من أن تحاكموني حاكموا القرارات الخطأ التي تضع أما في السجن بدون أي ذنب. دون أن يسمح لها بزيارة أولادها للاطمئنان عليهم على الأقل. إن الأم الزانية والأم القاتلة وتاجرة المخدرات يسمح لها بالزيارة أما نحن فلا، وتأتون لتحاكموني. وما كنتش دريانة أنا باقول إيه ولا من فين كل الكلام ده جه على لساني وكل ما واحد يكلمني كلمة أرد عليها بعشرين حتى صرخ رئيسهم فيّ: "أسكتي". . قلت له ولماذا أسكت ماذا تريدون أن تفعلوا بي أكثر من السجن، اعتقد ما فيش؟ !"

تضحك ثريا وهي تستعيد الحكاية، لماذا؟ لأنها الآن وهي مستقرة بين أولادها وأحفادها تجاوزت كل ما حدث؟ هل يملك أي منا تجاوز ما حدث؟ تضحك لأنها امرأة

ضحوكة؟ لأنها ملكت آلة الضحك وعرفت بالفطرة والخبرة نفعها وقيمتها؟

تحكي ثريا عن يوم أكلت انتصار خطاب الورق ويوم السحل الشهير. كانت انتصار مسؤولة عن حفظ الورق، ورق حزبي، خطابات شخصية مهربة. كله مكتوب على ورق البفرة، ورق لف الدخان. انتصار وضعت الورق في علبة صفيح، علبة الدواء. فجأة دخل المأمور ومعه ملاحظة السجن وبدءوا التفتيش. علبة الدواء، انتصار كانت خبأتها في صدرها. أثناء التفتيش وقعت العلبة. خطفتها انتصار و طارت. من باب العنبر إلى حوش السجن. تجري والسجانة وراها. انتصار فتحت العلبة واللي تقدر تبلعه تبلعه واللي ماتقدرش عليه تمضغه، المأمور يصيح والسجانة تصيح ظنا منهما أن انتصار تبتلع الدواء، تقصد الانتحار.

لم ننم من شدة الضحك.

ويوم السحل؟

"لم يكن مر على اعتقالنا سوى شهور. سمعنا أن عبد الناصر صرح لصحفي أجنبي أنه ليس في مصر معتقلين. أنا قلت فُرجت. كان فوزي سنة٤٨ في المعتقل وأعلن مصطفى

النحاس أنه لا توجد معتقلات في مصر، وفى نفس اليوم تم الإفراج عن المعتقلين وخرج فوزي. قلت رأيي للزميلات وناقشنا الموضوع واتفقنا أننا بعد انتهاء طابور الصباح لا نتوجه إلى باب العنبر بل إلى إدارة السجن، إلى المأمور. دخلنا على المأمور قالت ثريا أدهم- تبتسم ثريا- أصلنا كنا عيِّنَّاها متحدث رسمي. قالت ثريا أدهم إن جمال عبد الناصر أعلن أنه لا يوجد في مصر معتقلين، وإننا لن نرجع إلى العنبر حتى يأتي مندوب من رئاسة الجمهورية للتفاهم معه فإما يفرج عنا أو تحققوا لنا مطالبنا- كنا نطالب بتحسين أوضاعنا في السجن والسماح بالزيارات وكانت ممنوعة تماما. طلب منا المأمور أن نهدأ ونعود إلى العنبر وقال أنه سيبلغ مطالبنا إلى المسئولين. رفضنا. اتصل المأمور بمسئول ما ثم فوجئنا بمجيء جنود مسلحين رفعوا علينا السلاح لتهديدنا بالعودة إلى الزنزانة. لم يتحرك أحد منا. أغلقوا باب السجن وسمعنا البروجي. ووجدنا أنفسنا محاصرين بين الجنود المسلحين وجيش آخر من السجانات والقاتلات وبائعات المخدرات. . . اجتمع كل ثلاث أو أربع منهن على واحدة منا، يجذبنها من شعرها، يوقعنها على

الأرض ويشبعنها ضربا وركلا، بأقدامهن، بالعصي وسيور الجلد والخيزرانات. وفي وسط هذا الهول- تضحك ثريا، تقهقه- بدأت اهتف: "تسقط سياسة المعتقلات. تسقط سياسة الكذب والنفاق. تسقط سياسة الظلم والإرهاب. "أهتف ونحن نسحل على الأرض ويقذف بنا واحدة وراء الأخرى إلى داخل العنبر. وقبل أن تغلق السجانة باب العنبر تماسكت ليلى شعيب – كانت ليلى حجمها صغير والسجانة طويلة وعريضة وزي الحيط- شدّت ليلى طولها وشبّت على طراطيف صوابعها ورفعت أيدها و "طراخ" على وجه السجانة. . وبعدها لما جاءت بعثة تفتيش على السجنوكانت من بين أعضائها سيزا نبراوي وضعونا في غرف وراء السجن. أغلقوا علينا الأبواب والنوافذ ومسمروها. وبحّت أصواتنا ونحن نصيح. ولكن لم يسمعنا أحد. "

لم تعتقل لطيفة الزيات في حملة ١٩٥٩ إذ كانت تركت العمل السياسي المنظم قبل ذلك بعدة سنوات. اعتقلت عام ١٩٤٨ثم اعتقلت مرة أخرى ضمن حملة السادات عام ١٩٨١. كان الزمان يتغير وكنا نتقدم: لم يدم الاعتقال أربع سنوات ونصف بل بضعة شهور، ولم تتعرض المسجونات

لسحل وضرب أو نوبات تكدير وأيضا كان مسموحا لهن بتلقي مأكولات من الخارج وبعض المجلات والجرائد. ويقتضي الإنصاف القول إن الحكومة توخت العدل هذه المرة فلم تقتصر في اعتقالاتها على الشيوعيين والإسلاميين وحدهم بل وزعت الاعتقالات بالقسطاس على كافة القوى السياسية، وعلى الأقباط والمسلمين، وعلى الرجال والنساء ومنحت الجميع خدمة إعلامية مجانية في الإذاعة والتلفزيون وفى الصفحات الأولى من الجرائد القومية.

في لقاءاتي الأولى بلطيفة الزيات استوقفتني ضحكتها. كانت المرأة بضحكاتها المتلاحقة المفاجئة أحيانا والعالية دائما تدهشني ثم عادت لا تدهشني، ألفتها وأحببتها، أقصد لطيفة وضحكاتها معا. كانت دائما تضحك، ولكنها وهي تحكي لي عن تجربتها في السجن، بعد خروجها وعودتي من المجر، كانت تضحك أكثر. في سيرتها الذاتية "حملة تفتيش: أوراق شخصية" انشغلت لطيفة بالتعبير عن جدلية السجن والحرية في وجدانها الخاص وتاريخها الشخصي. ولم يكن هذا الموضوع مجرد فكرة تستكشفها لأنها تخصّها وتهمّها بل خيطا، هكذا قالت، يجمع شوارد العمر ويربط السابق

باللاحق. بدا لها ذلك مسألة حياة أو موت. انهمكت. نسيت الضحك. نسيته في الكتابة ولكنه لم يسقط من روايتها الشفهية. ستضحك لطيفة الزيات من نفسها ومن زميلاتها في الزنزانة وهى تحكي فيبدو الأمر كله مسرحية هزلية، لا ليس كوميديا سوداء، رغم قتامة التجربة، بل كوميديا مدهشة تعيد حكي الوقائع بتصفيتها من شوائب الخوف والمرارة والضغائن الصغيرة. تبقى خفة الحكاية وشفافيتها وقدرة الإنسان على الانتصار بالضحك.

لطيفة، على مشارف الستين، ممتلئة، ليس بالمعنى المجازي وحده لكن بالمعنى الفعلي لجسد على قدر من البدانة، تحكي عن السجن. يعلو صوتها في ضحكات متقطعة متصلة متصاعدة. يهتز جسدها، وتدمع عيناها وهى تضحك وتضحكنا من نفسها من سين صاد من صديقاتنا اللائى قد يكن معنا جالسات يستمعن إلى ما تحكيه. تسخر من سلوكها، الهستريا المفاجئة التي أصابتها لأنها لم تجد ثوبها، الثوب الذي حفظته بعناية وصانته بكل الحرص، الثوب الذي يليق بها وبمثولها. . أمام النيابة. . . للتحقيق!! "تقولش تاج المُلك ضاع مني؟ أزعق وأتخانق وأقول الفستان راح فين، فين

الفستان، الفستان اتسرق!" وتنتقل حالة الهستيريا إلى الزنزانة ويسود الهرج والمرج ليس لأن مصر ضاعت والاّ فلسطين، لأن فستاني اتسرق!!ما تسرقش، لاقيته مكانه. كنت نسيت حطيته فين!"

"وعواطف دخلت علينا الزنزانة بعد ما قبضوا عليها في المطار. لابسة جزمة بكعب عالي ومعطف مطر لونه بني، آخر أناقة! فتحت الشنطة وطلّعت علبة شيكولاته سويسري وفتحتها: اتفضلي يا دكتورة، اتفضلي يا أمينة. . . " كأننا رايحين نبارك لها بجواز ابنها وبتضيّفنا. . . في السجن!ولما طلبوها في التحقيق لبست وتطقمت وراحت وجت. خير يا عواطف؟

قالت:

- ولا حاجة ما فيش حاجة خالص!
- ولا أي حاجة؟

كان وشها مرتاح ومطمئنة آخر اطمئنان. قلت لها:

- طيب تعالي اقعدي واحكي بالتفصيل، احكي من الأول وبالتفصيل.

في وسط الكلام قالت.

- سألني المحقق إن كنت حضرة حفلة سفارة كذا يوم كذا. قلت حضرت هم بيعزموني كل سنة وبيبقى فيه أساتذة جامعة من أمثالي وصحفيين ودبلوماسيين وكتاب. شفت يا دكتورة لطيفة مفيش حاجة.
- ما سألش غير كده؟
- لأ؟
- متأكدة؟
- سأل: كان فيه عسكريين من أهل البلد؟ قلت كان فيه الملحق العسكري وغيره.

تقول لطيفة وهى تضحك: "لطمت"

- إيه يا دكتورة فيه إيه؟

قلت لها:

- إزاي مفيش حاجة. حيلفقولنا تهمة تخابر مع دولة أجنبية.

استبعدت عواطف الفكرة وربما بدا لها إني خرفت. وطبعا طلع كلامي مظبوط. اتهمونا بالتخابر. إنما اشمعنى يعني سمونا "قضية التفاحة"؟! ياللا تفاحة تفاحة، يعني لو كانت قضية البطيخة كان فرق؟ !"

الفصل الثامن عشر

وكريم؟ لم يكن يملك آلة الضحك في ذلك المساء ولا في الأيام التالية. جلس على المقعد المجاور: القميص مزرر حتى أعلى الياقة. تبرز منها رقبة نحيلة تحمل الرأس في استقامة مكلِّفة. الساقان مضمومتان وكذلك الذراعان ملاصقان للجذع حتى المرفقين ثم ينثنيان كضلعي مثلث ينتهيان بكفين متشابكتين مرتكزتين على الساقين. بدا الولد في جلسته متطاول الجذع نحيلا، يشق الفراغ فيؤكده وهو يقتطع منه حيزا لوجوده تطلعت شجر. تحاول قراءة جلسته، هل صَغُر كتفاه أم يبدوان أصغر لأنهما مشدودان لأعلى؟ والمسافة بين عينيه، كيف تقرأها؟ خطوط الوجه دوائر مغلقة. العينان مفتوحتان كالهاوية، كيف تقرأها؟

لم يضحك كريم. لم يحك. لأن الواقعة قريبة، سخونتها الحارقة ما تزال في جسمه؟ مهينة يوجعه استرجاعها؟ الضرب الدوري، تكسير العظام، الكلاب، التعذيب بالكهرباء، من اختل توازنه وفقد عقله ومن ينتظر الإفراج عنه بعد خمس سنوات من حكم المحكمة ببراءته. لم يحك لها كريم

شيئا عن ذلك. كان يجلس صامتا، وحين يتحدث ففي غير ذلك من الأمور. ربما أراد حمايتها فترك لها فسحة من وهم يسمح لها بأن تقول: "كان كريم محظوظا لم يتعرض لما يتعرض له الآخرون!" قال أنه سيحكي لها يوما ما. بعد ستة أشهر من الإفراج عنه قبض عليه مرة أخرى.

تمتمت شجر: يا إلهي، أي بديلين؟ في مجلس القسم دافعت باستماتة عن تعيين خليل. أحبته لذكائه وتفوقه؟ وشئ آخر أيضا، شيء كالانتباه، انتباه الروح. يزورها في مكتبها، يستعير منها بعض الكتب وأحيانا يستأذن في الجلوس لمناقشة موضوع أو آخر معها. في السنة الثالثة استبدل خليل بثيابه المعتادة جلبابا أبيض قصيرا وطاقية. أطلق لحيته فاكتملت الإشارة. لم تعلّق. تركته وشأنه. في نهاية العام، وفي العام التالي أيضا حصل الولد على أعلى الدرجات، الأول على الدفعة.

قبل مجلس القسم قالت لها زميلة محجّبة: "هل رأيت خليل؟ تحدثت معه في أمر الجلباب. أفهمته أنه من المستحيل أن تعينه الجامعة وهو يطلق لحيته ويرتدي جلبابا وطاقية. كلمته باستفاضة، والحمد لله ربنا هداه وسمع نصيحتي.

"كانت الآن تبتسم مزهوة بإنجازها: "رأيته اليوم في الكلية وكان يرتدي قميصا وبنطلون. احتفظ باللحية. بسيطة!"

جلسة عاصفة. انقسم الأساتذة بين ترشيح خليل لتعيينه في وظيفة معيد ورفض ترشيحه. دافعت الزميلة المحجبة عنه قائلة أنه سيهدأ ويعود إلى عقله. نرسله في بعثة دراسية إلى أمريكا أو إنجلترا فيتجاوز كل هذه الأمور الصبيانية. تحدث زميل آخر عن خطورة وجود العناصر الإسلامية بين أعضاء هيئة التدريس. قال رئيس القسم: طبعا الدكتورة شجر ضد تعيينه. هل استفزتها كلمة "طبعا" أم أنها كانت مستفزة من الحوار برمّته؟ ليس من عادتها أن تبدأ الكلام، أي كلام، بكلمة طبعا. بدأت بها: "طبعا أنا مع تعيينه. هذا من حقه. علميا هو أفضل الخريجين هذا العام. ثقافيا: قارئ من الطراز الأول. إنسانيا: ولد دمث وعلى خلق. "قاطعها رئيس القسم: "وميوله؟ " قال زميل وهو يحدق فيها باندهاش: "تصورتك علمانية يا دكتورة شجر؟! لم تجب عليه ولكنها قدمت دفاعا عن حق الولد في التعيين. عُيّن. حلق لحيته. بدا وسيما وأنيقا كفتى أول في فيلم سينمائي.

سبع سنوات. لم يسافر في بعثة، لم يذهب إلى لندن أو باريس أو نيويورك فتبدد ملاهيها اضطرامه. دربته القاهرة خير تدريب. حصل خليل على الماجستير ثم الدكتوراه. أصبح "أشطر" المدرسين في القسم، في الكلية وربما في الجامعة. لا يصطدم بأحد. يحسن تدبير أموره. تتأمله شجر عن بعد. تريد أن تعرف هل كانت الجرثومة مستقرة منذ البداية أم أنه التقطها من شوارع المدينة فأصابه ما أصابه؟ ماذا تريدين يا شجر، أن يبقى بلحيته والطاقية والجلباب؟ أن يحمل سلاحا ليصوبه في المكان الصحيح مرة والمكان الخطأ مرات؟ ملاحقا أو سجينا ككريم؟ أليس هناك سوى هذه البدائل؟! تصيح شجر فجأة وهى تقود سيارتها كأن هناك من يجلس في المقعد المجاور يبادلها الكلام: أريده مستقيما متزنا، لا يمالئ أحدا ولا يقول نعم حين تتوجّب قولة لا. هل اطلب المستحيل؟ !

- خليل أريد أن أتحدث معك.

جلس في مواجهتها، يفصل بينهما المكتب. قالت:

- أنا غاضبة منك.

لم يفاجأ. تطلع إليها. قال:

- أعرف.
- تعرف السبب؟
- أعرف.
- لماذا إذن؟
- أنت اخترت أن تكوني جميلة ومهزومة. أنا فكرت طويلا ثم قررت أنني لا أريد أن أكون مهزوما أو ملاحقا.
- الطريق الأسهل، والأقبح!
- تبسّطين الأمور يا دكتورة. يختار المرء أحيانا أن يعمل على تغيير الواقع، يبدو له ذلك ممكنا. يتحمل أعباء اختياره ولا مشكلة في ذلك. اكتشفت أنني لا املك تغيير ما نحن فيه ولا أرى القوة التي يمكنني العمل معها من أجل تغييره. باختصار وجدت المطروح أن يكون المرء ذئبا أو حملا. قلت آكلا افضل من مأكول.
- هذا خارج الموضوع. أتحدث عن الاستقامة الشخصية، لست مستقيما في ممارساتك يا خليل، هل أنت مستقيم؟ !

تطلع إليها وابتسم، طيف ابتسامة:

-ما قلته خارج الموضوع. أنت شاركت في مناقشة رسالتي، في الماجستير والدكتوراه. وحكمت في الحالتين بقيمة عملي.

- - لا أتحدث عن أدائك العلمي.

-أنا دائم التفكير في أدائي العلمي. هذا ما أصونه بأي ثمن. أصونه وأصعد، وأصعد لأصونه. لا أريد أن أكون كجمال حمدان، يعيش منعزلا ومكتئبا ويموت قبل الأوان. استدرك- يموت قبل أن يموت. سأنجز علميا أحمي هذا الإنجاز بالمكانة والقوة. أيهما افضل يا دكتورة شجر أن يكون جمال حمدان رئيسا للجامعة أم تكتشف جثته بعد أيام فلا نعرف إن كان موته انتحارا أم عزلة قاتلة تمكنت منه في النهاية؟

-عليك أن تختار أن تكون رئيسا للجامعة أو تكون جمال حمدان. لاتوهم نفسك بإمكانية الجمع بين الأمرين.

لم يجب. قال أنه تأخر على محاضرته. اقترح إن يُكملا الحديث في وقت آخر.

تركته يذهب. غادرت. ركبت سيارتها. "لماذا تركتُه؟ "هتفت بصوت مسموع. نزلت من السيارة ودخلت الكلية. صعدت إلى القسم. تطلعت في الجدول. ستدق الباب وتستدعيه من المحاضرة. ستمسك به وتربّيه بالعصا إن اقتضى الأمر. دور المربي القديم؟ لم لا. الضرورة تقتضي. دقت الباب. دخلت. "خير يا دكتورة شجر؟ "تطلعت فيه، تطلّعت إلى الأولاد الجالسين أمامه. همهمت. غادرت المكان. بدا لها وهي تقصد باب الكلية أنها تحتاج لأكثر من عصا تستعين بها على السير. تشعر بإرهاق هائل ورغبة في الجلوس لالتقاط أنفاسها.

لماذا لم تمسك بالعصا وتنزل بها عليه وتشبعه ضربا حتى توقظه من وهمه. لماذا سكتت؟ هل هزمها أم أنها مهزومة سلفا فلا تملك إلا أن تراقب أجمل أولادها يُسرقون منها؟ من يسرقهم، وكيف؟ هل هم أطفال لا يعرفون المحافظة على أنفسهم؟ نعم أطفال، صغار! خليل تجاوز الثلاثين، لا تملكينه، لا أحد يملك سوى نفسه. "أنا أستاذته!" صاحت شجر ثم داست بشكل مفاجئ على فرامل السيارة. تأخرت. كان عليها الآن أن تترك السيارة وتنزل لمواجهة

المشكلة. توقف الطريق. علت أبواق السيارات قبل أن يقبل السائق باعتذارها ويأخذ ثمن الفانوس الذي تسببت في تحطيمه حين اصطدمت بمؤخرة سيارته.

مجلس الكلية. ما الذي جدّ؟ المجلس هو المجلس. ثلاثون أستاذا حول المائدة يناقشون جدول الأعمال في اليوم المقرر في الأسبوع الثالث من كل شهر. اعتادت أن تنصت. اعتادت أن تقول رأيها بهدوء. اعتادت أن تكتم غيظها وتقيده فلا يبدو حين تطلب الكلام إلا أنها تعبر عن رأى مخالف بما يليق بمجس موقر لأساتذة اجلاء. تغادر المجلس كأن شيئا لم يحدث، تركب سيارتها وتمضى. تتوقف في إشارة مرور فترى سائقا في سيارة محاذية يحدق فيها أو يضحك. تنتبه أنها كانت تحدّث نفسها. علق أحدهم مرة: "المجانين ممنوع يسوقوا عربيات، خطر!" أجابت: "يلعن أبوك".

طفح الكيل. تقف، تصيح بأعلى صوتها. يقول العميد: "اهدأي يا دكتورة شجر". تزيدها عباراته اشتعالا، يعلو الصوت أكثر:

– القضية واضحة زي الشمس يا سيادة العميد. تشكلت اللجنة لمناقشة الرسالة. وصلت الرسالة إلى

الممتحنين الخارجيين، كلاهما وليس واحدًا منهما، قالا للمشرف أن الرسالة لا تصلح. قالا له ذلك شفهيا، ومنعا للإحراج، وتقديرا للزمالة. بدلا من أن يعيد المشرف الرسالة للطالب ويطلب منه تعديلها، يأتي إلى مجلس القسم ويقول أن الأستاذين اعتذرا لانشغالهما ويشكل لجنة جديدة تقبل الرسالة وتناقشها وتمنحها مرتبة الشرف الأولى. هل يُعقل هذا، إلى أين نذهب يا دكتور، إلى أين؟ !

تدخل رئيس القسم المعني:

- لا أقبل ما تقوله الدكتورة شجر في حق زميل غائب. لا أقبل هذا الطعن في المصداقية العلمية لقسمنا. ليس لديك أي إثبات على ما تقولين يا دكتورة شجر!
- هذا ما قاله الأستاذان. سمعت بالأمر فاتصلت بهما تليفونيا: أكدا أنهما بعد قراءة الرسالة أعاداها لأنها لا تصلح.
- لم يكتبا تقريرا بذلك!

تدخل الدكتور يوسف:

- لنفرض أنهما أخطأ لأنهما لم يكتبا تقريرا برفض الرسالة، هل يعني ذلك أن يعتمد المجلس الآن منح الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى لرسالة رفض مناقشتها أستاذان هما الأكثر تخصصا في موضوع البحث؟!

- المسألة وجهة نظر!

صاح الدكتور يوسف.

- ليست وجهة نظر، إننا نهدم الجامعة بأيدينا!

قام واقفا، صرخ:

- انتم تهدمونها!

تداخلت الأصوات، بعضها مستنكرا ما قاله يوسف والبعض الآخر يتفق معه وإن لم يحبذ حدّته في التعبير عن رأيه. زميل يقول: "اهدأ يا يوسف، ستصيبك جلطة. أنت لا ترى وجهك". قام وأخذ يوسف من يده وغادرا.

العميد يدق بقلمه على حافة كوب الماء الموضوع أمامه مطالبا المجلس بالهدوء. واصل رئيس القسم المعنيّ كلامه:

- أقول إن المسألة وجهة نظر. لم ترُق الرسالة لهذين الأستاذين، الله أعلم لماذا. قيّمها أستاذان

آخران والمشرف تقييما مختلفا. لماذا تخلقين مشاكل من لا شيء يا دكتورة شجر؟ !

- مشكل من لا شيء؟! نتحدث في صلب عمل الجامعة. قيمة البحث ونزاهة الأستاذ! أكرر اعتماد هذه النتيجة سبة في وجه الكلية، كارثة!

صوّتوا. سبعة من الثلاثين رفضوا اعتماد النتيجة. صدّق المجلس على حصول الطالب على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى. حملت شجر أوراقها وغادرت.

تعرف شجر الآن أن حدتها ذلك اليوم وانفعال يوسف والصوت العالي لكل من اعترض على توصية القسم بمنح الطالب الدرجة بامتياز لم تكن متعلقة بهذا الموضوع وحده. لم يكن الموضوع سوى القشة التي- كما يقولون-كسرت ظهر البعير. كسرت ظهر يوسف فعلا وليس مجازا. كانت الكلية كلها تتابع على صفحات الجرائد ما ينشر عن أستاذ جامعي، ليس في كليتهم- ولكنه في الجامعة-سرق كتابا لزميل راحل ونشره باسمه. أولاد المسروق لم يكتبوا في الصحف، لجأوا إلى القضاء. جاء حكم القضاء مؤكدا السرقة. قبل انعقاد المجلس عرفت شجر، وعرف يوسف،

وعرف كل الناس أن الأستاذ لم ينتحر، ولم يهاجر إلى بلاد الواق واق حيث لا يعرف أحد حكايته ولا كتابه، ولم يقف في ميدان التحرير ويجرّس نفسه بنفسه كفّارة عن فعلته. جاء مبتسما مشرقا راضيا مرضيا يستقبل التهاني لأن الجامعة عيّنته رئيسا للقسم الذي يدرس فيه. شهق يوسف. شهقت شجر. جلسا واجمين. لم ينبس أي منهما بحرف حتى قاما إلى مجلس الكلية.

للوهلة الأولى بدا لها أن كلمة والد أو والدة سقطت من الإعلان. ومع ذلك صعدت السلم على عجل وبقدر ما تسمح لها ساقها وعكازها. دخلت مكتب العميد. استفسرت. لم تسقط كلمة. الورقة المعلقة على لوحة الإعلانات في المدخل تنقل الخبر بدقة: "توفى مساء الأمس الأستاذ الدكتور يوسف علي فهمي. الأستاذ بالكلية. تشيع الجنازة ظهر اليوم من مسجد..." لم تركب سيارتها. أوقفت تاكسي. ركبت. نزلت أمام البيت. قال البواب أن المصعد معطل. صعدت الأدوار الخمسة على قدميها. لا صوت يأتي من الشقة. لا أحد يصرخ أو يندب. في المستشفى؟ أي حماقة! لم تسأل عن اسم المستشفى. طرقت الباب. فتحت ابنته "تفضلي يا طنط شجر"

لا أحد يبكي. ليس بعد. وجوه ممتقعة. وجوم. لم تستبدل زوجته ملابس الليلة الفائتة.

- ماذا حدث. كيف؟
- عاد من الكلية في الرابعة بعد الظهر. اتغدينا ثم طلب منه سمير أن يساعده في واجب الحساب فجلس معه حتى الساعة السابعة. في السابعة والنصف قال لي: اطلبي لي دكتور، أنا تعبان. طلبت الدكتور وهو دخل نام. تصورت انه نام. الدكتور جه الساعة عشرة. قال خلاص. مات

بعد أسبوعين طلبها العميد.

- اعرف مدى حزنك على فقد الدكتور يوسف. كان موته صدمة لنا جميعا. لكن لا أفهم أن تكرري في كل مكان أن مجلس الكلية قتل الدكتور يوسف. هذا كلام لا يليق بمجتمع الأكاديميين، لا يليق بأستاذه.
- لم يكن مريضا. أصيب بأزمة قلبية من جراء ما حدث في المجلس.

- هل هو فيلم عربي يا دكتورة شجر؟ !آخ قلبي ويموت؟ قضاء وقدر. عمره المكتوب أم لا تؤمنين بقضاء الله؟ !

قامت. وصلت إلى الباب ثم استدارت وتطلّعت فيه:

- لا أفكر على من يأتي الدور بعد يوسف. أرى النعش والمشيّعين وأعرف أنها الجامعة التي في النعش. كابوس أراه كل يوم، أراه في الصحو وليس في المنام يا سيادة العميد!

طرقت الباب بعنف. انصرفت مهرولة فتعثرت في العصا. سقطت على وجهها. أعانها الساعي على القيام. "حصل خير يا دكتورة شجر".

ظنت أنها مصابة بالتهاب في الكبد. ذهبت إلى الطبيب. أجرت الفحوصات المطلوبة. قال الطبيب: الكبد سليم، وكل وظائفه ممتازة.

كيف تفسر هذه المرارة في الحلق؟ !

لا حد لخسارته في رحيل يوسف. هناك زملاء آخرون، تحبهم وتحترمهم ولكن يوسف، من مثله؟

جاء خصيصا إلى لندن لزيارتها. لم يكن قد مضى على خروجها من المستشفى سوى يومين. رن الجرس فتحت. "يوسف؟!" كان عاتبا. "تتعرضين لحادث وتدخلين المستشفى ولا اعلم؟! كيف وبأي منطق؟! كعادته كان على حق. حكت له تفاصيل ما حدث. استمع وهو يدخن ثم قال: غدا اسألي الطبيب إن كان هناك ما يمنعك من السفر. تطلعت إليه متسائلة. قال: تعودين إلى مصر. لا نريد هذا البلد، تقعدي في بيتك في جامعتك. ولا داعي للبهدلة! كان غاضبا. ابتسمت. "سأبقى حتى انتهي من عملي في الأرشيف. "عنيدة يا شجر، ولا فائدة. ماذا لو تقصّدوك، ماذا لو قتلوك؟ ماذا لو. . . " قاطعته بالضحك قالت: "لم أقل إن الحادث كان مدبّرا، قلت: احتمال، مجرد احتمال!"

لم يقتلها أحد في البلد البعيد. هو الذي ذهب. مات كمدا، في بيته، جامعته. ستذهب إلى أمه في الصعيد، تقول لها: لا تقبلي فيه عزاء. ابنك قُتل. الجامعة قتلته. أي هراء هذا يا شجر. ليس هراء هي الحقيقة!. يوسف كان سيموت في كل مرة اقتحمت فيها قوات الأمن الحرم الجامعي وأمطرته بالقنابل المسيلة للدموع. كان سيموت يوم هاجم الجنود

المدينة الجامعية وقتلوا خالد عبد العزيز الوقّاد. يقول يا شجر الولد عنده سبعتاشر سنة. مستجد في سنة أولى يا شجر. أهله فقرا فلاحين، حطوا القرش على القرش وبعتوه الجامعة يتعلم. خمسة أشهر. يا شجر، وقالوا لهم تعالوا خدوا ابنكم من المشرحة". ابتلع يوسف الموت مرة، مرتين، ثلاثا. ثم جرعة أخيرة، أقل ربما، لم يحتملها. قتلته.

سافرت شجر إلى الصعيد. جلست أمام المرأة الكبيرة. قبلّت رأسها. لم تقل شيئا. ركبت القطار. عادت إلى القاهرة.

لم تكن جنازة. قرع الطبول والموسيقى العسكرية تفرض إيقاعها على الحرم الجامعي، تدفع بالطلاب إلى التجمع على جانبي الموكب للمشاهدة. "إيقاع؟" توقفت شجر فجأة أمام عبارتها، لم يكن هناك إيقاع بل نشاز أصوات زاعقة متداخلة.

- ما الذي يجري؟
- السنوي
- السنوي، يعنى إيه؟
- المهرجان السنوي، حضرتك أول مرة تدخلي الجامعة؟!

لم تشهده أبدا. لم تسمع به. أمر مستجد، على الأرجح. في المقدمة أولاد وبنات يحملون أعلاما شتى ملونة، مجرد أعلام كبيرة ملونة لا تمثل شيئا، بعدها أعلام الكليات واللافتات: اسم الكلية مكتوب بخط عشوائي على ورقة مقواة يحملها طالب يتقدم مجموعة من طلاب الكلية وطلباتها. ملابس فرعونية، عمائم تركية، ثياب عصرية دارجة. ضباط يسوقون فلاحين بسلاسل، بنات في ملابس السهرة، في ثياب الفلاحات، أخريات في الملايات اللف. فرقة من عازفي المزمار في الملابس البلدية. حفلت تنّكرى؟ تساءلت شجر. كيف سمعتها البنت الواقفة بجوارها؟ !

- إنهم يمثلون تاريخ مصر.
- تاريخ مصر؟ !
- من أين أتوا بهذه الملابس؟
- من المخازن.

أية مخازن؟ لم تسأل شجر وإن وجدت تفسيرا لقدم الملابس ورثاثتها. لم يفكر أحد في غسلها وكيها. المخازن. ربما للجامعة صندوق يفي باحتياجات فرق الهواة التمثيلية. من يولول؟ طالب. لابد أن أحد الطلاب يسخر بطريقة فجة

من الموكب. يتعالى الصوت. ليس طالبا ولا طالبة. جماعة مولولة! لافتة كلية الطب. لافتة أخرى تتبعها مرفوعة على صندوق خشبي ملفوف بالأسود. مكتوب على اللافتة: "من إنجازات كلية الطب" حاملو النعش من الطلاب يولولون وهم يضحكون. يشاركهم بعض المتفرجين. يختلط العويل بالضحك والتعليقات الساخرة. يا إلهي كيف ستعطى محاضراتها وسط هذا الصخب. طالب يرتدي ملابس نابليون، يخشى ألا يتعرف عليه الطلاب. يرفع لافتة مكتوب عليها: "نابليون وزوجته الملكة مارى أنطوانيت"!! لا داعي للشعر المستعار، الحجاب يفي بالغرض! "لافتة كلية الآداب" من خلفها عربة حنطور عليها ثلاث طالبات يغطين وجوههن بغلالات ملونة حمراء وصفراء وخضراء، لون لكل بنت ومن خلفهن بنات يرتدين قبعات وملابس عصرية. "كلية فاطمة" هتف أحد الطلاب فبدأ الصفير والتعليقات. وجدت شجر نفسها تنقض على الطالب الذي يحمل علم كلية الآداب وتنتزعه منه. دفعها بقوة. حالت أجساد الطلاب المتراصة من سقوطها على الأرض. استرد الولد العلم فغادرت المشهد.

قصدت رئيس الجامعة. لم تجده. تركت مبنى الإدارة إلى مبنى كلية الآداب. مكتب العميد .

- سيادة العميد موجود؟
- عنده اجتماع.

فتحت الباب ودخلت.

- خير يا دكتورة شجر؟

لم تقل شيئا. مدت يدها وأمسكت يده وأقامته عن مقعده، جذبته ليتبعها. تبعها. نزلت السلم وهى تمسك بيده. خرجا من باب الكلية. أشارت بأصابعها إلى الموكب:

- أنظر؟

تطلع إليها. ابتسم. ضحك.

- ما المشكلة يا دكتورة: المهرجان السنوي للجامعة؟ !
- كرنفال؟
- ليس كرنفال

قاطعته:

- مولد؟

– موكب احتفالي. لعب وتمثيل لمشاهد من تاريخ مصر،

ألست أستاذة تاريخ يا دكتورة؟

ابتسم وتركها واقفة كصنم. لا لم تقف كالصنم. صاحت في الطلاب، صرخت. لا تذكر ماذا قالت. تذكر أن صوتها ضاع بين قرع الطبول ونفخ المزامير والتعليقات. اتجهت إلى قاعة المحاضرات. لم يتغلب الميكروفون على صخب المهرجان. توقفت.

لم تعد إلى الجامعة طوال الأسبوع. وعندما ذهبت وصلها كلام العميد عنها: "الدكتورة شجر فقدت عقلها. دخلت علي وأنا في اجتماع وجذبتني من يدي. تصورت أن حريقا شبّ في الكلية أو كارثة ما على وشك الحدوث، لم أجد سوى موكب الكليات. فقدت عقلها".

لم تنتظر. أتت بورقة بيضاء كتبت:

"الأستاذ الدكتور عميد الكلية،

تحية طيبة و بعد،

أرجو إعفائي من كافة مسئولياتي في قسم التاريخ بالكلية فقد اقتحمت غرفتك بلا ضرورة وكنت على وشك أن أشعل

النار في نفسي وفى الكلية. ولا يخفي عليك أن هذه كلها من علامات الجنون. ومن المؤكد أن المكان الطبيعي للمجانين ليس الجامعة بل المصحات النفسية.

أوضح-إن فاتتك معاني الكلمات السابقة- أن هذا طلب استقالة.

أ. د. شجر محمد عبد الغفار

غادرت الكلية إلى البيت. أكدت على البواب: "لا أريد زيارات. من يسألون عني قل سافرت" صعدت إلى شقتها. أتت بمقص وقصت سلك التليفون.

الفصل التاسع عشر

". . . تحرك ركب سعيد من التل الكبير في اتجاه منطقة القناة، فبلغ في مساء ٦ ديسمبر ١٨٦١ عتبة الجسر شمالي بحيرة التمساح، وزار ساحة الحفر رقم٥ وهى إحدى الساحات الست المقسمة إليها تلك المنطقة. وقضى سعيد هناك اليوم التالي زار فيها أنحاء تلك الجهة، كما شاهد الموقع الذي اختير مصبا للقناة البحرية في بحيرة التمساح. وأعجب سعيد بهذا الموقع وطلب أن يشيّد له سكن خاص على الهضبة يشرف على مصب القناة البحرية في البحيرة حتى يرى ويسمع هدير انسياب مياه البحر المتوسط في بحيرة التمساح".

وغادر سعيد عتبة الجسر في الساعة التاسعة من صباح ٨ ديسمبر ١٨٦١ ومعه ديلسبس والحاشية وقاموا بجولة عند الجهة التي وقع عليها الاختيار لتكون موقعا لمدينة التمساح (الإسماعيلية فيما بعد) . . ومن هناك قام بجولة أخرى حول آبار نفيشة ثم تابع طوافة إلى مزرعة بير "أبو بلاح" وهي من منشآت الشركة. . . وأخيرا واصل رحلته فبلغ حوالي

الظهر مركز طوسُن جنوبي بحيرة التمساح، وقد أطلقت الشركة على هذا المركز اسم طوسُن وهو ابن سعيد باشا. . . في طوسُن أعد للوالي استقبال حافل فدخل المدينة ممتطيا صهوة جواده وبجواره ديلسبس راكبا هو الآخر حصانه، وسارا بين صفوف متراصة من العمال المصريين هتفوا بحياته، وعزفت موسيقى الحرس. وكان ركب سعيد باشا يتألف. عدا هذين الجوادين ، من ستة جمال عليها فاخر السروج ركب عليها كبار أفراد الحاشية، تتبعها عربة سعيد الخاصة تجرها ستة بغال ثم قوة من الجيش المصري. وعلى أثر هذا الاستقبال وطوافه بالمنشآت التي أقيمت في طوسُن انتهت الزيارة وقفل سعيد عائدا إلى عاصمة ولايته. "

لم تكن المرة الأولى التي تقرأ فيها شجر كتاب عبد العزيز الشناوي "السُخرة في حفر قناة السويس". انهمكت في قراءته كأنها المرة الأولى. في هذه الزيارة سيتفق سعيد مع ديلسبس على حل مشكلة الشركة بفرض السُخرة ونقل العمال إلى ساحات الحفر "بالزور" (وهو ما ورد على لسان بعض الفلاحين حين سألهم سائح إنجليزي وسجل العبارة بنصها بالحروف اللاتينية) . كل شهر عشرون ألفا يعملون في

ساحات الحفر، وعشرون ألفا في الطريق إليها وعشرون ألفا عائدين إلى قراهم، موزعين بين المراكب السابحة في النيل والقطارات المتجهة من القاهرة إلى بنها والزقازيق أو منها إلى القاهرة، والقوافل عبر التل الكبير متجهة شرقا في طريق الذهاب أو غربا في طريق العودة.

وضعت علامة فارقة عند صفحة ١٣٠ التي ترد فيها عبارة بالزور" أغلقت الكتاب. وضعته على الطاولة الصغيرة الملاصقة للسرير. أطفأت النور. اللقاء الأهم بين سعيد ودلسبس. سيتفقان فيه على توريد عشرين ألف عامل سُخرة شهريا إلى مناطق الحفر. وسيقرر سعيد- أو يقرر دلسبس ويوافقه سعيد على تخفيض عدد الجيش المصري وتسريح الجنود وتحويلهم إلى العمل في ساحات الحفر. لماذا تعود لقراءة هذا الكتاب الذي قرأته عدة مرات وتعرف كل ما ورد فيه؟ هزت كتفيها. هناك سبب، دائما هناك سبب.

أتساءل: هذه الكتابة المعلّقة بين حياتين، أين تأخذني؟ أحدق في الشاشة البيضاء. ببطء تتحرك أصابعي تدق على أزرار الآلة تؤلّف بين حكايتي وحكايتها. أتوقف وكأنني على مفترق طريق. أتأمل. أعرف أن شجر الآن في هذه اللحظة

التي أجلس فيها للكتابة تمشي وحيدة في الطرقات. تركت الجامعة ولم تعد قادرة على الكتابة: ثلاثة ملفات تقبع على مكتبها يحمل كل منها مشروع كتاب، ينتظر أن تفتحه وتبدأ في استكمال مادته وتدوين فصوله. ترى الملفات الثلاثة، تمسكها، تفتحها. تغلقها. تعيدها حيث كانت. تغادر البيت. تركب سيارتها، تسير باتجاه كوبري عباس. تقطعه إلى جزيرة منيل الروضة. تعبر كوبري الملك الصالح. تنحرف يمينا. تصفّ السيارة وتمشي. البنايات المتراصة عن يسارها. النهر عن يمينها، محجوب. نقيق الضفادع . ثغرة بين جدارين: الماء ومن ورائه النخيل. قارب صيد حوّلته أسرة ما إلى مقر إقامتها الدائم. امرأة تفترش الأرض ترضع طفلها، تحتضنه بيمناها، وبيسراها تحرك مروحتها على كيزان الذرة الموضوعة على جمرات مشتعلة. في الجهة الأخرى المباني المتهالكة، وراءها كنوز مصر القديمة: الحصن والكنائس وجامع عمرو لا يظهر منها شيء للعابر في طريق السيارات السريع.

تغادر البيت. تركب سيارتها. تسير بمحاذاة النيل في اتجاه كوبري الجامعة، تتجاوزه إلى كوبري الجلاء. تعبر إلى

الجزيرة. جانب من الطريق: الأوبرا. الجانب المقابل: متحف مختار. تمثال سعد زغلول في الوسط. الأسود البرونزية على مطلع قصر النيل ومنزله. النخلات الثلاث فميدان التحرير. بنت صغيرة- في الخامسة من عمرها، على الأرجح- تركض بين السيارات، تبيع مناديل ورقية. الأولاد يلعبون الكرة تحت الكوبري. سيارات الأمن. الجنود.

تغادر البيت. نفس الطريق. منزل كوبري قصر النيل. النخلات الثلاث. الفنادق الغالية. السفارة البريطانية. السفارة الأمريكية محصنة بكتل من الأسمنت تحتل جزءا من الشارع. تمثال سيمون بوليفار. الكراسي المصفوفة لاستقبال العزاء في مدخل مسجد عمر مكرم. نعش ومشيعون وصوت يتلو آيات من الذكر. تواصل إلى ميدان رمسيس. تصفّ السيارة في موقف محطة القطارات. تنزل. تعبر الشارع. تدور حول تمثال الفرعون القديم. تعود إلى سيارتها. التحرير مرة أخرى. شارع القصر العيني. المستشفى. قصر الأمير. كوبري الجامعة. ثم تنحرف يسارا. لا تتطلع إلى فلاحة مختار والقبة وبينهما النصب التذكاري لشهداء الجامعة. لا تملك أن تتطلع.

تعود إلى البيت. تفتح الباب. تغلقه. تلقي بالعصا. تجلس. جُنّت أم ضاقت بها الجدران؟ هل تفكر؟ يبدو وكأنها لا تفكر في شيء بعينه. نتف وشذرات تضيء وتختفي كتلك الحشرات الليلية الطيارة.

"أين ذهبت النجوم؟ " هتفت شجر فجأة وهى تقف في شرفة بيتها.

في الصباح ركبت سيارتها وشرّقت. تجاوزت المقابر وقلعة الجبل ثم شرّقت أكثر إلى الطريق الصحراوي. لا شيء سوى الرمال والحصى والتلال الجرداء. واصلت إلى أن رأت الكتلة الجبلية الوعرة تمتد عن يمينها محدّبة هلالية الشكل. تمتمت: "عتاقة: البوابة الغربية للبرزخ". لم تقصد البرزخ، تجاوزته إلى الطريق الواصلة بين المدن الثلاث. أوقفت سيارتها ونزلت. قطعت الحيّز الرملي الفاصل بين طريق السيارات والمجرى المائي. "خاصرة مصر"، "آخر خط دفاع عن مصر النيلية"، "دفع قوي ضد هجوم ضعيف. . . دفاع ضعيف ضد هجوم قوي." ما الذي أتى بجمال حمدان الآن؟ تابعت الأزرق الصريح. بدا بريئا لا يشي بالحكاية. سطح وديع، نحيل ورهيف كجسد المسيح.

تنتبه إلى ثلاثة جنود واقفين على أعلى التلة الرملية. ربما يتساءلون لماذا تقف في هذا المكان يهبطون في اتجاهها، يقتربون. أولاد يحملون بنادق قديمة. يتطلعون. يمضون مبتعدين. هل يعرفون حكاية الأطياف؟ هل يعونها؟ هل تستوقفهم الآن لتحكي لهم؟ من أين تبدأ؟ الولد، كان واقفا مثلهم، مشرفا، يحمل بندقية عتيقة. هناك على البوابة الرملية فيما وراء الماء. أطلق الولد النار فجأة. هل كان خائفا؟ قال الولد "هل نترك الحدود بلا دفاع؟ "أطلق النار. قتلوه. هل كان يعرف الحكاية؟ غريب، غريب، لا شيء يضيع، لا شيء. بإمكانها الآن أن تأخذ الأولاد، تمسك يد واحد منهم بيسارها ويديّ الثاني والثالث بيمينها كأنها تعبر بهم الشارع إلى المدرسة، خطوات. مجرد خطوات. ينبشون الرمل، نبشا طفيفا. بإمكانها الآن أن تناديهم ليقفوا معها على حافة الماء، هنا أيضا بإمكانهم أن يروا كل شيء. تمر من أمامها حاملة بضائع تسري على الماء ببطء وئيد. لا يظهر أحد من مرشديها ولا طاقمها، الآتي من أين؟ من بلاد الشمال البعيدة؟ من الجنوب؟ لا ينتبهون، هل ينتبهون؟

قامت شجر. ركبت سيارتها. سارت بمحاذاة المجرى المائي. الشلوفة، جنيفة، كبريت، فايد: قصور الأثرياء. المنتجعات الصيفية. أشجار الموز. الدفرسوار. مشارف الإسماعيلية: "الممر الطبيعي بين سهول سيناء وسهول فلسطين"، جمال حمدان مرة أخرى. غربا إلى قلب الدلتا. شرقا إلى قلب فلسطين. دخلت المدينة. سارت بمحاذاة ترعة الماء العذب. انحرفت يمينا إلى موقع مشرف على البحيرة. جلست لتناول غداءها. القوات البريطانية مرت من هنا إلى فلسطين. القوات الإسرائيلية أتت من فلسطين وصوبت مدافعها هنا. الفلاحون أتوا من صعيد مصر ووجهها البحري. عادوا. أو ماتوا هنا. لماذا بقي الصوت حاضرا إلى هذا الحد؟ لماذا تصون الذاكرة أشياء دون أشياء. المذياع خشبي صغير موصول بالكهرباء. من هذه البنت المنصتة؟ ينبعث الصوت معلنا: "قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية" "محلاك يا مصري وأنت ع الدفة/ والفرحة عاملة في الكنال زفة / ريِّسنا قال مفيش محال/ راح الدخيل وابن البلد كفّى". "انسحبت قواتنا إلى خط الدفاع الثاني". "أين يقع

خط الدفاع الثاني؟ ". "أتنحّى تماما ونهائيا" المذيع ينتحب. " لا". النار من جديد على جانبي المجرى المائي بطول الخط بين المدن الثلاث. نعش من المحمول على الأكتاف؟ "بالروح بالدم نفديك يا رياض". "بالروح بالدم نفديك يا جمال". يعبرون إلى الضفة الأخرى. الله اكبر والجنود وأسراب الحمام. نعش من المحمول على الأكتاف؟ نعش العميد؟ نعش سيدة الغناء؟ نعش الولد؟

"عدّى النهار". الدرس انتهى، لّموا الكراريس". ركبت شجر سيارتها، واصلت الطريق: الفردان. البلاح. القنطرة. الكاب. التينة. رأس العش. وأخيرا المدينة الحرة: بورسعيد. غريب أمر الأباطرة يمنحون المدن أسماءهم. يتصورونها بغالا أو أحصنة. يركبونها. يأبّدون صورتهم على صهواتها في تماثيل الحديد. للمدن دهاؤها، تبقى الاسم لنفسها، تسقط عنه صاحبه وتمضي في أمان الله، لا تلوي على شيء. قضت الليلة في بورسعيد.

في اليوم التالي عادت أدراجها. توقفت في رأس العش. في القنطرة توقفت في البلاح وفى الفردان. توقفت في

الدفرسوار. واصلت طريقها إلى السويس. كانت الشمس عن يمينها ذاهبة في اتجاه التلال. غابت وراءها.

أوقفت سيارتها. نزلت. سارت حتى وصلت شاطئ القنال. افترشت الأرض. سماء القاهرة لا تظهر النجوم. حدّقت في السماء. رأت المرأة تعرّش بجسدها على الأفق. تلامس الأرض بأطراف أصابع قدميها من ناحية الخليج، وبأطراف أصابع يديها من ناحية جبل عتاقة، وبينها مجرى الساقين يسلم نفسه صاعدا إلى البطن المرقّط بالنجوم ثم يميل القوس هابطا بذراعيها الممدودين. امرأة غريبة تبتلع صغارها في الصباح وكل مساء تلدهم من جديد. نجوم متلألئة ترقّط نهر جسدها وأطرافها. رُضّع تحيط أفواههم الصغيرة بحلماتها الكُثر. امرأة-بقرة. رأت شجر البقرة. الذراعان والساقان قوائم تعلوا وترتفع. من هذا الطاعن في السن الراكب على البقرة؟ عظامه فضة وشعره لازورد وتاجه فيروز. قوس السماء ضرع، من هذا الصغير الراكع تحت ضرعها؟ امرأة- بقرة تتواري في أوراق الجميز، تطل برأسها من وراء الشجرة، من هذا الذي تعطيه طعاما وتصبّ له الماء؟ امرأة- عين، على بوابة الأفق، تفتح ذراعيها

لتستقبل القادمين إلى التلال الغربية. أين ذهبت البقرة؟ من أين أتت اللبؤة؟ تعوي. تطلب دما. تركض موتورة في اتجاه غروب أو شروق. دم من ذلك الذي يسيل؟ من الذي ولد في هذه الساعة؟ المرأة السماوية تبتلع صغارها من جديد. ماذا دهاك يا شجر، توغّل بك الليل وأنت جالسة بلا حراك مأخوذة بصور لم تعد سوى نقش في القبور؟ تهز رأسها. عيناها تكذّبان. المرأة أمام عينها معرّشة على الأرض في الفضاء، على رأسها إناء، في بطنها إناء. قاتلة قابلة. ظلام. أطياف. الأطياف تفتح عيونها. توقد مصابيحها. تسري في المجرى المستتر. من هذا الذي يحكون له حكايتهم، يملأونه عزما فيملأ أنوفهم بنسيم الحياة؟ من هذا الذي ينتحب صباح مساء ولا يفارق حبيبته ولا يطولها؟

صوت من هذا المتردّد في الأعالي؟ أين دفاتره وأين الميزان؟ هل دوّنتَ كل شيء؟ ما الذي سجّلتَه يا وجه الطائر ذي المنقار الطويل؟ هل دقّقتَ الحساب وفصّلتَه في دفاترك؟ هل صنتَ مجلداتك في الديماس؟ هل تفكّ الأربطة، متى تفكّ الأربطة؟ هل تفتحَ الفم وتُطلق منه الكلمات؟ أفتحه وأطلقها

فتنطلق أسطع من الضوء، أسرع من كلاب الصيد، أخف من الظلال.

لم تكن نائمة، لم يكن عقلها شاردا في الزمان. كانت شجر ترتّب بيتها وتطمئن.

ركبت سيارتها وقفلت عائدة إلى القاهرة.

تمت

القاهرة اكتوبر١٩٩٨